القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

شهلا العجيلي

صَيف معَ العدوّ



رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

صَيف معَ العدوّ

طبع في لبنان

صَيف معَ العدوّ

رواية

مكتبة 380

شهلا العجيلي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2018 م

ردمك 978-614-02-1671-6



عمّان- خلدا- امتداد شارع الجاردنز
هاتف: 00962-79-5584993
البريد الإلكتروني: majaz.publishing@yahoo.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

لوحة الغلاف: رهف الصمادي- الأردن
تصميم الغلاف: عبادة الصمادي- الأردن

إهداء

إلى (الرَّقّة)، كما ستبقى في ذاكرتي!

شَهلا

شكر عميق إلى:

كارمن، وعبد الرحمن، ونادیا، وسمیر.

جريمة صامتة

مدّ ذراعه ليغلق النافذة المختبئة وراء ستارة قصيرة من الأورغانزا البيضاء المطرّزة بورود فضيّة، نافذة مستطيلة بإطار خشبيّ أبيض، ضلعها الأطول عموديّ، وينقسم زجاجها بعوارض قصيرة إلى مربّعات ثمانية. كانت نسمات جنوبيّة باردة قد هبّت من جهة (الراين)، الذي يظهر ويختفي بين الجسور المقبّبة في شارع (راين أوفر)، حاملة معها رائحة معدنيّة لسفن الشحن النهاريّة، مختلطة بدخان شواء السمك في مطاعم الرصيف المجاور، ورطوبة مطر الليلة الفائتة.

أجفلتني حركته المباغتة رغم أنّه اقترفها بسلاسة سينمائيّة، وذلك حين حرّك جذعه إلى الأمام قليلاً، لتتمكّن أصابعه من الوصول إلى حافّة النافذة، لكنّ ذقنه نقرت أعلى جبيني. لقد كنت مستغرقة في النوم، ذراعه اليمنى تحتضن جذعي، ووجهي بين ترقوتيه الناتئتين، وكانت رقبته تبعث رائحة دافئة من المسك والتوت، فأجاهد لأطردها باحثة عن رائحته العضويّة، رائحة جلده القديم التي تحمل سنوات طفولتي البعيدة.

في الحقيقة، لقد استعجلت لقائي به لنكون وحدنا، قبل مغادرتي إلى ميونخ، وقبل أن تتقادم صبغة شعري السوداء، وتبدأ جذوره البيضاء بالظهور، فتمنحني ذلك الشكل الكئيب الذي لا

ينسجم مطلقاً مع العمر الذي أشعر به، أو مع الروح التي أحملها بين جوانحي.

لم يخطر في بالي أنّ (عبّود) يسكن هنا أمام هذا المبنى التابع للبلديّة في شارع الميناء. مررت من هنا في كلّ يوم من الأيّام الثلاثة الفائتة. مشيت على الأرصفة، وتابعت الناس المتوجّهين إلى أعمالهم راجلين، أو على درّاجاتهم الهوائيّة. السيّارات قليلة بالنسبة لمدينة كبيرة مثل كولونيا، فلا تشعر معها باختناق مروريّ ينبئك بأنّك ستكون متأخّراً عن موعدك مهما بكّرت في الخروج. ثمّة سيّاح كثر من الألوان كلّها، ينحدرون باتجاه هذا الجزء العتيق من المدينة، وثمّة غرباء، لقد قررت أن أسمّي اللاجئين بالغرباء.

جلست أمس في المقهى الذي تشرف عليه هذه النافذة تحديداً. شربت قهوة لذيذة، وتناولت غدائي في المطعم المجاور. مطعم ممتاز، ووجبته غير مكلفة. أدير ظهري، كلّ مرّة، لهذه العمارة الآجريّة القديمة، وأنظر نحو الجسر. لطالما أحببت الجسور، إنّها تجعل العودة خياراً ممكناً مهما تأخّر الوقت! وحينما كنت أهمّ بالانصراف، كانت تأسرني العمارة التي أستلقي في الطابق الثالث منها الآن. تأسرني ثريّات الكريستال الصغيرة والمتلألئة بأضوائها الصفراء، وستائر الأورغانزا الكلاسيكية التي أرقد وراءها، وقنديل (الأوبلين) في شقّة في الطابق الأوّل، والذي ربّما تعود صناعته إلى أوائل القرن

العشرين. كان يتدلّى ليضيء طاولة بمفرش أبيض، يرى المارّة فوقه صحناً فيه تفّاحتان حمراوان وعنقود عنب أخضر، لا تمتدّ إليهما يد، وكأنّهما من البلاستيك. غبطت من في الداخل، وتساءلت عن هويّتهم، من يسكن هنا؟! لا بدّ من أنّهم أناس قدماء، وأصلاء، ومستقرّون، ألمان، ولهم عائلات، امتلكوا بيوتاً، اشتروها أو ورثوها، ولهم أقارب وأصدقاء يزورونهم ويقضون معهم أمسيات نهريّة لطيفة! الغرباء لن يسكنوا في قلب المدينة القديمة، الغرباء مكانهم بعيد، أطراف المدن الكبرى، وبلدات صغيرة، وغابات عذراء، وأرض من غير ناس. قد تكون الأماكن التي نمرّ بها بحكم العادة، أو الصدفة حياديّة، لا طعم لها، أو ذاكرة، وقد تعجبنا، أونكرهها، وقد نتمنّى دخولها وامتلاكها، وقد نخاف منها، وقد يصبح بعضها هكذا، في رمشة عين، مكاننا الخاصّ، ويصير لنا فيه حكاية.

اعتذر "عبّود" عن إزعاجي، وطواني مجدّداً بين ذراعيه لأكمل نومي. قلت له نتيجة لمشاهد مرتبكة من حلم خيّل لي أنّني رأيته في جزء من غفوتي:

- هل تتذكّر بشرى؟
- بشرى، بشرى ى ى ى.. زوجة خليل؟
- لقد ماتت.
- إيه إيه! الله يرحمهاااااا! قال بصوت تقطعه حشرجات النوم...

لم يسألني كيف، ولم أتطوّع لإخباره، فمعظم من عرفناهم، ماتوا في الآونة الأخيرة بسبب يمتّ إلى الحرب بصلة، لكنّ أفكارنا أنا وهو، ذهبت بلا شكّ في اتجاه واحد. كنت يوم تزوّج خليل بشرى، في العاشرة، وعبّود يكبرني بسنتين، وكنّا نلعب، كما في ليالي الصيف معظمها، مع أولاد الحارة حين وصلت الزفّة. حضرنا العرس، وصفّقنا، وكان والد العريس العمّ إسماعيل يضربنا بخيزرانته كلّما اقتربنا قليلاً من دائرة الدبّيكة، ويردّنا إلى الوراء، لتبقى حلقة المحترفين معقودة في الحوش الواسع أمام حوض الزرع الدائريّ، الذي يضمّ أشجار تفّاح وبرتقال وكبّاد، وشتلات ورد الجوري الأحمر والأبيض، وحوله غرف البيت الخمس، فيهرع بعضنا ليشدّ دبكة موازية في أقصى الفناء حيث الحمّام والمطبخ والتواليت، فتكون دبكة في منتهى الفوضى، أرجل تصعد وأخرى تنزل ضدّ الإيقاع، كما هي دبكة الأولاد غالباً. صعد العروسان إلى خلوتهما بعد منتصف الليل...

في الصباح الباكر، في السادسة ربّما، استيقظت وألقيت نظرة على الحارة. لم يكن سوى عبّود جالساً على برميل الحديد الذي ثبّته أبي أمام بيتنا في زاوية الشارع التي يتفرّع منها ثلاثة شوارع أخرى، كي يتفادى أيّة سيّارة قد تصدم جدار البيت وهي تلفّ الزاوية مسرعة. غسلت وجهي، ولبست على عجل لألتحق به. دخلنا من باب بيت العم إسماعيل، وصعدنا الدرج الذي ما زال على صبّته البيتونيّة بلا بلاط أو إفريز، والذي يفضي

إلى السطح، حيث عمّر خليل ثلاث غرف بمنافعهـــا فـــوق دار أهله. كانت النافذة مفتوحة، فرأيناهما عاريين، يحتضن كلّ منهما الآخر وينامان بسكينة، وكان لبشرى جســـد جميـــل، أبـــيض ومكتنز، وبالنسبة لي، كانت المرّة الأولى التي أرى فيهـــا امـــرأة عارية، عدا عن الجدّة "مكيّة" إحدى جاراتنا، الضئيلة والمترهّلة، والتي صرنا نغسلها في حمّامنا بعد ما لم يبق لها أحد في الدنيا.

حينما صار خليل يخرج إلى عمله بعد إجازة الزواج، كنّـــا نتلصّص على بشرى وهي تودّعه من وراء الباب، فيبدو بعـــض من فستان نومها الزهريّ أو الأزرق أو الأحمر بقماشه الســـاتانيّ اللامع، أو يبدو جزء من ساقها البيضاء البضّة، أو قـــدمها ذات الأظافر المدرّمة الملوّنة بطلاء أحمر، وكان كلّ منّـــا يتســـاءل في سرّه: كيف يمكن لخليل أن يترك هذا الجمال كلّه، ليـــذهب إلى العمل، وهل يمكن أن يمرّ ليل من غير أن يعتليهـــا؟! نظـــرت في وجه (عبّود)، كان يضحك، وعيناه مغمضتان. يضحك ضحكته القديمة التي يحاول أن يداري فيها شقاوة محبّبة، يعتريها خجـــل فطريّ، فتبدو ضحكة ناقصة أو نصف ضحكة، فخمّنت أنّه كان يفكّر بتلك الليلة. بيني وبين (عبّود) أسرار كثيرة، وذلك المشهد الذي جمع بشرى وخليل عاريين في ليلتهما الأولى ليس أخطرها!

ننتشر في الحارة، ما أن تبدأ العطلة الصيفيّة، مثل عصافير فرّت من قفص، لا شيء يوقفنا أو أحد، لا صراخ الجيران علينا لنبتعد عن سيّاراتهم، أو من تحت شبابيكهم، ولا زجرهم إيّانا كيلا ندوس بأحذيتنا الموحّلة غالباً على أرصفتهم المشطوفة، أو على رصيف أصلح صاحبه اعوجاجه بصبّ إسمنت جديد لم يجفّ بعد. كنّا نعدّ ذلك الصراخ أو الوعيد تحذيراً وديّاً، نستجيب له فوراً، فنخفّف حدّة حركتنا، أو نخفض أصواتنا، وبعد برهة ننسى، ونعود إلى انطلاقنا المعهود.

جرينا في الطرقات، ركبنا درّاجاتنا الهوائيّة وتفنّنا بالتشكيلات: اثنان منّا في المقدّمة، ثلاثة في الوسط، واثنان في المؤخّرة، ثمّ نتبادل المواقع... كنت أحبّ أن أبقى مع عبّود، حتّى لو لم نتكلّم ولا كلمة. أشعر دائماً أنّه في صفّي، وأنّه يتعاطف معي، ويدافع عنّي إذا لزم الأمر. كان يعرف كلّ شيء عن حياتنا القاسية، ولا يستخدم ذلك ضدّي مهما بلغ بيننا مبلغ الخصام. تحيّرني مشاعره تجاهي، وأحبّ أن أسأله عنها، لكنّ أحاديثنا لم تكن تأخذ هذا الاتجاه مطلقاً، فنكتفي باللعب معاً، وأن نكون في فريق واحد، مع الشرطة أو مع الحراميّة، لا يهمّ. أعترف أنّني أحببته جدّاً في قديم الزمان، وصار في وقت ما شغلي

الشاغل، كما نحبّ الأولاد الذين يكبروننا، ونحاول أن نثير إعجابهم، ولا أتذكّر تحديداً ماالذي كنت أفعله ليلتفت إليّ، لكنّني فعلت أشياء كثيرة، ولعلّ الموضوع لم يكن في باله أصلاً، لا أستطيع أن أجزم، فالأولاد يفكّرون بطريقة غريبة، وما تزال مجهولة حتّى بالنسبة لأكثر الفتيات خبرة، وسيبقون كذلك حتّى يصيروا رجالاً ونساء ناضجين، ومن ثمّ عجائز. لكن اهتممت من أجله بالموسيقى، وبأينشتاين.. (أينستين) هكذا كان ينطقها.

لم تكن أمّه تسمح له بالخروج معنا إلاّ لماماً، وتمنعه آيّام الدراسة منعاً باتّاً. في الصيف يلعب معنا ساعتين بعد الظهر بشكل شرعيّ، لكنّه كثيراً ما كان يغافلها ويخرج، وقد يسافر معها شهراً إلى بيت جدّه في تشيكوسلوفاكيا، فيسودُّ العالم، وتصير العطلة كابوساً، والحارة فارغة ومملّة على الرغم من أنّ الأولاد والبنات يتغلغلون فيها كالنمل، كما يعود الشباب من جامعاتهم في حلب ودمشق إلى الرقّة، فيقتعدون الأرصفة ويحدّثون بعضهم البعض تحت ضوء القمر عن أيّام دراستهم، وعن حبيبات بعيدات، ويسهر الرجال والنساء أمام أبواب بيوتهم حتّى مطلع الفجر، لكنّني لم أكن أتوانى عن الاعتراف لنفسي بأنّني أفتقد عبّود كلّ صباح ومساء، وأنتظر عودته على جمر.

درس الدكتور أسعد، والد عبّود، الطبّ البيطري في جامعة (برنو) في تشيكوسلوفاكيا، إلى الجنوب الشرقيّ من العاصمة براغ، وعاد بزميلته (آنّا) الزوجة الحسناء، التي أحبّها الجميع، وأنا

معهم. أحببتها بجلال، مع أنّها هي التي كانت تشعرني بالمسافة بيني وبين عبّود، فتبعدني عن عالمه كلّما اقتربت. تشدّه إلى فوق إلى أوربة، وتتركنا نحن نغوص في وَحْل ثمانينيّات بلادنا المرهقة. حين كان يريني صورهم على جسر تشارلز، أو في بيت جدّيه في المدينة القديمة (ستاري ميستو) يخفق قلبي حزناً على الفراق الوشيك، وأقرّر أن أدرس جيّداً وأحصل على منحة فألحق به إلى حيث سيكون، وأمشي معه على جسور نهر الفلتافا الخمسة عشر. سيحتضن كتفي ونحن نتسكّع على طريق القدّيسين من البلدة القديمة إلى القلعة، وستكون لنا صورة تذكاريّة نضعها على طاولة في المكان الذي سيكون بيتنا، صورة بجانب تمثال السيّد المسيح مصلوباً على الجسر، وقد كتب فوقه بالعبريّة: "قدّوس، قدّوس، قدّوس هو السيّد المسيح"، وذلك عقاباً لحاخام يهوديّ سخر من المسيح، ورفض خلع قبّعته أمامه، كما أخبرني عبّود!

لقد شكّل الرجال الذين درسوا في أوربة الشرقيّة في السبعينيّات (كومونة) أو مجتمعاً صغيراً لهم بيننا في الرقّة. ذهبوا إلى الاتحاد السوفيتيّ وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا، ويوغسلافيا ورومانيا وبولونيا، وألمانيا الشرقيّة، بوصفها دولاً صديقة لسورية التي تتبادل معها الدعم في نضالاتها التحرريّة من أجل الاشتراكيّة والديمقراطيّة ضدّ الرأسماليّة والإمبرياليّة. تزوّجوا نساءً جميلات، وأنجبوا أولاداً وبنات وسيمين سمّيناهم بأولاد الأجنبيّات. كانوا نظيفين، ومرتّبين، وغير مبذّرين، وجادّين في دروسهم. يهتمّون

بالقراءة والموسيقى، ولواحدهم في الغالب حيوان أليف، قطّة أو كلب. يذهب أولئك الأولاد المسلمون إلى الكنيسة مع أمّهاتهم، ويقيمون أعياد ميلادهم في بيوتهم الصغيرة وغير الباذخة في منطقة الثكنة أو الدرعيّة، لكنّها بيوت دافئة، وكلّ ما فيها ينمّ على ذوق راق بالفنون والخبرة العمليّة. كلّ شيء في مكانه، بلا إضافات. كانت لهم لقاءاتهم العائليّة الدوريّة، سهرات في بيت إحدى العائلات، نسمع عنها من دردشات أولادهم في المدرسة، وطعام بنكهة مختلفة عن نكهة طعامنا العربيّ، ومشروب لا يشبه العرق أو الويسكي الذي يخرج به المشترون من خمّارة أبو إبراهيم مخبّأً بأكياس ورقيّة، بل نبيذ جاؤوا به معهم من غابات القوقاز في جورجيا، وفودكا حملوها من مؤسّسات موسكو الاستهلاكيّة، والتي حين يعزّ من يأتيهم بها إلى الرقّة، يصنّعها أولئك الأطبّاء والمهندسون والصيادلة محليّاً، فيتحوّلون هكذا إلى خمّارين نشيطين في جوّ كرنفاليّ من الضحك والغناء والمناوشات الوديّة. يأتون بالكثير من البطاطا، يسلقونها ويهرسونها، ويضيفون إليها الشعير، وذلك كلّه تنتجه الرقّة محليّاً كأجود ما يكون. يحركون المزيج، ويبرّدونه قليلاً، ثمّ يضيفون إليه الخميرة، وحين تظهر بعد عدّة ساعات أولى فقاعات غاز ثاني أوكسيد الكربون، يهلّلون ويتصايحون، وبعد أربعة أيّام تقريباً يحضّرون عدّة التقطير، وتبدأ الحرفيّة التي ينماز بها الدكتور أسعد، والمعروف بحساسيّة ذائقته، بالظهور، فيكرّر عمليّة التقطير ليحصل على مشروب أكثر

نقاوة، وقد يخفّف حدّته من أجل الآخرين الذين يفضّلونه أهدأ، فيعالجه بالكربون، وقد نذهب أنا وعبّود مراراً إلى حانوت العطّار الأعمى في السوق الشرقيّ خلال هذا الموسم، لنحضر على وجه الاستعجال ما ينقص من أجل هذه العمليّة: خميرة، أو كربون، أو شعير، أو قشور البرتقال المجفّفة... وهكذا لا يُعجز هؤلاء الرجال شيء ينقلهم إلى أيّام دراستهم في بلاد الثلج والفراء والبطاطا الحلوة! وكان عبّود يقول لي إنّ (مندليف) الذي رتّب الجدول الدوريّ للعناصر الكيميائيّة هو الذي حسب النسبة المثاليّة من الماء والكحول للحصول على أفضل فودكا، والتي تطوّرت إلى أن حققت براءة اختراع في العام 1894 تحت اسم (فودكا موسكو الخاصّة)، وساهمت في تطوير الاقتصاد الروسيّ، وأنا أهزّ رأسي مأخوذة بعالمه الملوّن، وأصير مثله أحبّ الشاي المعطّر وأزدري الكوكا كولا. لقد منحت تلك العائلات الرقّة، مدينتنا الصغيرة، أجنحةً!

في سفراته القليلة إلى بيت جدّه حصلت منه على هدايا: مجسّم من السيراميك لبيت تقليديّ بسقف ذي زاوية حادّة، انكسر بعد أسبوع من حصولي عليه، ومرّة قلادة من الفضّة عليها صورة العذراء، وقد أمالت رأسها إلى اليمين بحزن، ففقدتها بمرور الزمن. ومرّة دمية تشيكيّة باللباس التقليديّ، ثوب من الكتّان الأبيض ناصع البياض، وفوقه ثوب آخر من المخمل الكحليّ المطرّز بالذهب، ولها جديلتان كثيفتان سوداوان، وتعتمر

غطاء مخمليّاً للرأس، أشبه بقبّعة، سمّيتها ناتاشا، واحتفظت بها حتّى لحظة خروجي من الرقّة. ومرّة أهداني خاتم أمّه الفضيّ ذا الحجرة الخضراء، الذي نسيته قبل رحيلها، فاعتبرته عربون ارتباط أبديّ، وحين انقطعنا عن بعضنا البعض، بقي الخاتم في علبة بودرة خدود فارغة وقديمة، حتى إنني حين كنت أصادفه، نادراً ما أتذكر (عبّود)، أو أتذكّر سبب وجود هذه التنكة الصدئة في حوزتي!

* * *

كانت أمّي مشغولة بمعاركها مع كلّ من أبي وجدّتي، لذلك تركتني بصحبة عبّود وغيره من أولاد الجيران وقتاً طويلاً في الشوارع التي غالبا ما تكون آمنة ومنطوية على ذاتها، وخلّف ذلك لديّ شعوراً بأنّني لم أحظ بتربية جيّدة مقارنة بالأولاد والبنات الذين لا يسمح لهم بالخروج من بيوتهم، ممّا أدّى إلى عزلتي لاسيّما حين يتركني عبّود ليسافر مع أمّه إلى براغ. وقتها أشعر بالنقص، فأقرّر أن أنتقم من كلّ شيء حولي لأعيش حياتي السريّة، فأذهب مع جارنا فرحان، سائق التاكسي الأحمر، والذي يتلقّى طلبات خاصّة لحفلات الزفاف.

فرحان طويل ونحيل، وشعره كثيف وثابت. يمشّطه بفرق إلى جهة اليمين، ويبدو عالياً جداً ويصير رأسه أطول ممّا هو عليه. إنّه شاب عشرينيّ هادئ ليس له مشاكل. وحيد أهله، يعيش مع والديه

في شقّة صغيرة في العمارة ذاتها التي تضمّ عمّيه مع عائلتيهما. لسيّارة التاكسي الحمراء طقوس عناية تفوق العناية بحبيبة! يبدأ فرحان بغسلها منذ الساعة الثانية ظهراً. يمدّ الخرطوم من حنفيّة في مدخل عمارتهم، ويدلق عليها سائل (لودالين) لغسيل الصحون. يفرك العجلات ثمّ يجفّفها، وهو يرتدي بنطلون قطن أبيض داخلي، تحت صدر عار تفرضه حرارة الصيف الشديدة. لم أتابع طقوس الغسل في الشتاء، إذ نكون وقتها مختبئين كالدببة في جحورها. تكون السيارة جاهزة في الساعة الخامسة، وفي الخامسة والنصف، أصعد في المقعد الخلفيّ مثل أميرة، وأذهب مع فرحان إلى الزفّة التي يفترض أنّه استُؤجر من أجلها. هكذا نذهب كل يوم إلى بيت عريس في إحدى القرى القريبة، فنأخذ معنا بعضاً من المحتفلين لنتناول العروس من بيت آخر أو من قرية أخرى. لا أحد يعرفني هناك، أهل العروس يظنون أنّني من أهل العريس، وأهل العريس يظنون أنّني من أهل العروس، وليس من سيخمّن أنني جارة السائق التي تذهب في نزهتها اليوميّة عصراً. أشارك في زفاف أناس لا أعرفهم، وليسوا من محيطي، وأمسك مثلهم بمنديل من النايلون الملوّن، وأمدّ يدي به من نافذة السيّارة. يزجرني أحياناً أحدهم أو إحداهنّ لأنّها تريد أن تجلس إلى الشباك، وتمد يدها بمنديلها هي الأخرى، فأزدجر، وأتكدّس مع أطفال غرباء ونساء لهنّ رائحة غنم أو عطور بائسة، وصابون غار. نكون سبعة إلى عشرة أحياناً في سيارة بالكاد تتّسع لخمسة.

لا يتدخّل فرحان مطلقاً، وكان يظنّ أن أهلي على علم بأنني معه في الزفة، لكنّني لم أكن أخبر أحداً. أنتظر أن تصعد العروس معي، لكنّها لا تفعل. لها تاكسي خاصّ لا يركب فيه الأطفال. نمشي عبر الحقول، فيواجهنا جمال الخضرة في كلّ مكان بين قرى الرقّة، وعلى الطريق العام حين نقطع الجسر باتجاه (الكسرة) يستقبلنا زيزفون وسنديان وصفصاف، ويصطفّ الحور في المزارع حاشراً رأسه في شؤون السماء. نمرّ على خيم النوَر: أولاد وبنات بروؤس شقراء أو حمراء مشعّثة، وملابس رثّة، وأقدام حافية، ووجوه سفعتها الشمس فغاب لونها، وبقي مزيج غير منسجم من الشعر الأصفر والبشرة السمراء. عقدوا مناديل ملوّنة ببعضها البعض، حمراء وخضراء وزرقاء وبنفسجيّة، وصنعوا أراجيح علّقوها على أغصان الأشجار. تجلس بنت على وسادة تمثّل مقعد الأرجوحة، والثانية تدفعها. لطالما تمنيت أن أشاركهنّ اللعب، وأن أسألهنّ عن الخيوط التي في آذانهنّ بدلاً من الأقراط! أودّ أن أطلب من فرحان أن يتوقّف ويتركني معهنّ. أعرف أنّه لن يوافق، وأنا لم أكن أطلب الأشياء التي أعرف مسبقاً أنّها لن تتحقّق.

باع فرحان التاكسي وغادر للعمل في السعوديّة. صارت الحارة خالية من اللون الأحمر، واستمرّت الزفّات في القرى المجاورة من غيري. لن ينتبه أحد إلى غيابي بالطبع، ولا إلى منديلي الذي ضاع بدوره. ربما تكون أمي قد تخلّصت منه، إذ تقول لي إنه قبيح مثل مناديل النوَر! ثلاث ساعات لا يفتقدني

فيها أحد، ولا أسأل عن أحد، أكون في عالمي الخاصّ، مع أناس جدد، أراهم في غاية سعادتهم، يرقصون ويزغردون، وأنا أزغرد معهم وأصفّق وأغنّي: *يـــا شــوفير دوس دوس.. الله يعتلــك عاروس*.. أفتح الشباك إلى نهايته، فيهبّ الهــواء الســاخن في وجهي. أقاومه بأن أفتح عينيّ حتّــى تــدمعا، وتصــير أوراق الأشجار متماوجة، وكذلك الحقول الصفراء التي تنتظر الحصاد، والكاميونات، وتهتزّ صور البشر، كأنّهم لوحات بريشـــة غـــير واثقة. لا أنزل من السيارة حين يدخلون بيت العـــروس، بـــل أنتظرهم مع فرحان ليخرجوا، ثمّ نعيدهم إلى بيـــت العـــريس، ونرجع إلى حارتنا، ومعي من السكاكر التي ينثرونها علـــى رأس العروسين، فيسألني فرحان: أعجبك العرس، فأقول: أعجبني.

تزوّج فرحان فتاة من المزارع المجاورة و لم أذهـــب في زفّتـــه. جاءت سيّارات تاكسي كثيرة صفراء، وقاد هو سيّارة مرســـيدس لأحد أصحابه بشاخصة سعوديّة. كان يأتي في الصيف ويحضر معه هدايا لأهل الحارة: بارفانات هاواي الموجودة على رفّ ما في كل بيت، وساعات سايكو بإطارات مطلية باللون الـــذهبيّ، ووجـــوه مخدّات مطرّزة بورود وعبارات: "صباح الخير" و"تصبحون علـــى خير"، وبعدها غاب تماماً. بعد أكثر من عشرين سنة عاد كقطـــب من أقطاب الثورة، يحرّض على التظاهر في ساحة الساعة، ويتّهم من بقي من أهل الحارة في بيوتهم بالعمالة للنظام.

* * *

كانت آنا على خلاف مستمر مع أسعد بسبب من سكنهم في الحارة، فوق بيت أهله. تريده أن يخرج إلى المنطقة الغربيّة من المدينة، نحو ما سمّيناه بمعسكر أوربة الشرقيّة، وحيث أنه طبيب بيطريّ ملتزم بالعمل في مزارع الأبقار التابعة للدولة، فقد كان وضعه الماديّ أقل من غيره من زملائه، كما أنّه ملزم بمصاريف والدته وأخته العزباء التي تعيش معها، والتي تسرّ دائماً إلى جليساتها بأنّ أخاها وأمثاله قد أكلوا لحم الخنزير وتخنزروا، وأنّ النساء الشقراوات اللواتي ساعدهم هناك، أو كنّ زميلات لهم، وصرن زوجات، قد هربن من الفقر، والعهر، وجئن إلى هنا للسترة، وأنهنّ حينما يتقدّم بهنّ العمر تنبت لهنّ شوارب.

كان أسعد سكّيراً، ومعثراً، وكان يعامل آنا بقسوة، ويضربها أحياناً. لم تجد المرأة ما جاءت من أجله، ولم تتمكن من العمل في تخصّصها في الطبّ البيطريّ، فحاولت أن تعطي دروساً في العزف على البيانو، الذي درست أصوله وبرعت فيه، مثل أغلب مواطنيها، لكن لم يكن أحد يهتمّ بتعليم البيانو في الرقّة في تلك الآونة، وإن حدث، فلن يدفع الكثير، فاشتغلت خيّاطة. مرّة فصّلت لي ثوباً من المخمل الأحمر، وله عند الخصر حزام من الساتان الكحليّ ببيبون أماميّة. كنت أتأمّل حركة يديها البيضاوين المعروقتين وهي تمرّرهما فوق القماش السميك، وقد لفّت (الميزورة) حول رقبتها، لقد نحلت كثيراً! جدّتي قالت إنّها حين جاءت إلى البلد كانت ذات متن ممتلئ، ومتماسك، وأخّاذ،

والآن ترهّلت بشكل عجيب من الهمّ والتقتير. في الحقيقة برعت آنّا كثيراً في التفصيل. كانت تبرع بكلّ شيء تفعله: المربّيـــات، والسجق، وصندويشات جبن القشقوان مع السلامي. وكانـــت تعطيني من كلّ شيء تفوح رائحته الشهيّة من بيتهم: الكيـــك، والفطائر، والبسطرما، والكانيلوني، الذي تحضر صلصته الخاصّة معها أو توصي إحدى صديقاها بإحضارها مـــن بلادهـــنّ، أو تطلب إلى سائقي التاكسي الذين يذهبون إلى تركيا إحضـــارها، حتّى صارت شائعة في الرقّة. كل ما تصنعه كان مختلفاً مـــع أنّ المكوّنات ذاهّا متوافرة في أغلب البيوت، وحين أسأل جدّتي عن السبب تقول: لكلّ سيّدة بهاراهّا، لكن كنت أشعر أنّ المســـألة تتجاوز أمر البهارات. أمّي تقول إنّها الثقافة، هذا هـــو ســـبب الاختلاف. لقد علّمت آنّا لحّام الحارة كيف يعدّ لهـــا اللحـــم بطريقة خاصّة. يقصّ الستيك، ويحضّر الفيليه من لحم العجـــل الرضيع الذي صار أسعد يساعده في تأمينه من مزرعة الأبقـــار، بعيداً عن قطع لحم الخروف الكبيرة مع العظـــم، أو المكعّبـــات الصغيرة التي نسمّيها (راس العصفور). تحـــوك آنّـــا الكنـــزات الصوفية بطريقة أنيقة، جدائل غليظة نافرة، بقبّة عالية، أو علـــى شكل حرف V، وبألوان رزينة: رمادي، وبترولي، وبيج تجعـــل من عبّود رجلاً في منتهى الثقة، وتضفي على أسعد شيئاً يغطّـــي على بعض عشوائيّته التي يذكيها التدخين الشـــره والشـــراب. ببساطة الفرق بين بيتها وبيت حماهّا الـــتي تســـكن في الشـــقّة

الأرضيّة، كالفرق بين بيت في براغ وبيت عاديّ في الرقّة، ليس أكثر أو أقلّ، إنّه مختلف فحسب! مع ذلك فشلت آنّا في علاقتها بأسعد، فالحبّ على أرضها وتحت سطوة مرحلة الدراسة والاغتراب، يختلف عنه على أرضنا حيث دائرة الأهل الصغيرة، والعمل الروتينيّ وسطوة النساء السمراوات، لذا حار الجميع في أمر أسعد الذي هجر المرأة ذات الشعر الكستنائيّ المنسرح الكثيف، والعينين اللتين هما أصفى من لون البحر حينما تنظر إليه عن بعد، ليتزوّج بموظّفة في محطّة الأبقار، بنت صغيرة، سمراء نحيلة، بشعر أحمر محنّى. كنت كلّما رأيتها تملأ أنفي رائحة روث وبرسيم، هذا ما كان يخطر لي! كان اسمها صفاء، وفيها رعونة، ولا تحسب حساباً لأحد. تطلق ضحكتها المبحوحة في كل مكان: في الشارع، على درج العمارة، في محل الألبسة، عند بائع الخضار. الرجال يمتلكون أذواقاً غريبة حقّاً! وأسعد له من المزاج البوهيميّ الشرس ما عجزت آنّا عن التعامل معه، إذ روّضتها سريعاً المفاهيم النمطيّة عن الأسرة، والطاعة، والولاء، ممّا يشبه كثيراً مفاهيمنا العربيّة المثاليّة، في حين ينفر أسعد من الأجساد الداجنة إلى مداعبة الراعيات الصغيرات في البريّة، والفلاّحات اللواتي ينحنين بمناجلهنّ على محصول البرسيم، فلا يمنع نفسه عن مؤخّراتهنّ التي يصفها بالأسطوريّة. قبل أن نرى صفاء في الحارة، كانت جدّتي قد ساعدت آنّا بمبلغ من المال، فحزمت أغراضاً قليلة، وعادت إلى بلادها.

بقي عبّود مع أبيه، فالضيم الذي وقع على أمّه جعلها تتنازل عن الولد. قالت لجدّتي: سيكبر قريباً، وسيعود إليها. لن تستطيع تحمّل مصاريفه في براغ. أبوها أيضاً لن يتمكّن من ذلك، فالأوضاع الاقتصاديّة سيّئة جدّاً والناس تموت من الجوع، وستمنعها السلطات هنا في المطار من اصطحابه بلا موافقة وليّ الأمر. الهروب به أمر مستحيل! لم أخبر عبّود أبداً بمساعدة جدّتي لأمّه، وكنت سعيدة بأنّه صار أقرب بعد رحيل آنّا. شعرت بأنّني امتلكته، لكنّه فقد الكثير من الألق برحيلها أيضاً، فقد حاجز الأبّهة الذي صنعته له، وبدأت أحسّ تجاهه بالشفقة والمسؤوليّة، وصرنا متعادلين في أحزاننا أنا وعبّود، صرنا متعادلين في الظلم، وفي جراحنا العائليّة.

بقي عبّود معلّقاً بيننا وبين آنّا، أو بين الرقّة وبراغ، وأكثر ما كان يبدو ذلك في مزاحه السمج، فالمزاح يحتاج روحاً منتمية إلى المكان، وعارفة بمتناقضاته. كما يبدو أيضاً في لهجته الضائعة بين مخارج حروفنا البدويّة الصعبة، والتي كان مضطرّاً للحديث بها، وبين صوت (التسا) السلوفاكيّ، كما تحكيه أمّه، ممّا يثير ضحك السامعين. كان يحبّ أن يكلّم إيفا وليلى وكاندي ومروان بالتشيكيّة، ويشعر بقربه إليهم، لكنّهم بعد رحيل آنّا، صاروا ينفرون من صحبته، ويشعرونه بالضآلة. يحمّلهم الرسائل إليها، حين يذهبون مع كل عطلة إلى بلاد أمهاتهم، تشيكوسلوفاكيا، ويعودون له بعلب الشوكلاته التي تشتريها آنّا،

ومعاطف الجوخ المرتّبة، والأحذية والقبّعات. حين ماتت جدته لأمه، بكى كثيراً، ولم يزره أيّ من أولاد الأجنبيّات، فكان يعود إلينا نحن الذين نشعره بتفوّقه. لم نتركه حينها وحده، فتحنا له في بيت جدّتي مجلس عزاء، وأنا بكيت معه، وقدّمت للضيوف القهوة المرّة.

في العطلات التي جاءت بعد رحيل آنا كنت أستيقظ كلّ صباح باكراً، أنجز أشيائي على عجل: غسل وجهي، وتنظيف أسناني،... وأخرج بلا فطور طبعاً، وربّما بالبيجاما، ولكن مع حذاء. دائماً كنت أرتدي حذاء ولا أخرج مطلقاً بالخفّ المنزليّ. أقف أمام بيته، في الزقاق الموازي لزقاقنا، وأضرب براحة كفّي باب الحديد الأسود ضربات خفيفة، فيخرج الصوت مدوّياً بسبب اهتزاز صفيحة المعدن الرقيقة التي أغلقوا بواسطتها فُرجات الباب الناتجة عن الحديد المشغول. لم تكن الصفيحة مثبّتة بشكل جيّد، جزؤها مخلوع، فتهتزّ إلى ما لا نهاية، وعندها أحجم عن محاولة الدخول لإيقاظ عبّود، متجنّبة نظرة جدّته الشزراء، وأسئلة عمّته الفضوليّة، وأقول لنفسي: لن أوقظه، حرام! سأدعه ينعم بالنوم لأطول وقت ممكن، لماذا أوقظ ولداً لن يجد أمّه في البيت أبداً! صارت أمي هي التي تعطيه من كعكنا وحسائنا وشطائرنا، وغاب صوت الموسيقى عن بيتهم، لا أوبرات، ولا كونشرتات، ولا بيانو، ولا أيّاً من الأشياء التي جعلته يحلّق في عالم آخر. نسي عبّود العزف، ولم يعد يستمع إلى تلك

الكاسيتات التي حفظتها آنّا مرتّبة في علبها في خزانة صغيرة إلى جانب البيانو. خزانة من خشب الجوز البنيّ اللامع، شحنتها معها من بلادها، تفتح بباب قلّاب، يصير طاولة للكتابة. لها قفل ذهبيّ ومفتاح مزخرف تعلّقه بسلسلة في رقبتها أحياناً. على الرفّ العلويّ تصطف الكاسيتات، وفي الرفّ السفليّ علب متعدّدة الأحجام من الخشب المطعّم بالصدف، ومن الكريستال الملوّن، ومن الخزف المزخرف برسوم وجوه لأميرات من عهود قديمة، يرتدين ثياباً قروسطيّة ويضعن على رؤوسهنّ قبّعات أو أمشاط الريش. ظلّ الفضول يلاحقني طويلاً لأعرف ما في تلك العلب، من غير أن أجد أيّة إجابة. تحت الخزانة، يوجد درج واسع تضع فيه آنّا نوطاتها المحبّبة، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من هذا الحرم، حتّى إنّ أسعد رغم رعونته كان يحترم تلك الخصوصيّة.

باعوا البيانو، أخذه المشتري الذي جاء من حلب حين كان عبّود في المدرسة. لم أعرف إذا ما كان سيشكّل رحيل البيانو له شيئاً! كان كتوماً جدّاً، وكنت أخشى أن أجرحه بأسئلتي من حيث أريد أن أخفّف عنه. لكنّني سألته عن الكاسيتات، فلفّها بشريط أحمر وأهداني إيّاها في عيد ميلادي. كلّما سمعتها تعاودني حالة الرهبة التي كانت تجعلني أقف خلف الباب المفضي إلى صالونهم، وأمدّ رأسي لأختلس نظرة إلى آنا. كانت بارعة الجمال وهي تجلس إلى البيانو وحيدة في الغرفة، وقد لبست أجمل ثيابها! في الصيف ثوباً من الموسلين الأرجوانيّ، وقد فرقت شعرها

الكستنائيّ المشقرّ من منتصفه، ولفّت خصله بشكل لولبيّ علـــى جانبـــي الرأس، ثمّ عقصت نهاياته إلى الداخل فوق رقبتها، فيبدو مثل إكليل يحيط برأسها، وتكون قد وضعت عقد اللؤلؤ حـــول جيدها الأبيض، لؤلؤ بحبّات كبيرة، وفي أذنيها تضع قرطاً مـــن اللآلئ ذاتها. وفي الشتاء ترتدي ثوباً طويلاً من المخمل الأســـود بياقة تخفي رقبتها، مطرّزة بخيط مبروم من القصـــب الـــذهبيّ، وكذلك نهايات الأكمام المحكمة على المعصمين مطرّزة بـــالخيط ذاته، ومنفوخة عند الكتفين. ترفع ثوبها الثقيل كي تمنع صـــوت احتكاك المخمل بجسدها إذا ما تحرّكت، فتبدو حركة قدمها في حذائها الذهبيّ ذي الكعب العالي رهيفة وأنيقة علـــى دوّاســـة البيانو: باس، إيكو... جميلة جميلة هي آنّا، جميلـــة، وحزينـــة، ومهيبة بأصابعها الطويلة البريئة، ولونها الشاحب مثل السفرجل، ونهديها الصغيرين اللذين تبرز حلمتاهما من تحت المخمل المشدود على جسدها! تضع قرطاً، حجرة كريستال واحـــدة كـــبيرة، تشظّي الضوء القادم من مصباح الشارع خلف النافذة. يسرقني الشعاع الملوّن اللذي يمضي بعزم من كريستالتها، مع موســـيقى الكونشيرتو الثاني لرخمانينوف الأثيرة لديها، والتي اســـتحوذتُ عليها، وصارت لي عنواناً لا أسمح لأحد مشاركتي به. حفظـــتُ حركاتها، كلّ دفقة شعوريّة تصنعها سلسلة النغم، تحليقها فوق جبال التاي، وغوصها في قاع مناجم كريستال بوهيميا، وكأنّني أنا التي طاردت نوطاتها في معاهد بطرسبرج وموسكو وبـــراغ.

لقد حدث ذلك لي بجنون بعد أن أصبحت كاسيتات آنّا بحوزتي.

تعلّق آنّا صورة كبيرة لسيرغي رحمانينوف في ركنها الموسيقيّ الخاصّ في الصالون الواسع، وكي تتجنّب أيّ استنكار أو تعليقات ساخرة قد تنتج عن محيط يجهل مثل هذا التبجيل، فإنّها تقول هي صورة والدها، رغم أنّها تضع على سطح البيانو صوراً عائليّة لوالديها وإخوتها وأصدقائها، ولا أحد منهم يشبه رحمانينوف الذي يبدو قادماً من جنان الخلد. كانت صورته بالأبيض والأسود، وهو في منتصف العمر: له عينان واسعتان مؤرّقتان مثل من لديه مهمّة رسوليّة لم تكتمل بعد، منكبّ على العمل على نوطة موسيقيّة، ببدلة سوداء كلاسيكيّة، وربطة عنق مقلّمة، وقلم أسود بين أصابعه الطويلة. أخبرني عبّود أنّ سرّ رحمانينوف في أصابعه. كان يشار إليه بالـ (بيغ هاندز) وقد عاش في أميركا بعد أن غادر موسكو نهائيّاً في العام 1914. يبلغ طوله مئة وثمانية وتسعين سنتيمتراً، وكفّاه كبيرتان، تسيطران على مفاتيح البيانو سيطرة تامّة، وكان يستطيع بهما عزف نوطتين تبعدان عن بعضهما البعض ثلاثة عشر مفتاحاً. كان يمارس عزلة نواة الكريستال لتنمو في أحشاء الشتاءات الثقيلة لغابات سيبيريا المجهولة، لذا كانوا يلقّبونه بستة أقدام وبوصتين من الكآبة الروسيّة.

حين غادرت آنّا فقد عبّود حكاياته الساحرة، وتحوّل من ولد رزين إلى معتوه! صار شقيّاً، ولم تكن شقاوته حقيقيّة، بل

مفتعلة. يحاول عبرها أن يرضينا، وأن يثبت انتماءه إلينا بنكات سخيفة، ومزاح سمج يصير عنفاً أكثر الأوقات. إنّ ما كان يميّزه من قبل هو تحفّظه الأصيل ولباقته العفويّة اللذان أنشأته عليهما آنّا. اللباقة التي تسلّلت خلال مئات السنين من بلاطات القياصرة، وقصورهم الصيفيّة إلى عامّة الناس في أزقّة بلادهم وساحاتها، في حين ينعم الأولاد في حارات الرقّة بما تنعم به الأسماك الصغيرة العمياء في الفرات، والتي إن علقت في شبكة الصيّاد، ألقاها ثانية في الماء، لتمضي في مجرى غريزتها. لكنّني كنت أرى ما يفعله عبّود، حتّى في أبشع صوره، مقبولاً. ألتمس له أعذاراً، وأدافع عنه، وأضحك معه، رغم أنّه لم يكن يضحكني على الإطلاق!

* * *

تحبّ جدّتي أن تنام في بيتها، رغم أنّها قاربت الثمانين، وصار البقاء وحدها مغامرة، وأنا أرجوها دائماً أن تبقى عندنا علّي أستطيع أن أصل إلى الأسرار التي مازالت تحتفظ بها. بيتها على الرصيف المقابل لبيتنا، مكوّن من دورين، يصل بينهما درج داخليّ من المرمر بدرابزين حديديّ أسود مشغول (فيرفورجيه). في الدور السفليّ صالونان ستيل ينفتح أحدهما على الآخر، وحمّام ومطبخ يفضي إلى حديقة صغيرة داخليّة. في الدور العلوي (لاونج) صغير يتفرّع إلى ثلاث غرف نوم وحمّام. عمّر جدّي

هذا البيت على ذوقه، وكان أجمل بيت في الحارة بل في المدينة، وظلّ حتّى ما قبل قصف التحالف للرقّة محتفظاً بعزّه القديم. ومع أنني الحفيدة الوحيدة لجدّتي، صارت تلك المنطقة في الطابق العلويّ محظورة عليّ منذ موت جدّي، إذ أُغلقت الغرف بالمفاتيح، وغُطّي طقم الأرائك (الكوبلان) ذو الكراسي الصغيرة والخفيضة بقماش خام أبيض، وامتلأ الفضاء برائحة النفتالين، وبتّ على قطيعة مع المكان، حتى شككت في أنّ أمي قد تربّت فيه يوماً، وأنّني قضيت طفولتي بين تلك الأسرّة والجوارير، وأنّني أنا التي سأرثه عن الجميع. انقلب ديكور بيت جدتي بعد أن أصيبت بعرق النسا، ثم آلام الركبة، ولم تعد تصعد إلى فوق، فتحوّل الصالون التحتانيّ إلى غرفة نوم، وجلوس، وطعام، وضيوف. وضعت سريراً من تلك التي تنفتح وتغلق، أسندَته إلى الجدار تحت النافذة التي تنفتح على الحارة، ولم تعد تشغّل (الشوفاج) منذ رحيل جدّي، فهو مكلف جداً ويحتاج صيانة. ركّبت صوبة مازوت كبيرة من ماركة (آرام) الشهيرة، وكان لديها موقد للحطب تشعله لتدفّئ هذه المساحة المفتوحة، وركّبت سخّاناً كهربائيّاً للمياه الساخنة، ففقد البيت كثيراً من فخامته الأرستقراطيّة بسبب هذا الترقيع.

تفتح جدتي الشباك ليلاً لاستجداء هواء الصيف الضنين. لا أحد يحرص على إقفال الأبواب أو الشبابيك، فالحارة أمان، والناس تسهر أمام البيوت إلى الصباح. يرشّون الأرض بالماء منذ

العصر، ويحرص كلّ بيت على أن يكون خلف بابه حنفيّة وخرطوم ملفوف حولها، ويضعون فرشاً صغيرة على الرصيف، تُدعى (طرّاحات) لأنّها تُطرح على الأرض، وكراسي القش الواطئة التي بلا مساند، ونجلس لنسمع الأحاديث التي قد نكون نحن أو أي شخص نعرفه أو لا نعرفه محورها. تلك التي كنّا نسمّيها نميمة، وقيلاً وقالاً، وعتاباً، ومواجهة، ويسمونها اليوم حريّة تعبير، وشفافيّة. مرّة اتسعت الجلسة، واضطرّ البعض ليضع كرسيّه على الجادّة، وهكذا جاءت سيّارة فقد سائقها السيطرة، ودحرت الحاج (محمّد نور) الجالس على كرسيّ صغير في الشارع، وكسرت رجله، وللأسف كان كسر الموت، إذ فارق الحياة بعدها بأشهر.

يمكن أن تميّز جدّتي العابرين تحت شبّاكها من نحنحاتهم، أو سعالهم، أو بصقهم. بصقة أبو المعتزّ قصيرة وعنيفة، يستجمع بلغمه مرّة واحدة، ويقذف: إخ، تفو. وبصقة أبو سعيد المصاب بسلّ قديم، تقطّع القلب: يسعل، ويسعل، ويقول آخ من الألم، ثم يرمي ما يجمعه بوهن، ويجلس على الرصيف ليستريح. وبصقة أبو الودود المدخّن الشره غنيّة، يجمع بلغمه أكثر من مرّة: إخ، إخ، إخ، ثمّ تفوووو طويلة، لكنها مريحة. في الليل نميّز الصوت الرخيم لساري الذي يجهد في تطعيم حديثه مع محاوره بمفردات مقعّرة، وعبارات مأثورة وأشعار، ويجد دائماً مناسبة ليحكي عن كتاب قرأه. وصوت (أبو معن) عريض منسجم مع شخصيّته

المدّعية للحكمة، وصوت الشحّاطة البلاستيكيّة للسيّدة خديجة معروف، فهي تسحب في خطوتها كلّ ما تصادفه على أرض الشارع من حصى وغبار وورق شجر، منذ السادسة صباحاً، حين تأتي بالخبز واللبن ثم تعود لشراء الخضار. وعند الفجر يأتي الحاج شريف من حارة بعيدة ليصلي في الجامع الكبير في آخر حارتنا، وفي أثناء مروره ينادي الناس بأسمائهم، ليوقظهم للصلاة. طلبوا إليه ألاّ يفعل، لكنّه تجاهلهم، وظلّ ينادي كلّ فجر، فضربوه، ولم يعد يأتي. في هدأة الليل يتعالى صوت السكرانين خارجين من حانة أبو إبراهيم، يبكون، أو يسبّون أو يغنّون، أو يلقون خطابات سياسية، كما يمكن أن نميّز أصوات العشّاق الذين وقعوا في هوى بنات الحارة، فيأتون ويذهبون مراراً من تحت الشبابيك، ومن أمام الأبواب. منهم المتحذلقون في كامل أناقتهم، ومنهم البسطاء الذين تفوح منهم روائح العطور الرخيصة، وقد نجد أصحاب سيارات البيك آب الزراعيّة، يشفّطون تحت شرفة المحبوبة، حتّى يخرج أحد من ذويها، يهدّد بالقتل، أو يدلق على العاشق سطل ماء.

تنام جدّتي ونحن نركض أمام بيتها، أو نجلس لنحكي أسفل شبّاكها المفتوح، إذ يكون فراشها تحته مباشرة، وتكون علب الدواء على الحافّة، ومرآتها، وملقط الحواجب وكأس الماء، وعلبة سجائر الـ (الكنت)... بحيث يمكن لأيّ عابر أن يمدّ يده ويأخذها، لكن لا أحد يفعل. أصغي إلى حديث الأولاد. أكبرهم

في الخامسة عشرة، يتحدّثون عن استقطاب حمَام الجيران، وتبادل الكرات الزجاجيّة الصغيرة الملوّنة، التي نسمّيها (الكلل)، وأنواع السيّارات في الخليج، وفرق كرة القدم العالميّة، وعن رحلة أحدهم إلى دمشق أو حلب، ولم يكن أحد منهم يتحدّث عن الفتيات، لكنّ أكثر الأحاديث تكتنفها حوادث مضحكة. لم نكن نتوقّف عن الضحك، تقول جارتنا العمّة سهام بأسى: الضحك إمّا هبال وإمّا راحة بال! تردّ أختها حسناء: دعيهم يضحكون، ما زالوا صغاراً على الهمّ! ونحن لا ندري أيّ همّ يعتري حسناء، غير أنّها قاربت الأربعين ولم تتزوّج بعد!

في تلك الليلة، هدأت الحارة فجأة، وفي وقت أبكر من المعتاد، وخلدت جدّتي إلى النوم باكراً، ونادتني من وراء الشبّاك لأغلق عليها باب البيت. كانت حاسرة الرأس، بشعرها الذي مازال كثيفاً، ويصل كتفيها، فتربطه بمطّاطة سوداء غالباً، وقد صبغته منذ سنوات باللون الأشقر. ارتدت ثوب نومها من قطن الفانيلا، أبيض بنجوم زرقاء، وبكمّين طويلين، وله قصّة دائريّة عند الصدر بثلاثة أزرار زرقاء. عندها من الموديل ذاته مجموعة تختلف بالنقشة أو اللون، قد تكون نقطاً بدلاً من النجوم أو أزهاراً. حافظت على قوامها من السمنة، لا تأكل كثيراً لتعوّض بذلك عن قلّة حركتها التي تعوقها آلام المفاصل، والركبة اليمنى بخاصّة، كما أنّها تعاني من قرحة مزمنة في المعدة، ورغم سنّها الكبيرة ما زالت قامتها منتصبة، وثدياها عارمين. ولها ساقان بيضاوان، مسكوبتان بشكل ممتاز، لم

تنل منهما الشيخوخة، مثل ما نالت من ساعديها، وزنديها، ورقبتها. المشكلة كلّها في وجهها، أقصد في طقم أسنانها، الذي تشكو منه كثيراً. لقد كان سيئ الصنع، وثمّة خلل في قياسه بالنسبة لفكّها، فصّله لها نبيه طبيب الأسنان في الحارة. لا أحد سواي يراها حينما تضعه ليلاً في كأس ماء على الكومودينا بجوار سريرها، فأظلّ أفكّر كيف سنشرب مرّة أخرى في هذه الكأس، حتّى لو غسلناها وعقّمناها! وماذا لو أخطأ أحد وشرب الماء ذاته بعد أن تخرج منه طقم أسنانها! وهكذا، من يوم واجهت هذا الخاطر، امتنعت عن شرب الماء في كؤوس جدّتي، وإن عطشت، أرشفه بيدي من الحنفيّة رشفاً.

ذلك اليوم كان من أيّام عبّود السمجة المجنونة، شجار مع الذباب، وصراخ، وشتائم، وتدافع بالأيدي، وما عليّ سوى أن أوافقه على ما يقترفه، وأضحك. كنت أحبّه من كلّ قلبي، والحبّ كثيراً ما يجعلنا حمقى أو سخفاء، وصارت، منذ ذلك الوقت، مواقفي مائعة مع من أحبّ: أنتقدهم في داخلي، ولا أعلن عن سخطي كيلا أغضبهم، فأقول: مادام الأمر لا يضرني، لماذا أنتقدهم، فأخسرهم! لكنّ ذلك أضرّ بي بشكل كبير، لقد خسرت المعايير، ولم أعد أعرف الفرق بين ما أحبّ وما لا أحبّ، مادمت أستطيع تقبّل كلّ شيء.

طلب عبّود إليّ أن أحضر جورب نايلونٍ من جوارب أمي الطويلة الشفافة اللحميّة:

- فردة جورب جديدة، غير ملبوسة.
- فردة واحدة!

ركضت إلى البيت، وأحضرتها، لبس الفردة في رأسه، فانقلبت ملامحه إلى ملامح مسخ مخيف! انضغط أنفه، وانزلقت عيناه إلى الأسفل، واعوجّ فمه... مفزع ومضحك في آن معاً، لكن يصعب النظر في وجهه، مثل أولئك المتسوّلين الذين يلصقون وجوههم بزجاج نوافذ المقاهي والسيّارات المتوقّفة على إشارات المرور. تسلّق إلى نافذة جدّتي، ومدّ جذعه نحو الداخل، وأطلّ برأسه، وهو يزأر مثل وحش، وقد تدلّت ساقاه نحو الشارع. ضحكت من خلفه، بصوت يسمعه هو فقط، ثمّ تراجعت. لم يعجبني ذلك، خفت كثيراً، واستسخفت نفسي، فكيف أسمح له أن يفعل ذلك بجدّتي؟ في الحقيقة لو لم تكن جدتي لكان الأمر مضحكاً جداً! في آخر المشهد جاء صوت والده من أوّل الشارع، وناداه بعصبيّة، فقفز إلى الرصيف، ورمى سريعاً فردة الجورب، وركض باتجاهه.

صحوت متأخرة صباح اليوم التالي، في التاسعة تقريباً، لم أجد أمّي. بحثت عنها في البيت ولم أجدها، فتحت الباب، فكانت سيّارة إسعاف عند الرصيف المقابل، وقد تجمّع حولها أناس كثيرون. لقد ماتت جدّتي، أعادوها الآن من المستشفى، لكنّها كانت قد فارقت الحياة منذ الليل. وقفت على باب بيتنا بلا حيلة، قواي خائرة، ويسكنّني الفزع. فتّشت بين الرؤوس عن عبّود أو عن أبيه أو جدّته... لا أحد.

لقد قتلنا جدّتي. أنا وعبّود قتلنا جدّتي. قال الطبيب إنها أصيبت بسكتة قلبيّة، وقلت لنفسي: بسبب الخوف لا شكّ، نحن مجرمان. أنا المجرمة، قتلت جدّتي التي ربّتني، إنّها لحمي ودمي! كانت تناديني بحبيبتي، وروحي، ونظر عيني! وتسببت لأمي بحزن كبير كبير، آذاها إلى الأبد، ولم أسامح نفسي عليه يوماً، ولم يقلّ أسفي مع الزمن، وكنت خلال السنوات كلّها التي عشناها بعد جدّتي، كلّما وجدت أمّي واجمة، تذكّرت جريمتي وانطويت. حين صارت حياتي مستحيلة مع مثل ذلك الأسف، فكّرت مليّاً في حلول تمكّنني من العيش مهادنة ذاتي، فاكتشفت التجاهل! ساعدني كثيراً. لم أحدّث أحداً بالأمر، ولم أحدّث نفسي بالأمر أيضاً، ولم نفتح أنا وعبّود سيرة ما حدث في تلك الليلة مطلقاً، ونسيت، فالأخطاء التي لا نحدّث بها أنفسنا كأنّها لم ترتكب! وبدلاً من أن يقرّبنا ذلك السرّ الخطير أنا وعبّود، صرنا نتباعد. لقد جعلني الخوف أبدأ بتحاشيه، فوجوده الآن يهددني، والخوف يبتلع المشاعر الأخرى. الخوف أقوى من الحب! وكان أن انتهت الإجازة الصيفيّة، وبدأت المدرسة، وعدنا لنحتجز داخل أسوار البيوت، ونغرق في الواجبات، وأمّي تغرق في حزن غريب! لا تبكي، ولا تحكي، لكنّها تلتصق بي أكثر فأكثر، وتزيد في رعايتي مثلما لم تفعل من قبل، وكأنّها بدأت تخاف من فقد جديد، أو أنّها حقّاً ترى فيّ أمّها، كما صرّحت في إحدى المرّات قائلة: أنت أمّي. توصلني إلى مدرستي صباحاً، وأعود معها عند

الظهر، وأهمك بدروسي، وليس في رأسي آيّة أسئلة بخصـــوص عبّود الذي حاول كثيراً أن يدعوني للخروج إلى الحـــارة، أو أن يأتي ليجلس معنا في البيت كالسابق، لكنّني كنت أختبئ منه في غرفتي وأتعلّل بأعبائي المدرسيّة، مثل قنفذ انسلّ إلى قبّعته وأشهر أشواكه. بعدها انتقل عبّود إلى المدرسة الثانويّة خـــارج الحـــيّ، وكان أبوه يوصله بسيّارته البيجو البيضاء، وبعد أشهر انفـــضّ جمع جيلنا، إذ كبرنا عاماً، وفارت أجساد معظمنا، وصرنا شباباً وصبايا، بعد أن كنّا قبل قليل أطفالاً!

سجلّ عائليّ

بدأ اليوم عاديّاً في كولونيا، مثل بداية أيّ يوم من أيّام الربيع في الشرق الأوسط، مع فارق مناخيّ، فنحن الآن في شهر تمّوز. شمس مشرقة بعد فجر ماطر ما تزال رطوبته تتغلغل في الهواء، ورائحة شجر مخضرّ نضر تشجّع على نهوض سريع لاستقبال فنجان القهوة الأوّل على الـ (تيرّاس) الخشبيّ الصغير، الذي يعلو بأربع درجات حديقة مهذّبة، مزروعة بورود الجوري الحمراء والصفراء، والكاردينيا، ودالية عنب، وفي أحواض عديدة زرعت شتلات الفريز والهليون والنعنع.

لم أشأ أن أوقظ (كارمن) مع أنّها أوصتني أن أفعل قبل خلودها إلى النوم. أشفقت عليها من مشاوير أمس! أقلّتني من مطار فرانكفورت. قادت سيّارتها التويوتا الجديدة ساعتين ذهاباً، وساعتين إياباً، وكاحلها أصلاً يؤلمها بسبب مرض آخيل. كما أنني أفضّل ألاّ تصحبني في جولتي اليوم في المدينة، إذ أريد أن أبدأ وحدي. سأحفظ الطريق منذ اليوم الأوّل، وسأختصر الوقت، وأعوّض الزمن الذي تباطأ هناك في سورية، وعاد إلى الوراء بشكل مخيف في الرقّة تحديداً، بسبب حكم (داعش) فيها. أمس حاولت أن أحفظ الخريطة، وضعت لنفسي نقاط علاّم: محطّة الترام تبعد عن البيت شارعين، سيوصلني الترام إلى وسط كولونيا

في أقل من نصف ساعة. سأتعلّم المشي من جديد، وسأتعلّم الكلام، وسأسأل، وأحفظ الطرقات والأماكن والتاريخ، فالوقت الذي سأمضيه هنا سيكون طويلاً بلا شكّ.

نزلت في شارع شيلدر غاس، شارع التسوّق الأشهر في وسط المدينة، حيث أزقّة قديمة مرصوفة بالحجر الرماديّ، ومداخل أسواق لها شكل القناطر. المدن القديمة يشبه بعضها بعضاً، وهذا المكان يشبه حلب، بمقاهيها الأنيقة التي تحتلّ أرصفة العزيزيّة، وبالناس الذين يجلسون إلى طاولات صغيرة يقرأون صحفهم، ويشربون قهوتهم. الغريب يفرح بالمؤتلف، إذ يمنحه الأمان والثقة، مثل طفل يرى خالته، فيجد فيها وجه أمّه الغائب، ويولّد المختلف حسرات كثيرة، فإلى متى سأظلّ أعقد المقارنات؟ المقارنات متعبة، تذكّر الغريب دائماً بغربته. أعتقد أنّنا سنبدأ بالاندماج حين نتوقّف عن عقد المقارنات بين الوطن والملجأ. أتبع اللوحات التي تشير نحو الشرق باتجاه شارع الكاتدرائيّة. أمشي بين البيوت الأنيقة، والعمارات الصغيرة المحدّثة بطريقة لا تنبو عن الروح القوطيّة التي تلفّ الفضاء، والقائمة منذ أواخر القرن الثاني عشر، حيث الأقواس البارزة، والعقود المروحيّة، والتي يذهب بعضهم إلى أنّها جاءت إلى أوربة بتأثير العمارة العربيّة العبّاسيّة، ومثالها الأكثر وضوحاً هو باب بغداد في الرقّة! تنفصل البيوت والعمائر بعضها عن بعضها الآخر، على طول الطريق، بأحواض من ورود النرجس والسوسن الأبيض

والأصفر، وورود الأدونيس الحمراء، وقد تكون تلك الـــورود المتطاولة هي الورود الهولنديّة التي يحكون عن جمالها: زنبق الكالا الأبيض كالبجع، والأصفر كالذهب، والتوليب الملوّن وزهـــرة المصابيح... ليس ذلك بعيداً، فبين هذا المكان وأمستردام شمـــالاً أقلّ من ثلاث ساعات بالقطار.

سيّارات قليلة تجوب الشارع الرئيسيّ، فيما يستقلّ البعض درّاجات هوائيّة بسلاّت أماميّة يضعون فيها حقائب ومظلاّت، وأنا أفكّر: متى سأكفّ عن الحملقة المتفحّصة بـــلا خـــوف أو خجل، والتي لا تقيم وزناً لخصوصيّة الآخرين. لعلّهـــا طبـــاع الغريب، وليست طباعي الشخصيّة، إذ أريد أن أكتشف بسرعة ماذا يرتدون، وماذا يحملون، وماذا يفعلـــون، وكيـــف هـــي طقوسهم اليوميّة، وهل توافق ما قرأت عنهم؟ هـــل ســـأندمج، وأبدأ حياتي من جديد وأنا قريبة من الأربعين؟! أم سأبقى حبيسة فكرة الإقامة المؤقّتة، والعودة إلى الوطن مهما طال الوقت. بـــدأ البرجان العظيمان لـــ (كولن دوم) بالاقتراب منّي، وصار الراين أحد أطول أنهار أوربة وأهمّها إلى يميني، يجري بصمت، وكأنّه لم يصطخب يوماً بصيحات الرومان والقبائل الجرمانيّة التي تقاتلت أربعمئة سنة على ضفّتيه. كانت بهجتي به أقلّ من المتوقّع، فأنـــا أيضاً جئت من الفرات أقدس أنهار العالم، وأطول من الراين بمـــا يزيد على المرّتين، كان الفرات أمام بيتي! السفر ليس امتيـــازاً في عالم اللجوء ولا متعة، بل وصمة، وألمانيا تغصّ بالسوريين الذين

وصلوا بطرق متباينة من الــ (فرست كلاس)، مروراً بــأطواف البحر القاتلة، إلى الزحف بين الغابات والأحــراش، وفي كــلّ خطوة منها تهديد، وترقّب، وخوف، ومشي طويل في العراء، بلا أيّة ضمانات، حيث يتحوّل العالم كلّه إلى قراصــنة، وقــاطعي طريق، وتجّار بشر، وكلّ بطريقته، منها ما يأخذ عنوان الشرعيّة، ومنها ما يكون سوقاً سوداء. حين نزلت من الطائرة متّجهة إلى بوّابة المطار حاولت أن أستجمع تركيزي، لأعرف أين أتّجــه. كانت شرطيّة حمراء ضخمة، بلباس رسميّ كحليّ، بنصف كم، يبدي زنديها الغليظين، وعلى خصرها مسدّس في زنّار وجراب أبيض، تنادي: مام، مام... لم أردّ وتابعت ســيري. ظننــت أنّ النداء موجّه لغيري، فلم أعتد على أن ينــاديني أحــد مــدام، ومازالت اللغة الأجنبيّة خارج وعيي... فهجمت عليّ وأمسكت بمعصمي، فمتّ من الخوف! صغرت فجأة أمام جثّتها الضخمة، وتوقّف قلبــي، وأردت شيئاً واحداً: أن أقفل راجعة! تماسكت حين قرّعتني على عدم توقّفي، فقلت إنني لم أسمعها. سألتني عن سبب مجيئي، وتفحّصت أوراقي، فقلت لها إنّني طالبة. جســدي الذي تضاءل من الخوف، ووجهي الذي اصفرّ أوحيا لا شــكّ بأنني طالبة في الإعداديّة، وليس في الدراسات العليا فحســب. علّمني ما مررت به أنّ عليّ العيش في اللحظة، والاستفادة منها إلى أقصى حدّ، فإذا كانت اللحظة القادمة مجهولة حتّى بالنســبة للآمنين في بلادهم، فلماذا أعذّب نفسي بالتفكير بالقــادم، أو

بالماضي! سأترفّق بذاتي التي عانت كثيراً، والتي تستحقّ يوماً واحداً أفضل قياساً بأيّامي السابقة، يوماً واحداً أفقد فيه الذاكرة، والتاريخ، وأقول إنّني امرأة أخرى، لا أعرفها، وستعرّفني إلى نفسها من جديد. امرأة غير مكبّلة بالحرب والفقد، وليس لديها أحد تقلق عليه. أنا بالفعل ليس لي أحد أقلق عليه، وبالمقابل ليس هناك من أحد يقلق عليّ، وهذه نعمة كبيرة مقارنة بالذين تركوا عائلاتهم، أو وصلوا بطريقة غير شرعيّة. أمّا عن المستقبل فأعتقد أنّه رهن قدرتي على التأقلم، أي على التخلّي عن الحنين. ستكون الخطوة الحاسمة هي تعلّم اللغة، وبعدها لن يخونني ذكائي ولا مهاراتي السابقة. ربّما لو لم أرسم خريطة حياتي بقلم العاطفة لكنت الآن في موقع آخر، باحثة مرموقة في التاريخ مثلاً! لكنني فضّلت على التزامي بإكمال الدراسات العليا، أن أبقى إلى جانب أمّي. لست نادمة، لقد بقينا معاً حتّى اللحظة الأخيرة، وكانت كلّ يوم تقول لي: الله يرضى عليكِ! رضاها سييسّر أمري، وأنا فخورة جدّاً بأنني لم أتركها، ومقتنعة بأنّني بذلك وصلت سالمة إلى هنا. بهذا الدعم النفسيّ الذي أقدّمه لذاتي أحارب اليأس وأشحذ همّتي، وأصير أخفّ مع هذه الأفكار، ومع المقارنة بين ما كان وما وجب، فأتقافز في طريقي إلى الكاتدرائيّة الشهيرة في كولونيا، والمعروفة بـ (كولن دوم)، وهي القبّة المقدّسة لـ (سانت بيير وماريّا)، والتي قرأت عنها كثيراً في أثناء استقصائي عن وجهتي قبل مغادرة البلاد.

هواء بارد يلفح الوجوه، وقد صار حلـــواً مـــع ارتفـــاع الشمس، وقاطرات نهريّة كبيرة في عرض الراين تشحن البضائع خلف مبان من الحجر الورديّ، وإلى جوارها أنفـــاق صـــغيرة تعلوها قباب أنيقة، تسمح بمرور عدد أقلّ فأقلّ من الســـيّارات. نُصحت بزيارة متحف الشوكولا، وجسر العشّاق الذين يعلّقون أقفال الحديد من ضمن خزعبلاتهم، ليضمنوا حبّاً أبـــديّاً، فلـــم أتشجّع. لقد كانت قصص الحبّ دائماً وراء ظهري، ومع ذلك فلا بدّ من الاعتراف بأنّ حكاية حبّ شائكة هي التي قادتني إلى هنا، ومنحتني هذه المساحة الآمنة التي لم تكن من حقّي، والـــتي كانت تخصّ غيري. سأكفّ الآن عن التذكّر، وسأكون حاسمـــة في مسألة الحنين، وهادئة في إدارة الوقت والرغبات.

* * *

لكي لا تبتلعك المدن الغربية عليك أن تمسك بها من روحها، وروح كولِونيا هي كاتدرائيّتها! أصل إلى الشارع التجاريّ الذي يضمّ كلّ ما يحتاجه السيّاح: التذكارات، الكاميرات، الموبايلات، العملات، الحقائب، الفنادق الرخيصة وعلى شرفاتها أعـــلام دول كثيرة، مطاعم الهوت دوغ والشاورما التي تراعي رغبات الزائرين حسب ثقافتهم الذوقيّة، ومحلّات الفاست فود... وإلى يساري تقع ساحة الكاتدرائيّة، يتوسّطها أسد يقذف من فمه ماء. ترتفع عشر درجات واسعة تحيط بالبوّابات، ثمّ بسطة عريضة، وتعاود درجات

أخرى اصطفافها إلى البوّابة الرئيسة، ويجلس عليها خلق كثيرون، يرتاحون ويتأمّلون. ولا بدّ لكلّ زائر من أن يقدم على هذه الجلسة ليرتّب أفكاره التي بعثرها الجمال المهيب للمكان. الساحة مرصوفة بحجارة ضخمة من المرمر الرماديّ المناسب للون حجر بناء الكاتدرائيّة، وفوق هامتك التي ستبدو ضئيلة مهما كانت ضخمة ستجد البرجين، كأنهما سيسقطان الآن على رأسك ويسحقانه، لذا ستشعر بالدوار. ستسمع أصوات تهليلات وترانيم تنمو كلّما اقتربت نحو البوّابة، وفي الأعلى ما تزال السقالات الحديديّة الخاصّة بأعمال الترميم قائمة، ولم تتوقّف منذ العام 1880، التاريخ الذي نجزت فيه الكاتدرائيّة أخيراً، والتي وضِع حجر أساسها منتصف القرن الثالث عشر. تبدو على الأدراج العاليّة أرتال المجموعات السياحيّة تصعد إلى فوق، حيث سيرى الناظر مشهداً جميلاً جدّاً: الراين مثل شريان سليم في جسد آمن، والمدينة التي تحوطه، والغابات الخضراء تتخلّلها بأناقة، مؤكّدة علاقة وئام أبديّة بين الطبيعة والبشر. قبل أن يدخل الزائر الكاتدرائيّة سيقرّر المكوث قليلاً في الساحة ليتفحّص أبنية أنيقة لمتاجر عالميّة: شوبارد، وهرمز، ولاكوست، وكذلك لفنادق مترفة، تأخذ أبّهتها من قدرها المحظوظ في أن تكون مشرفة على أعظم الكاتدرائيّات في العالم: هلتون، وإرنست، ودوم هوتيل. أغبط نزلاءها، وأتساءل إذا ما كانوا يدركون أهميّة الفرصة التي حظوا بها!

واجهني متجر الكولونيا الشهير، إذ منحت المدينة اسمها لذلك الماء المعطّر فانتشر في أرجاء المعمورة وصار على كلّ لسان وفي كلّ بيت. أردت أن ألتقط صورة لنافورة الكولونيا، ولمجسّم القارورة التي تمثّل الشكل القديم والمألوف لهذا المُنتج، والتي كان جدّي الآغا يقتنيها. دخلت وجرّبتها، فقادتني رائحتها الواخزة إلى حضن جدّي وجدّتي التي كانت تشاركه بها أحياناً. ثمّ جرّبت الأنواع الجديدة، المعالجة بروائح التوت أو البرتقال أو البتشول... مع التغليفات الأنيقة بالورق الأزرق، والذي طبع عليه الرقم 4711، رقم المنزل الذي كانت فيه الشركة الصانعة، والعائدة لعائلة فيرينا الإيطاليّة، التي عملت في التجارة في كولونيا، وقد أهدى العطّار يوها ماريا فيرينا، ذلك الماء المعطّر للمدينة التي استقبلت نشاطه التجاريّ. قررت أن أشتري تذكارات، ثمّ فطنت إلى أنّني لست سائحة، وأنّ التذكارات للعائدين. زجرتني مديرة المتجر الصغير الذي لا يتجاوز طوله الأمتار الخمسة، وعرضه ليس أكثر من مترين، وقالت ممنوع التصوير! فامتثلت مستغربة منعي من قبل هذه المرأة الخمسينيّة القصيرة والسمينة، وبدا لي أنّها مجرّد رغبة سلطويّة، وحِدّة، اتسمت بها الشخصيّة الألمانيّة التي قرأت عنها، فالصور للموقع ذاته تملأ الإنترنت. عموماً، لم أقابل وجهاً ودوداً إلى الآن عدا كارمن، ممّا أكّد لي الفكرة النمطيّة عن الألمان، مع أنّ دراستي مناهج التاريخ الحديثة، تقول بالتخلّي عن التنميط الذي هو بدعة

استعماريّة! هنا المتحف الروماني الذي يحكي تاريخ الحضارة الرومانيّة في بلاد الراين، وقد يصبح جزءاً أساسيّاً من حياتي القادمة، وحوله مكتبات تبيع كتباً عن تاريخ الكاتدرائيّة وتاريخ البلاد، وصوراً من الأيقونات الموجودة في الداخل، ومؤشّرات كتب بصور البرجين، ومغانط للثلاجة عليها صور العذراء ملكة، والمسيح رضيعاً، وجسر كولونيا، والكثير من الأقراص المدمجة لترانيم مسيحية من العصور الوسطى لفرق إنشاد أوربيّة شهيرة، ولملحنين عالميين.

صار وقت العبور إلى الداخل. أضع يدي على البوّابة الضخمة، المقطّعة بمربعات من النحاس والبرونز برؤوس أسود مزمجرة. يستقبلني، فوق القوس المجنح، بمهابة تدعو للركوع، تمثالُ السيّدة العذراء ملكة، وقد حملت يسوع مستبشراً، وحولها الرسل، ستّة عن يمينها، وستّة عن يسارها. كنائس أوربا باذخة ومهيبة بالنسبة لكنائس الشرق التي تحمل حزنها الأبديّ، وتناوله للذين يلوذون بها مع الخبز والخمر!

ألج القاعة الكبرى، قاعة عظيمة ممتدّة، يتفرّع ممرّها الطويل الواسع إلى إيوانات عن اليمين واليسار، وفي كلّ منها مذبح، وتماثيل للسيّدة مريم تحمل ولدها رجلاً أنزل عن الصليب، أو طفلاً في المهد. أقف أمام مذبحين، أشعل شموعاً. شموعهم مدوّرة صغيرة، ليست كشموعنا البيضاء الطويلة. تبدو الشموع أيضاً على قدر المكابدات. أطلب الغفران والرحمة لوالديّ وجدّتي،

والسداد لنفسي، والنور في دربي المعتمة، وتنزل دمعتان قبل أن أمشي إلى النهاية لأصل المذبح الكبير. أعرضت عن المذابح والأيقونات القوطيّة على جانبي الممرّ، لأصل إلى ذلك المذبح الذي في صدر القاعة، لكنّني تركته وعدت إلى المذابح الصغيرة، فالأشياء الكبيرة التي تمثّل المنتهى ليست الأجمل بالضرورة، فقد كانت تماثيل العذراء الأصغر أكثر حناناً! أقف إلى بيانو عتيق ونوطه موسيقيّة لـ (باخ) وألتقط صورة سيلفي، ثمّ صورة أخرى أمام مجسّم لسفينة ضخمة، دعيت سفينة نوح، وهي إعلان لمشروع ضخم لدعم اللاجئين الذي يقطعون البحر إلى أوربا بهجرات غير شرعية فيغرقون. يحطّ بي المطاف أمام الصندوق الذهبيّ الذي منح هذه الكاتدرائيّة وجودها ثمّ أهميّتها المستمرّة، إذ يضمّ رفات أجساد ثلاثة، قطعت رحلة طويلة بين الحقيقة والخيال: بالتازار، ومليكور، وكاسبار. يقول الإنجيل إنّهم جاؤوا من الشرق، واحد من الهند، والثاني من فارس، والثالث كلدانيّ من العراق. انطلقوا من مواطنهم بحثاً عن طفل سيولد ليغير العالم. تقابلوا في القدس، وانطلقوا معاً إلى بيت لحم، حيث شهدوا ولادة يسوع المسيح. عادوا بعدها إلى الهند، وبنوا كنيستهم، ودفنوا فيها بعد أن وافاهم الموت في الآن ذاته!

بعد مئتي سنة ستزور الهندَ هيلانة والدة الملك قسطنطين، والتي سترسّم فيما بعد قدّيسة، وستحمل معها الجثث في تابوت فاخر إلى درّة ملكها في القسطنطينيّة، حيث كنيسة القدّيسة

صوفيا. بعدها بأربعة قرون ينقلها الإمبراطور موريسيوس إلى ميلانو، وفي القرن الثاني عشر تثور ميلانو على الإمبراطور الروماني فريدرك بربروسا، فيستعين برئيس أساقفة كولونيا للسيطرة على المدينة، فيسعفه، وينال مكافأته، وهي الرفات الذي سمّي بـ (الذخائر)، وعلى شرف هذه الذخائر بنيت الكاتدرائيّة التي أقف الآن تحت قبّتها.

كنت أذهب مع عبّود وأمّه إلى الكنيسة الصغيرة في الرقة، كنيسة سيّدة البشارة للروم الكاثوليك، في حيّ الثكنة، الذي يبعد عشر دقائق مشياً على الأقدام عن حارتنا باتجاه الغرب، وتصلّي فيها الطوائف كلّها، فالمدينة صغيرة، والأشياء تسير فيها بعفويّة بعيداً عن تعقيدات المذاهب والأديان للمسيحيّين والمسلمين على حدّ سواء. الكنيسة متواضعة ووديعة، ومُعرضة عن الأبّهة مثل كلّ شيء في الرقّة وأهلها، ممّا لا يليق بتاريخ المسيحيّة المتجذّر هنا، والعائد إلى القرن الأوّل الميلاديّ، بكاتدرائيّاتها البيزنطيّة والأديرة العربيّة. أحضر الصلوات لا سيّما أنني درست في مدرسة الحريّة (نوباريان)، والمعروفة باسم مدرسة الأرمن الأرثوذوكس الخاصّة، التي تأسست في الرقّة في العام 1924، وكنت أؤدّي صلاة الصباح باللغة الأرمنيّة. أحبّ الطقوس، وتسحرني روائح البخور، والأردية الجميلة للكهنة، والنساء والرجال في أفضل ما عندهم من ثياب، وصوت الأرغن، والتراتيم. أحبّ فكرة قربي من الله والأنبياء والقدّيسين الذين

لا أستطيع أن أراهم في الجامع، حيث يمنع دخول البنات. أحبّ المقاعد الخشبيّة الضيّقة ذات المساند المستقيمة. ألتصق بعبّود إلى نهاية القدّاس، ويقوم الجميع، وأنا جالسة أنتظر، وأوجّه سؤالي إليهم، إلى أمي التي تذهب أحياناً لتأدية واجب ما، إكليل أو جنّاز أو تهنئة بالعيد، أو إلى عبّود أو أمّه وذلك حينما أرافقهما غالباً: متى سيأتي المسيح، لماذا لم يخرج من وراء المذبح؟ وأين هم الناس الذين حضروا ولادته؟ وأين تلامذته؟ وأين القدّيسون الذين تضيء وجوههم في الأيقونات؟...

يردّون عليّ أو لا يردّون! أمي تزجرني، وعبّود يبتسم ويقول لا أعرف، وأمّه تقول لي: سيأتي يسوع لكن ليس اليوم. أحاول أن أذهب إلى الغرف الخلفيّة، وراء المسرح الذي هو المذبح، إذ أتوقّع أنني سأجده هناك، في إحدى الغرف، لكنّ الشمّاس يمنعني، أو يقول لي أحد ما إنّ علينا أن نمضي لأننا تأخرنا! دائماً نتأخّر وعلينا أن نذهب، حتى لو لم يكن وراءنا شيء لنفعله، هكذا يشعرني كلّ من حولي حينما أقترب من تحقيق رغبتي. تقول آنا: سيخرج في يوم ما، علينا أن نصبر وننتظر. أذهب معهما في موسم الميلاد لأرى الشجرة والمغارة. شجرة جميلة وكبيرة إلى يمين المذبح، مزيّنة بكرات ملوّنة، كل موسم بلون، أحمر وذهبيّ، أو أزرق وفضيّ، وبشرائط لامعة ذهبيّة وفضيّة، وبحبال من الأضواء الصغيرة الملوّنة. يصنعون المغارة من أطباق البيض الكرتونيّة، وفيها مذود الطفل الوليد

يستلقي بسلام بوجه مستبشر وشعر ذهبيّ، وأمّه إلى جواره بثوبها الأزرق ووجهها المحيّر بين القلق والسعادة، وحولهما شياه صغيرة وديعة، مازلت أتمنّى أن ألمسها، ولم يسمح لي أن أفعل في أيّ يوم، أو أن أصير كائناً كرتونيّاً يصغر فجأة لأنضمّ إليها. داخل المغارة تتوزّع مجسّمات من الجبصين لراعٍ يلبس كوفيّة ويحمل عصا، وثلاثة رجال يركعون أمام المذود، يمثّلون المجوس الثلاثة الذين تنبّؤوا بهذه الولادة، يضعون هداياهم بين يدي الوليد المقدّس: الذهب الذي يرمز إلى الملكيّة، واللبان، بخور الكهنوت الذي يرمز إلى القدسيّة، والمُرّ أحد العطور النفيسة الذي يرمز إلى الألم.

لم يكن ليخطر لي آنذاك أنّني سأقف يوماً أمام رفاتهم كما أفعل الآن في كولونيا، حيث تضرب بدني قشعريرة الذكريات في كنيسة قوطيّة مسكونة بروح الشرق، بروح بيت لحم المقدّسة، المدينة التي جاءت منها جدّتي.

* * *

كانت جدّتي راقصة في فرقة (بديعة مصابني) الاستعراضيّة الشهيرة. ما عرفناه عنها كان نزراً يسيراً، وكان معظمه تكهّنات من قبلنا أكثر منه روايات على لسانها. إنّها تعود دائماً إلى تاريخ قديم تأسرنا بحكاياته، فننسى معه الأحداث اللاحقة التي تخصّ طفولتها، ووالديها وعائلتها الصغيرة. توقفنا بقوّة عجيبة عند

تلك الحكايات، فنرجوها أن تعيدها على مسامعنا وقت الأسمار، فنبحث عن تفصيل جديد أغفلته، وبالفعل، فإنّها في كلّ مـرّة تضيف جديداً: لون ثوب، سـفينة في مرسـى، اسمـاً لقائـد عسكريّ، عشيقة سريّة لأمير، طبقـاً فـاخراً، نـوع قمـاش لأرائك... تقول إنّ نساء عائلتها خرجن مـن وراء مشـربيّات الحريم وطيّات اليشمك في قصر يلدز، وإنّ رجالها الأثرياء هـم الذين موّلوا السلاطين العثمانيين أيّام إفلاسهم، وأقاموا بثرواقم جوامع القسطنطينيّة وأسواقها وقصورها، وسلّحوا جيشها، وبنوا جسر (غَلطة) الذي يربط بين طرفي إسطنبول، والتي كانت تصرّ على تسميتها (تساريغراد) باعتبار أصولها البلغاريّة. حدّثتنا كثيراً عن ذلك الجسر الذي يجمع العالم، حيث تتمشّى أرستقراطيّات أوربة القادمات من الأحياء الجديـدة إلى جانـب الـدراويش والمجذوبين المتجذّرين في معالم المدينة القديمة، وكلّما ذهبنـا في زيارة إلى إسطنبول، كانت تصرّ على المشي عليـه في موقعـه الجديد الموازي للقديم. تفعل ذلك بفخر وريثة شرعيّة، وكـأنّ أجدادها، الذين مضوا من قرنين، قد بنوه بالأمس! أقول لهـا: نانا، إنّه ليس هو الجسر الخشبيّ القديم المقصود، فتردّ غير عابئة: لو لم يكن ذاك لما كان هذا.

نتحلّق حولها في المساءات الشتويّة، إذ تجلس على كرسيّها الكبير من الخيزران، بمسندين، وفرش أزرق، والـذي تسـمّيه (ستراند)، نسبة إلى طراز صنعه. تضع ساقاً فوق ساق، وهـي

ترتدي تنّورة جوخ سوداء أو كحليّة، تصل إلى الركبة، وكولون من الشيفون الأسود، وتويننز من الكشـــمير الأزرق أو البـــيج. شعرها بنيّ داكن يغطّي رقبتها ، وذلك قبل أن تصبغه بالأشقر، وخفّها المنزليّ من الصوف البيج، ودائماً تضع عقد اللؤلؤ حول رقبتها، وأحمر شفاه قاني اللون. تشرب القهوة بالحليب في كأس شفّاف من كؤوسها الكريستاليّة، وتقول:

حين اقترب الأسطول الإنكليزيّ من الـــدردنيل لحمايـــة أقليّات القسطنطينيّة، غضبت روسيا معتبرة ذلك انتهاكاً للهدنة الحديثة مع الإمبراطورية العثمانيّة التي وقعتـــها في العـــام 1878، فاحمرّ نجم الحرب في سماء البوسفور، وعلى الرغم من أنّ السلطان عبد المجيد أعلن أنّ موته أهون من أن تطأ قـــدم روســـيّ أرض أجداده، كانت السفينة البريطانيّة "صاحبة الجلالة أنتيلوب" راسية قبالة قصر يلدز، لتذكّره أنّ النجاة متاحة كلّ لحظـــة. صـــمد السلطان بسبب تراجع إمدادات الروس، لكنّ كبار المموّلين من عائلة (فوغوريدي) ذات الأصول البلغاريّة حملوا ثرواتهم، وركبوا البحر إلى باريس. كان يمكن ألاّ أكون لو أنّ السفينة (كارولين) لم تتوقّف في سالونيك، ليقرّر (كارل) الشاب ذو السبعة عشـــر ربيعاً، والذي كان مضارباً شاطراً في بورصة غلطة أن يلبّي نداء قلبه، ويركب مركباً أخرى باتجاه الجنوب، نحو عكّا، ليلتحـــق بحبيبته (فيرا) في بيت لحم. كانت (فيرا داديـــان) ابنـــة للعائلـــة الأرمنيّة العريقة التي أعطاها السلطان عبد المجيد امتيازات عظيمة.

لقد صنعوا له البارود، وعملوا أمناء لخزانته، وأطبّاء ومصـــورين ومزخرفين، وقد نــزل في قصـــورهم الســـاحلية الفخمـــة في (يشيلكاي)، ويشهد على حظوهم الطست والإبريق الفضـــيان اللذان استخدمهما في غسل يديه في إحدى الزيارات، والمحفوظان في كنيسة (سانت إستيفان) الأرمنية في يشيلكاي. قضت فـــيرا صيفها الفائت في (بيرا) الضاحية الإسطنبوليّة التي يعـــيش فيهـــا الدبلوماسيّون، والتقاها كارل على عشـــاء في بيـــت الســـفير الإنكليزيّ. كانت بيضاء مرصوصة القوام بشعر أسود تعقصـــه بعقدة خفيضة، وتضع فيها دبّوساً على شكل غصـــن زيتـــون مرصّعاً بالزفير الأخضر، ويلفّ جسدها ثوب شـــديد الأناقـــة وغريب عن تلك الأثواب الفيكتوريّة الضخمة، بتوقيع (تشارلز فريدريك وورث) الإنجليزي الذي افتتح متجره الجديد للخياطة الراقية في باريس العام 1858. كان ثوبها مقصوصاً من المخمـــل الأسود، ومقصّباً بمعيّنات ذهبيّة، وأكمامـــه قليلـــة الانتفـــاخ، ومفتوح الصدر، ومنسدلاً، وكان مثار جدل الجميـــع، إذ لأوّل مرة تجرؤ امرأة على الظهور في المجتمع الراقي بأرداف طبيعيّـــة! عرف كارل منذ ذلك اللقاء أنّ تلك الصبيّة التي تمتلـــك طلّـــة بجعات بحيرة (وان) ستكون حبيبته الأبديّة، وظنّ أنّ مســـاءات البوسفور ستمنحه اللقاءات الطويلة التي يأملها، لكنّ فيرا عليها العودة سريعاً مع أخيها القانونيّ الذي أرسله الصدر الأعظم إلى بيت لحم، مع من يرتّبون تقسيم أدوار الكنيسة بين الكاثوليـــك

والأرثوذوكس، بعد المشكلات التي أعقبت سرقة النجمة الفضيّة من كنيسة المهد، النجمة التي كتب عليها: "هنا ولد المسيح من العذراء مريم"، والتي كانت سبباً لحرب القرم الشهيرة. بدا الزواج مستحيلاً بين (فيرا داديان) الأرثوذوكسيّة الواقعة وملّتها تحت حماية الروس، وبين (كارل فوغوريدي) الكاثوليكيّ الموالي للتحالف البريطانيّ الفرنسيّ، لكن لا شيء يقف في وجه الشباب والحب، لاسيّما أنّ الحرب تغيّر المفاهيم، وتجعل كلّ ما سواها هيّناً.

تستبدّ جدّتي حين تجدنا معلّقين بين أهداب حكاياها، أنا وعبّود والعمّة صافية والعمّة مارية... تجعلنا ننتظر بينما تجري مكالمة هاتفيّة، أو تطلب إلى أحدنا صنع فنجان قهوة، أو تذهب إلى المطبخ فتطمئنّ إلى طبختها، لتخفّف النار تحتها، أو لتضيف إليها مكوّناً، فيما نحن ننتظر التتمّة. حتّى أمّي تنصت بإمعان وكأنّها تسمع الحكاية لأوّل مرّة.

حين وصل كارل بيت لحم، وجد فيرا تستعد للمغادرة ثانية. لقد مات أخوها، ولم يبق لها أحد هناك، فاستقرّ معها في المدينة الصغيرة، حيث أسّس عملاً في حفر خشب الزيتون، وصناعة التحف والمنحوتات، وبيعها للسيّاح والحجّاج الذين يتوافدون بأعداد كبيرة إلى الأماكن المقدّسة. لقد استطاع كارل بحاسّته التجاريّة التي طوّرها في أسواق إسطنبول العامرة وبورصتها، أن ينمّي تجارته، ويتّجه لتصدير بضاعته المحفوفة

بالبركة إلى الدول المجاورة مثل مصر، ثمّ وجد سبيلاً لها إلى الأسواق الأميركيّة. بعد وفاته استلم أولاده تجارته، ووسّعوها وصاروا يسمّون أباطرة خشب الزيتون. كان أصغرهم إستيفان والد جدّتي، الذي تزوّج بابنة عمّه لوسي، وعاشا في وئام حتّى جاء الإنكليز، واشتعلت البلاد بنيران الثورة.

هنا تنتهي حكايات جدّتي التي ولدت على مايبدو في أوائل العشرينيّات. ستعرف أمّي فيما بعد من أحد أهل الرقّة الذين حاربوا في جيش الإنقاذ في فلسطين، التاريخ المسكوت عنه لكرمة، عن (إستيفان) أبيها الذي ورث صداقة الإنكليز التاريخيّة عن عائلته، وكان متعهّد الإطعام لمعسكراتهم، وقتل في حادث إطلاق النار من قبل أحد الثوّار الفلسطينيين في سينما أديسون في القدس العام 1936. أمّا لوسي التي كانت مغرمة بضابط إنكليزيّ صديق للعائلة، فقد عادت من عنده في الليلة التي اشتعلت فيها البلدة القديمة بنار الثورة الفلسطينيّة، لتجد بيتها قد احترق مع البيوت المجاورة بالنيران، ومعه ولدها البالغ من العمر ستّ سنوات. سلّمت بنتيها، جدّتي وشقيقتها، إلى (دير رهبان الكريمزان) ثمّ انتحرت. كرمة (جدّتي) المراهقة التي استسلمت لمزاجها المتقلّب، وعزّ عليها أن يحبس جسدها المتأجّج، وطولها الفارع، ولونها الشاحب الأميري خلف أسوار الدير الكلسيّة السميكة، تمكّنت من الهرب. ظهرت بعد ذلك في يافا، على مسرح مقهى البنّور، كإحدى الراقصات الجديدات في فرقة بديعة

مصابني، وبعدها ارتحلت معها حيث كانت ترتحل بين الإسكندريّة والقاهرة وبيروت.

كانت بديعة مصابني، ذات الأصول الشاميّة، قد أضفت على حياة الفنّ في البلاد العربيّة روحاً جديدة. جمعت بين الأدوار الغنائيّة الشرقيّة القديمة وموسيقى التانغو التي جاءت بها من بيونس آيرس، حيث أقامت ردحاً من الزمن مع عائلتها البائسة، بحثاً عن الرزق الذي ضاق على العباد في أرض الشام. كانت تغنّي وترقص وتمثّل في فرق فنيّة مصريّة شهيرة، من مثل فرقة جورج أبيض، وفرقة فؤاد سليم، وكانت علاقتها الأشهر بفرقة نجيب الريحاني الذي صار زوجها، وحين انفصلت عنه أسّست فرقتها الخاصّة التي ذاع صيتها في الشرق، فجابت بحفلاتها حلب ودمشق وحيفا ويافا ونابلس. أمّا عن شقيقة جدّتي التي ظلّت في الدير، فقد عرفنا أنّها صارت مترجمة معروفة، تتقن التركيّة، والإنكليزيّة، والفرنسيّة، والعربيّة، وقد استقرّت في القاهرة حيث تزوّجت بمسلم له جاه كبير في القصور الملكيّة، وأنّ إحدى بناتها تزوّجت بقريب الملك فاروق.

لم تبحث جدّتي عن هذه الأواصر الباذخة لأنّ ثمنها هو استعادة الصفحات التي أرادت إحراقها من دفتر حياتها، ويبهت التاريخ المجيد لها كلما أوغلنا باتجاه الشرق. لقد وافقها ركوب موجة الحرب العالميّة الثانية التي جَرفت مع الدماء، أصولَ البشر ومنابتَهم، ومكّنتهم من أن يعودوا بذوراً يمكنها أن تنمو في تراب

جديد. احتفظت جدّتي من ماضي عائلتها القديم بكلّ ما يُصيّر عالمها مختلفاً عمّا يحيط بها، وكانت طبيعتها الأرستقراطيّة تجعل كلّ ما تفعله نبيلاً، وغيّبت كلّ ما عدا ذلك، حتّى اسمها الحقيقيّ غاب عنّا، ربّما يكون إيفلين أو أوجيني أو ريموندا! لكنّ جدّي سمّاها (كرمة)، لأنّها فارعة مثل دالية، ولا تكفّ عن الجود بما يُذهب عقله، كنبيذ العنب.

جدّي أيضاً لم أكن أعرف له اسماً سوى الآغا، وعرفت متأخرة أنّ اسمه إبراهيم. يمتلك أراضي شاسعة وبساتين على النهر، لا يدانيه في الملك سوى عائلتين أخريين في وادي الفرات. حين يطرح موسم القمح أو القطن جناه، يجمع الآغا ماله في حقيبة سفر. مال كثير، يضيفه إلى رأسماله، ويجدّد به ما يحتاج إلى تجديد، ويسافر إلى حلب ودمشق وبيروت والإسكندريّة، وربّما إلى باريس وروما. ينزل في أفخم الأوتيلات، وتُفصّل له ثياب جديدة عند أشهر الخيّاطين، ويستمتع ورفاقه بالسهر في أندية موصوفة، صحبة الغيداوات اللواتي جئن من أقاصي الأرض بحثاً عن عمل يدفع عنهنّ الجوع الذي قضت به عليهنّ تلك الحرب اللعينة، والتي بدا أنّها لن تتوقّف حتّى تفني بني البشر عن بكرة أبيهم.

حين باع جدّي محصوله من الحبوب، ركب سيّارته البونتياك الزرقاء، ذات السطح الأبيض باتّجاه بيروت. اعتاد أن يقيم في فندق (سان جورج) في عين المريسة، حيث نزل الملك

فاروق، والملك حسين، وبريجيت باردو، وأمّ كلثوم، ويقضي مساءاته في مقهى (كوكب الشرق) في ساحة الشهداء، حيث التقى هناك جدّتي.

كانت كرمة هي الثالثة من اليمين، ترقص على موسيقى أغنية: "يا كاويني وحارقني بنار.. أنا بيني وبين قلبك تار"! وذلك قبل أن تظهر بديعة على المسرح، لتؤدّي رقصتها بالصنوج وهي تصدح بالكوبليهات:

"يا كاويني بتيهك ودلالك.. ليه تسمع لكلام عزّالك..."!

تمدّ كرمة برشاقة ساقها الريّانة بماء الشباب والأنوثة، فيبدو فخذها المرمريّ من القطعة البيضاء المشقوقة ذات الطبقات الشفّافة المنسدلة إلى الأرض، والتي تعلوها قطعة أخرى من الساتان البرّاق تغطّي النهدين وتتعلّق بها أكمام من الموسلين، وعلى رأسها (توربان) صغير أبيض بسلاسل فضيّة تموج على شعرها الداكن، وكان بإمكانها إغواء الناسك بعينيها الرماديّتن وابتسامتها العريضة التي تظهر أسنانها البيضاء المرصوفة بكمال بلا جهود الـ (ليزر) أو الـ (فينير). أشرقت بذلك البهاء مثل زينة العيد، حتّى أنّ بديعة حينما أطلّت لم يحوّل الآغا نظره إليها! رقصت بدلع وبثقة وكانت تغنّي مع الأغنية، وتحلّق روحها بعيداً عن مسرح صالة كوكب الشرق إلى حيث لا يمكن لأحد أن يتكهّن. اقتربت كرمة أكثر من طاولات الروّاد وذلك حين تبادلت الراقصات أماكنهنّ، فتناول الآغا وردة بيضاء كانت في

عروة جاكيت نديمه جوزيف شمعون، أكبر مستورد للقمــح في بيروت، ورماها بها. كانت الرمية قويّة ومباغتة لدرجة أنّ الساق الخضراء القصيرة للوردة جاءت في عينها، وطرفتها، فتوقّفت عن الرقص، وهي تداري الإصابة المؤذية، وانسحبت إلى الكواليس، فلحق بها الآغا، وكان ما لا يمكن منعه من أن يكون، فالمصـــائر المعقّدة قد تصنعها ابتسامة، أو مناوشة أو رمية بوردة!

خرجت جدّتي بملء إرادتها من ذلك العالم الصاخب الملـــوّن، وركبت سيّارة البونتياك الزرقاء باتّجاه الرقّة، بلدة صغيرة وبعيـــدة، وتغطّ في ظلام دامس. تقول نانا كرمة: يمكنك امتلاك بيت في أيّ مكان في الدنيا، لكن نادراً ما يمكن للمرء أن يملك بعضاً من نهـــر أبديّ. تغمض عينيها وتتلذّذ بينها وبين نفسها بغبطة عارمة في أنّها حقّقت ما يضارع إنجاز معلّمتها وأيقونتها بديعـــة مصـــابني الـــتي امتلكت عقاراتها على النيل. وجدت كرمة في الآغا إبراهيم، ذلك العازبِ المحيّر، المعاييرَ التي فقدتها بغياب أبيها جميعاً: الثراء، والأصل، والوسامة، والحنان... كان له رائحة خاصّة لا يمكن محوهـــا مـــن الذاكرة، رائحة تنباك مختلطة برائحة بارفان ذي أســـاس خشـــبيّ، صندل أو صنوبر، تشير إلى رجولة بعيدة عن الادعاء، فعلت فعلها بكرمة التي هربت من جدران الأديرة بحثاً عن الحرية، فوقعـــت في قبضة الحب. عاشت معه سعيدة، لأنّها وجدت كلّ مـــا أرادتـــه: المدنيّة، والثراء، والثقة، وأن تكون سيّدة بيتها الذي استعادت بـــه أرستقراطيّتها الغائبة. حماها جدّي من فكرة العـــار الـــتي تصـــم

الراقصات، وتصير في البلدات الصغيرة، مثل الرقة، سلسلة من حكايات الأماسي المسلّية. كان يؤمن بشغفها بالفنّ، وكان لا يَنِي يسافر بها إلى حيث عروض الرقص والموسيقات الموسميّة، فيقضيان أوقاتاً تجعلهما على تماس مع الحياة المرحة والمرفّهة بعيداً عن سكونيّة الرقّة ومحدوديّة متعها، إذ يجوب بها المقاصف والمتنزّهات في مدن الشرق، ويغدق عليها هداياه النفيسة، التي بقي منها فرو الـ (مِنك) وعقد اللولو اللذين استقرّا في خزانتي.

تقضي كرمة وقتاً طويلاً في حلب، حيث يمتلك الآغا شقّة فاخرة في حيّ الجميليّة المحدث آنذاك. تسهر في المونتانا، ونادي حلب، ولونا بارك، وتحضر الأفلام في عروضها الأولى في سينما راميتا، وسينما الأمير، وسينما الزهراء، ثمّ تعود إلى الرقّة محمّلة بفساتين وتاييرات جديدة فصّلتها عند (مدام عتّة) في العزيزيّة، أو في أتيليه زاديك في حي التلل، وبالمأكولات (الجورميه) من السجق، والسلامي، والبسطرمة، والأجبان، والأسماك المقدّدة، من عند سيروب وأوتوماتيك وفكتوريا كلباكس. صحيح أنّها خرجت من عالم الفنّ لكنّها عاشت مع جدّي حياة تضارع حياة نجمات السينما متعة وثراء، وأنا أحببتُ أن أشبهها كثيراً، وأن تكون لي حكاية على صلة بحكايتها، هي لا أمّي، فلا أحد يحبّ أن يكرّر حكاية أمّه!

لم تفتح كرمة كتاب الماضي لأحد، وكأنّها لم تنتم يوماً إلى عالم المسارح وأروقتها العامرة بالمتعة والشغف، ولم ترتد بدلات

الرقص البرّاقة التي تزيد جسدها الشهيّ فتنة، ولم تحمل على رأسها الشمعدانات! لكنّ الذاكرة القديمة لا بدّ من أن تفيض يوماً بمحمولاتها، وكثير من الأسرار تصير مباحة تحت وطأة الزمن، فمنذ أن شعرت بملامح النضج تعلو قسماتي، في الثالثة عشرة من عمري ربّما، صارت تحكي لي شيئاً عن أسباب فشل أمّي في استقطاب عنصر الذكورة في أبي. كانت تحاول بحسن نيّة أن تجنّبني الوقوع في فخّ الجفاء بيني وبين زوجي المستقبليّ، وكنت أنفر من ذلك الحديث الذي يستفزّ حرمة روحي، ويقهر بنوّتي، لكنّها كانت تداويني بطريقتها، إذ تلمّح إلى تاريخها الذي لعبت فيه دور امرأة مغوية، أسرت رجالاً كثراً قبل أن تستقرّ في حضن الآغا، وتصير سيّدة منزله المصون. أُخرج صورها من صندوق الفضّة المتأكسد، ببطانته المخمليّة الزرقاء، وفي حين تملّ هي من سرد حكاية كلّ صورة، لا أملّ أنا أبداً. كانت جوانب صورها التي بالأبيض والأسود، ملتصقة بمثلّثات صغيرة من البلاستيك الرقيق الذي كان يثبّتها بصفحات الألبوم المنزوعة منه. تشبه جدّتي كارول لومبارد، أو فيفيان لي، أو أسمهان، أو ليلى مراد، أو مديحة يسري، وأنا أصلاً يصعب عليّ أن أفرّق بينهنّ، فكلّهنّ جميلات! أجسادهنّ متناسقة، وأنوثتهنّ بادية بفساتين الديكولتيه، الضيّقة عند الخصر، والتي تبدي وركاً عريضاً، ثمّ تعود لتضيق إلى تحت الركبتين، أو تبقى واسعة نفّاشة يحرّكها (جيبون) التول، فتزيد في طولهنّ وتصنع حاجزاً بينهنّ

وبين المشاهدين، إذ تضعهنّ في صفّ أميرات الحكايات. أسألها عن ألوان فساتينها التي في الصور، فتقول: بوردو، أسود، فيوليت...

تتزيّن كرمة بعقد اللولو، أو بـ (منتاتيف) من الألماس. شعرها مكويّ على هيئة (رول) أو (ريترو)، وعلى وجهها أحياناً (فيليه) سوداء، تغطّي نصفه، متّصلة بقبّعة صغيرة من الريش، أو الورد، وقد امتدّ الكحل محلّقاً أعلى جفونها، وارتسمت شفتاها الممتلئتان بلون داكن، لا أستطيع تحديده، فأسألها، فتقول: غالباً أحمر (ماغون)، فهو لوني المفضّل، وأنا أقول: تبّاً للأبيض والأسود! يمحوان ذاكرة الألوان، ويوحّدان الملامح، وإن كانا يأخذاها نحو الأجمل. عموماً كنت أقنع نفسي أنّ هذه المرأة التي أمامي بطقم أسنانها الأعوج، وعروقها الزرقاء النافرة من كفّيها، وقوامها الإسفنجيّ، وتغضّنات وجهها، هي ذاتها التي في الصورة صلبة ومشدودة المتن، ولعلّ ثدييها هما الجزء الوحيد الذي مازال صامداً أمام تحوّلات الزمن، فمازالا متماسكين ومحتفظين بوقفة تدعو إلى الملاحظة، وهي تقول لصويحباتها إنّه بسبب المساجات الليليّة التي كان تمنحها إيّاها كفّا الآغا بشكل منتظم، أي جدّي، الذي كان في تحدّ يوميّ بينه وبين خياله، إذ يرسم له عوالم المتعة التي حظيت بها زوجته مع رجال آخرين، فيسأل عن موقع عطائه بين تلك العلاقات التي قد تكون وهميّة، وعن درجة أدائه إذا ما كانت أكثر أو أقلّ ممّا عرفته كرمة وابتهجت به، وكان ذلك

يدخله في حالة استثارة رائعة تارّة، وفي حالة اكتئاب وشعور بالنقص تارّة أخرى، يبدّدها بأن يذكّر نفسه بأنّه في نهاية المطاف لم يُصب بالزهريّ الذي كانت تنقله النساء ذوات العلاقات المتعدّدة! لعلّ غياب الحقيقة هذا بقي الحبل المتين الذي يشدّ الآغا نحو كرمة حتّى آخر يوم في حياته، وكانت هي تقول: على المرأة أن تحتفظ في قلبها بغرفة سريّة لا تتّسع لأحد أبداً، غرفة كلّما زادت عتمتها، صارت صاحبتها أعزّ، وأبعد منالاً!

* * *

كانت كرمة قد بدأت تحكي لي حكايات الكازينو، بعد موت خالي نجيب. تحكي بعيداً عن أذنيّ أمّي، التي ما أن تسمع منّي شذرات من الحديث حتّى تسكتني باستنكار، مشيرة إلى أنّ جدّتي صارت خرفة، بسبب فقد ولدها، وعلينا أن نتعامل معها كطفل صغير ذي خيال خلّاق! تحكي كرمة عن نساء جميلات، كلّهنّ جميلات، وعن رجال أنيقين وأثرياء وقعوا في حبّهنّ، فكانت حُرق الهوى، والمراسيل المعطّرة، والهدايا الباذخة، واللقاءات المحمومة في الكواليس في غرف مفروشة بالمخمل الأحمر، وبالمرايا المؤطّرة بأُطر ذهبيّة عريضة، وبوكيهات الورد المقدّمة للتذلل والاسترضاء. تحكي عن الغيرة اللاذعة، واللوحات المؤنّثة، والسجائر الطويلة بين الأصابع المزيّنة بالمجوهرات والأظافر المطليّة بالأحمر، وعن المقصورة الخاصّة الـ VIP حيث تتجوّل

كاتي، واسمها الحقيقي زهرة، عارية إلاّ من البيكيني، وحذاء بكعب عال من الساتان الأسود بشرائط تُعقد إلى منتصف الساق، وبيبون أسود يحيط شريطه بعنقها، لتقدّم الشامبانيا للروّاد المحظوظين بالوصل، بجسدها الفارع وردفيها الممتلئين، متحايلة على ندبة مطعوم الجدري في فخذها بتغطيتها برقعة سوداء من المخمل، مربوطة بشريط إلى الفخذ، ومرصّعة بحبّات من الكريستال البرّاق. تنطلق كاتي أحياناً بمونولوجات معلّمتها بديعة، وتجد نفسها أجمل منها وأشهى! تبدأ هنا نانا كرمة بتأدية الأغاني المضحكة أحياناً، بصوت منخفض نسمعه أنا وهي فقط:

الغيرة يا نار الغيرة يا ما بتلهلب ألوفات

إنّما بتربّي الحيرة أكتر عند الستّات

أقاطعها إذ تكون قد سمّرتني عند المشهد السابق:

- ببيون أسود نانا؟!

- إيه، إيه، ببيون أسود.

تقرّبني كرمة في كلّ جلسة من ذكرياتها أكثر فأكثر، حتّى وصلنا إلى أنّ هذه الصور المعلّقة على الجدران ليست لباشوات أسرتها، بل هي صور مختلقة لأحد رسّامي دمشق، يبيعونها لأولئك الذين يبحثون عن تاريخ لهم بعشرات الليرات، وأنّ جدّي اشتراها ليثبت لأهل الرقّة الذين تؤرّقهم حكايات الأصل والفصل، أنّ أصهاره أصحاب عزّ قديم. إنّهم كذلك في الحقيقة، لكنّ الأدلّة طوتها الحروب والهجرات. لم أتلمّس أمارات الخرف

في عقل كرمة ولا في سلوكها، كما تلمّح أمّي، حتّى أواخر أيّامها. صارت فقط أكثر نزقاً ولا مبالاة من ذي قبل، وكذلك أكثر صمتاً، وأقلّ تدخّلاً في شؤون من حولها، على عكس النساء اللواتي تكثر مشورهنّ مع تقدّمهنّ في السنّ. ظلّت إلى حين موهما، تتأنّق بتنورة سوداء ماكسي، وبلوز أسود بخيط ذهبيّ أو فضيّ في نسيجه، وعلى صدره وردة سوداء منشّاة كبيرة، وتضع في شاهدها خاتماً كبيراً من حجر العقيق المستطيل بحامل من البلاتين، والذي كشفت لي من ضمن ما كشفت أنّ حجره من البلاستيك وحلقته من معدن رخيص، اشترته من بائع بسطة أمام مقام سيّدنا زكريّا في سوق (المدينة) في حلب، حيث كانت تربط قضبان المقام بخيوط خضر، وتضع ليراهما في يد خادمه لقضاء حوائجها. غالباً ما تفوح من ملابسها رائحة النفتالين مع كولونيا بالليمون، أو رائحة بارفان قديم مضى عليه عشرات السنين حتّى تحلّل، وفقد هويّته التي لا بدّ من أنّها كانت فاخرة! ما يهمّ هو أنّ مزيج الروائح ذلك هو رائحة جدّتي، مزيج من المتعة والعزّ القديم، والاغتراب والستر، والحزن العميق، والأسود هو تعبير عن نظريّتها التي تقول إنّه مهما كان رخيصاً فهو مثل الليل ستّار لكلّ عيب. على الرغم من المشاعر المتضاربة التي كانت تعتريني تجاهها من إعجاب وشفقة، ونقمة على ماضيها الذي جعل أمّي فريسة لشيء من الكآبة والعار، كانت الوحيدة التي تشعرني بجمال الحياة، وتأخذني خارج قضبان هذه البلدة

المسجونة بأعراف قاسية ينتهكها الجميع سرّاً، والأشقياء وحدهم يفتضح أمرهم. جارنا عيسى الذي تقصّى عن أصول جـدّتي في بيت لحم، حين ذهب مجاهداً في فلسطين، كما هي عادة النـاس هنا في البحث عن أقارب ومعارف وأنسباء لهم في البلاد البعيدة، أخبر بعض أهله عمّا سمعه عن تاريخ عائلتها، وتسرّبت ظـلال للخبر في البلد بين شكّ ويقين. بعدها استشهد عيسى، وتلاشى موضوع أصول كرمة، لكن حين كـبرت أمّـي، والتحقـت بالمدرسة نمي إلى مسامعها شيء من القدح في أمّهـا، وراحـت تتساءل عن ذلك بحيرة، من غير أن تجد من يجيب عن أسـئلتها، لكنّها اصطحبت طيلة حياتها شبح حقيقة مُرة كبّلها إلى الأبد في مجتمع يحفل بالتقاليد، والسمعة، ومكارم الأخلاق.

أنجبت كرمة أمّي، وسمّتها نجوى، ثمّ بعد حوالي اثنتي عشرة سنة أنجبت خالي نجيب، وسمّته على اسم نجيب الريحاني، الـذي كان يمثّل لها رقماً صعباً، بوصفه زوج معلّمتها ووليّة نعمتـها، والنموذج الذي سعت لتكونه فلم يسعفها الوقت أو الموهبـة، ولعلّها خافت من أن تكونه، إذ انتصرت عليه رغبتها في عـيش حياة آمنة مع رجل محترم حقّق لها الوضع الذي كانت تفتقـده، والمسمّى بالاستقرار العائليّ.

لم تكن جدّتي تبالي بما حولها من أعراف وطقـوس، إذ لا يشدّها إلى محيطها أصل يحضّها على الانتماء لأيّ شيء سـوى لزوجها وولديها، ومع ذلك ربّتهما بطريقة تخالف طبيعة علاقتها

مع نفسها. كانت معهما جدّ شديدة ومحافظة، مثلها مثل أيّة امرأة تقليديّة نشأت في هذا المكان، والذي يشتمل على بضع نساء يمكن أن نسمهنّ بأنهنّ الاستثناء. إنّهنّ جدّتي وجليستيها مارية، وصافية، اللتين أنتظر حضورهنّ مجلس كرمة بفارغ الصبر لأستمع إلى مغامراتهنّ فأجد الحياة معها أكثر بساطة وحريّة مما تدعوني إليه أمّي.

* * *

يمكن أن نقول إنّ العمّة مارية هي التفّاحة الفاسدة التي ستفسد كلّ التفّاحات في الصندوق! تجلس على فَرش عربيّ بجانب المدفأة، مغلقة المنطقة بجسدها الضخم، وإلى جوارها تجلس جدّتي على الأريكة الخضراء المخمليّة، المنقوشة بزهور كبيرة باللون البيج. بعدها تأتي العمّة صافية لتلتحق بالجلسة. تخلعان حذاءيهما عند الباب قبل الدعس على السجّادة العجميّة. حذاء مارية جلديّ أسود بلا كعب، تمدّد ليأخذ شكل قدمها العريضة، وحذاء صافية بلاستيكيّ أسود جديد دائماً. جعلت كرمة لصاحبتيها مجلساً عربيّاً خاصّاً على الأرض، فهما معتادتان على ذلك، إذ لا تحبّان الكراسي العالية! ظلّت سنوات طويلة ترفض جلوسهما على الأرض قائلة إنّ من يدخل بيتاً عليه أن يلتزم بتقاليده، وكانتا تتعلّلان بعدم الراحة، وحين انقطعتا عن زيارتها، استسلمت، وفصّلت لهما هذا المجلس. لقد تخلّت كرمة مع مرو

الزمن عن نظريّاتها الراديكاليّة، وعن أشياء كثيرة اكتشفت أنّها ليست مهمّة على الإطلاق.

كانت العمّة مارية في أواخر الخمسينيّات. بشرتها بيضاء مشرّبة بحمرة خفيفة ومنمّشة، وشعرها أحمر بلون النحاس، تفرقه في المنتصف، ولا يمكن لأحد أن يصدّق أنه لا يُبدي جذوراً بيضاء في هذا السنّ! لها جديلة غليظة تصل وركها، تربطها بمطاطة سوداء. ربّما يصل طولها إلى حوالي متر وخمسة وسبعين سنتيمتراً، ووزنها يزيد على المئة. تجلس مثل بوذا، تتربّع بسهولة لا يعوقها الشحم، بظهرها المشدود وثدييها الكبيرين المتحررين من أيّة حمّالة، وتكتفي في عزّ الشتاء بفستان طويل قطنيّ كحليّ منقّط بالأبيض، وتضع شالاً صوفيّاً بنيّاً على كتفيها. تنحسر فتحة الثوب، فيبدو فرق ثدييها متاهة داكنة وسط البياض، أشبه بواد سيوصل حتماً إلى جنّة ما. تفلّي السبانخ، وتقمّع الفاصولياء، أو تقشّر البصل ثمّ تضع على رأسها قشرة البصلة وهي تقطّعها على دفّة الفرم أمامها، فأسألها:

- لماذا تضعين القشرة على رأسك يا عمّة؟

- كي لا تدمع عيناي. من تدمع عيناها يعني أنّها تخاف من أهل زوجها!

كانت العمّة مارية طليقة في حركتها، وفي حديثها. لا شيء يوقفها، ولا تشعر بالحرج من أيّ موضوع، وكلّما سألها أحد عن عمرها تنظر في وجهه بتحدٍّ، وتقول إنّها ما تزال تحيض. تضع

سيكارة (الكِنت) الطويلة في طرف فمها حين تكون كلتا يديها مشغولتين بعمل ما، وتسحب منها نفساً بهدوء، وهي تغمض عيناً وتفتح الأخرى، فتكون في غاية الإثارة. تمدّ ساقيها الممتلئتين أمامها، فيظهر أعلى جوربي النايلون البنيين القصيرين، لون زهريّ ما له مثيل. تباغت الجميع بكلامها الجريء، غير آبهة بكبير أو صغير، فتحكي عن ذكرياتها، وعن علاقتها الحميمة بزوجها، وتسمي الأشياء بأسمائها: الأعضاء، والرغبات، ووضعيّات الجماع... تزوّجت في عمر السادسة عشرة بعد قصّة حبّ مع أحد أبناء عمومتها، وأنجبت عشرة، سبعة أولاد وثلاث بنات. كانت تلتقي بزوجها العم هادي تحت الجسر، وكان يملك آنذاك بيك آب (جيمس) أبيض اللون. هناك على مصطبة حجريّة رطبة على الفرات يشربان الشاي، ويتحسّس جسدها المكتنز، ويغرق في البياض، تقول إنّهما (ربع) أي صديقان، فقد عاشا معاً زمناً طويلاً يزيد على الأربعين سنة، وإنّها تربّت عنده أكثر ممّا ربّاها أبواها. امتلك أراضيَ زراعيّة في الرقّة، وتعهّد مشاريع شقّ طرق في اللاذقيّة مع شريك مهمّ في سوق التعهّدات هناك، وصار يقضي معظم وقته على سفر. تذهب هناك مع الأولاد في الصيف إلى البحر، لكن قلّما صارت تفعل مع تزايد المسؤوليّات، وثقل حركتهم بوصفهم عائلة كبيرة، تقول: تعرّف في اللاذقيّة إلى صبيّة تغنّي في المطعم الذي يسهر فيه مع شركائه، مطربة صاعدة، اشتُهرت فيما بعد، وصارت أغنياها تحتل استراحة ما بين الشوطين أثناء نقل مباريات دوري

كرة القدم على التلفزيون الرسميّ، ودخل معها في علاقة، وأغــدق عليها أموالاً كثيرة.

- وأنت، ماذا فعلت؟
- لا شيء، استمعت إليه، وضحكت معه!
- كيف؟
- عادي، الرجال يفعلون ذلك، ثمّ إنّ ذلك كان منذ زمن طويل، والأولاد كانوا صغاراً، وأنا مشغولة عنه. عاد و لم ينقص منه شيء، استمتع بلحمها قليلاً، وانتهى الأمر.

أفغر فمي بضحكة مصطنعة، وأطلب أن تمضي في حديثها أعمق، لكنّها تتوقّف وهي تمسح دموع البصل بطرف شالها.

بهذه البساطة تقبّلت العمة مارية علاقة زوجها بجسد امرأة أخرى، و لم تطلق على تلك العلاقة أسماء كبيرة ومفزعة من مثل الخيانة! وفكّرت، هي أجمل من تلك المغنية ثقيلة الظلّ! تجلــس مثل إلهة، وليس أشهى من ثدييها العامرين، ودمهــا الخفيــف، وسحبة نفس سيكارها، ومع ذلك تقبّلت ما مرّ بها، واستهزأت به، فلماذا لم تستطع أمي أن تتقبل ما فعله أبــي؟ لماذا لم تمــرّر الموضوع ببساطة، وتجنّبنا جميعاً الحياة الناقصة التي عشناها؟ لأنّها باختصار لا تحبّ، ولذا لم تغفر، في حين مارية تحبّ هادي، لذا غفرت له، وحوّلت خطيئته بفلسفتها الخاصّة إلى نقطة إثــارة! قالت إنّه يثيرها حين يكون مع امرأة غيرهــا، وإنّهــا تشــعر بالانتصار عندما تستعيده إلى حضنها.

تضحك العمّة صافية ضحكة هادئة، وتأخذ دورها في استحضار ذكرياتها مع الحبّ، حبّ زوجها حسن طبعاً، وهو أيضاً من أبناء عمومتها، ويكبرها بحوالي خمسة عشر عاماً. تفتقر العمّة صافية إلى الجمال، وكذلك إلى الملاحة. طويلة ونحيلة، ولها أنف طويل معقوف، لكنّها شديدة البياض، حينما تكشف عن ساقيها لتري جدّتي العروق الزرقاء التي بدأت تنفر فيهما، أو لتشكو من احمرار ما، أو انتفاخ بسبب احتباس السوائل، كان البياض يكمّ الأفواه! كلّنا ننظر إلى ساقيها المسكوبتين ببراعة، حتّى إنّ العمّة مارية لا تتورّع في كلّ مرة من أن تطلق تعليقاً متجاوزاً، كأن تقول: إنّ ساقيها شغلتاه عن دمامة وجهها! تلبس العمّة صافية اللباس العربيّ التقليديّ، من طبقتين، طبقة حمراء غالباً أو كحليّة، منقوشة بنقوش صغيرة، دوائر أو زهور أو نقط، تسمّى (قصيرة)، وفوقها ثوب أسود فضفاض من قماش مخرّم يبدي لون الثوب التحتانيّ، وتحزم وسطها بحزام جلد رجّاليّ، وتمشّط شعرها في جديلتين رفيعتين تتدليان على جانبي الوجه، على رأسها المنديل والعصابة. تكتفي بكونها سيّدة بيتها، وأنّ زوجها لم يبدّلها بأخرى. بناتها غير سعيدات في زيجاتهنّ، وتشجّع أولادها الذكور على الزواج بنساء ثانيات وثالثات، وهذا بعض من الشرّ الذي فيها! في الليلة الأولى لزواجها كما تُحدّث، امتنعت عن زوجها، ذعرت! تقول إنّ ذكره مخيف، ويصل ركبته، لذا هربت من بين يديه، فأمسك بعصا اعتاد حملها،

وضربها، ثمّ خرج ليسهر مع صحبه. تركها وحيدة تبكي من الارتباك والمشاعر المتناقضة والأحداث الغريبة، فأخواتها جعلنها قبل العرس بقليل تشطف حوش البيت الذي ستغادره. حوش كبير تحيط به غرف كثيرة، وفعلت، ثمّ استحمت وارتدت ملابسها وتوجّهت إلى عرسها في بيت العريس المقابل لبيتهم، من غير أن ترافقنها، وتغنين لها، ومن غير أن يأتي أحد من أهل العريس لاصطحابها، ثمّ ضُربت هكذا بلا سابق إنذار! حينما عاد زوجها من سهرته حصرها في زاوية الغرفة، ودخل بها، وهي تكتم صرخاتها، وتتجاهل آلامها الجائرة. تفتخر بأنّها درست إلى الصفّ الخامس الابتدائيّ، ولمّا لم يكن في المدرسة صفّ أعلى، حيث كان على من تريد متابعة تعليمها الانتقال إلى مدينة دير الزور، فقد أعادت الصفّ الخامس ثلاث مرّات، ووقفت أمام الجنرال (كاترو) المندوب الساميّ الفرنسيّ وألقت في حضرته، في حفل الاستقبال، كلمة بالفرنسيّة تطالب فيها باستقلال سورية.

كنّا نخاف العمّ حسن! يلوح لنا بخيزرانته، وهو يمشي في الطريق، كما أننا نعرف أن لديه مسدّساً تحت الصدرية التي يلبسها فوق جلاّبيّته. مذ سمعت بتلك الحادثة، صرت لا أستطيع مقاومة النظر إلى جسد العم حسن كلما مرّ بالحارة، أبحث عن ذلك الشيء المخيف الذي أفزع العمة صافية، وأودّ أن أحكي لعبّود عن تلك الغرابة، لكن طبعاً لا أستطيع أن أتطرّق إلى مواضيع محظورة يمكن فقط لأولاد الشوارع أن يقتربوا منها، كما أنّ هذه الفكرة

لم تكن واضحة بالنسبة إليّ، وربّما إلى أيّة بنت في عمري، وكنت سأظلّ بعيدة عن مثل هذه الملاحظات حتّى اليوم، لو أنّ جدّتي وصويحباتها كنّ متحفّظات أكثر في أحاديثهنّ.

جدّتي تنادي العمّة صافية بـ (صوفي)، فتلتفت إليّ وتقول متهكّمة على التناقض بين الدلع الإفرنجيّ، وشخصيّتها الأقرب إلى البداوة: هل ترين يا لولو، صرت صوفي على آخر الزمن! وتضحك من إصرار جدّتي على ممارسة فرنجتها: صوفي! لو سمعك الحاج حسن لانبسط كثيراً! وتضحك، ونضحك معها جميعاً...

تستمع جدّتي إلى أحاديث صويحباتها ممنونة لكونها الأسعد والأرقى والأحبّ، فزوجها لم تحدّثه نفسه بهوى امرأة غيرها، و لم يوجّه إليها يوماً كلمة مزعجة، ويداه لا تمتدّان إليها بغير لمسات الحنوّ أو الغرام.

تعرف كرمة أنّ ما يربط الرجل هو أن تكون لامرأته طباع سيّدة في النهار واستجابة محظيّة في الليل! وكانت هي كذلك، وقد حاولت أن تنقل لنا بأيّ شكل هذه الخبرة الأنثويّة، لكنّها فشلت مع أمّي بالتأكيد، وإلى الآن لم تفلح معي وصاياها لظروف خارجة عن إرادتي تتعلّق بعدم زواجي.

وهكذا تمضي الأحاديث في ديوان جدّتي كرمة على صوت إبريق الشاي الذي يعتلي المدفأة السوداء الكبيرة، يبقبق، ويغلي الماء فيه، ويغلي إلى ما لانهاية.

* * *

تأخّرت في المشي، بلغت السنتين تقريباً و لم يطلق الله قدميّ. كنت أستطيع أن أقف بارتباك وقد أمسكت حافّة طاولة صغيرة أو كرسيّ، و لم أكن أثق بيد أحد. وهكذا ربطوا قدميّ بحبل، وحملني خالي نجيب ومن خلفه أولاد الحارة، ووضعوني أمام باب الجامع الكبير حين صلاة الجمعة. أوّل من خرج من المصلّين أقامني، وصار يتمتم بسور من القرآن، أمام ترقب الجميع وقلقهم، ثمّ فكّ وثاقي بيمناه، فبدأت أخطو متهلّلة، خطوة وخطوتين وثلاث، بعدها مضيت وصرت أرفع يديّ مستبشرة وأضحك الضحكة التي ما زالت تفرض نفسها عليّ كلّما تخلّصت ممّا يشعرني بأنّه قيد.

صرت بعدها أغافل الجميع، وأخرج من أيّ باب مفتوح أكون وراءه، فيجدني أحد المارّة على الرصيف، أو في وسط الشارع، وقد توقّفت السيّارات، وعربات بيع الخضار التي تجرّها البغال، فيركض صاحب أحد الدكاكين ليعود بي إلى البيت، أو ينزل راكب درّاجة ليسأل في الجوار عن أهل هذه البنت الصغيرة. وحينما صرت أكبر قليلاً بدأت الجارات تتحاشينني وهنّ يكنسن الأرصفة، فكلّما جمعن بمكانس القشّ الناعمة التراب وورق الشجر وراكمنه في مكان على شكل تلّة صغيرة، أركض إليها أسرع من صاروخ، وأخرّبها بقدميّ الصغيرتين قبل أن تلحق بي أيّ منهنّ، بمقشّتها، وتهدّدني بالضرب! مع ذلك اكتشفت أمي، حينما صرت في السابعة من عمري، أنني لا

أعرف المشي على أصوله! أركض جيّداً، وأقفز، لكنني أمشي غير متوازنة كما تقول، مثل الزعران أحياناً، أو مثل الهمج، وأنّني أفتقد الإيقاع الأنثوي، ووافقتها جدّتي على ذلك. كنت محتارة حقّاً في اختيار مشية مناسبة لي، مثل من يحتار في اختيار نمط ملابسه، أو توقيعه الشخصيّ. بمجرّد خروجي عصراً من باب المنزل أبدأ في تحضير مشيتي، بعد أن أكون قد أمضيت ساعات في تقرير ملابسي المناسبة، والتي ستنتهي حتماً بـ (تي شيرت) بلون واحد وبنطلون جينز: مرّة أرخي جسدي كلّه وأبدأ بتحريك يديّ إلى الأمام والخلف بالتناوب. أصل آخر الشارع، ثمّ أقفل عائدة على الرصيف ذاته، ولكن هذه المرّة أشدّ جسدي وألوح بيديّ معاً أمام جذعي إلي اليسار فاليمين. في اليوم التالي يمكن أن أشدّ جذعي العلوي، وأدفع بمؤخّرتي إلى الخلف، إنّها مشية هدى حبيبة كمال صديق خالي نجيب، وكنت أغار منها وأحبّ أن أقلّدها. هكذا وقعت في حيرة بسبب مشيتي القلقة، والتي تحوّلت إلى قضيّة مؤرّقة في حياتي. ما كان يزيد الأمر سوءاً هو جمهور الجالسين أمام أبواب البيوت: أبو عبد الله، وأم رياض، وأم فرحان، والحاجّة آمنة... منذ العصر، في السادسة تقريباً، وبعد أن تُرشّ الحارة بالماء، يخرج العجائز لممارسة طقسهم اليوميّ، ويجلسون أمام الدور. قد يضعون طرّاحة صغيرة تنجّد خصيصاً للمصطبة أمام الباب، أو يتخذون كراسي صغيرة واطئة من القشّ أو البلاستيك. في الحقيقة هم يلوذون بالطريق

من جدران البيوت التي تكون قد خزّنت حرارة شمس الصيف الثائرة، ويتركون شبابيكهم وأبوابهم كلّها مفتوحة لرطوبة الليل، لعلّ النوم يكون هنيئاً!

حين أمرّ أمام بيت أم رياض، أجدها جالسة على العتبة العالية تراقبني بثوبها العربيّ الطويل، وعصبة رأسها، وتمرّر لسانها على شامتها الصغيرة البارزة إلى اليسار فوق شفتها العليا. تُضيّقُ عينيها الصغيرتين الشهلاوين، لتتمكّن من رؤية أفضل، فأبتسم لها، وأقول بصوت واثق: مرحباً! فتقول: أهلين، وهي تتفحّصني من فوق لتحت، بجديّة تامّة، وكأنّها تراني للمرّة الأولى. أعود بعد دقيقتين، فأمرّ أمامها بالاتجاه المعاكس، وأفكّر فيما إذا كان عليّ أن ألقي التحية مرّة ثانية أم لا؟! وأقرر أن أفعل، لكن بثقة أقلّ، فتردّ بالطريقة ذاتها. أذهب للعب مع الأولاد والبنات، وأنسى أمر المشي، وحينما تناديني أمي للعودة، أو ترسل أحداً في طلبي، لأنّ الوقت قد تأخّر، أعود لأفكّر في مشيتي، وفيما إذا كان يتعيّن عليّ أن أقول مرحباً أم لا مرّة ثالثة أو رابعة. هكذا كل يوم تجلس أم رياض أمام بيتها لتتحدّى لباقتي الاجتماعيّة وحركة جسدي التي مازالت تبحث عن شكل نهائيّ.

تستمرّ حيرتي لأشهر، ثمّ أطلب حلاً جذريّاً، فأسأل جدتي: أسلّم أم لا؟ تقول: كما تشائين، ليس مهماً، السلام لا يخسّر شيئاً. أمي تقول: كثرة السلام مثل قلته، مرة واحدة كل يوم ويكفي. أمي تعطيني حلولاً ناجعة، فتريحني، أمّا جدّتي بتساهلها

تزيد من إرباكي، وتضعني في مواجهة مسؤوليّاتي في كلّ شيء.
قرّرت أمّي ذات الخطوة الجميلة والطيّعة، والتي تستطيع تكييفها وفاقاً لحالتها النفسيّة، أن تعلّمني المشي من جديد. أن تضعني في الإيقاع كما تقول. أعتقد أنّها أرادت أن تشغل نفسها بـي، وألاّ تحمل خطيّتي في أن تكون مشاكلها المستمرّة مع أبـي سبباً في جعلي متخلّفة في أيّ وجه من وجوه الحياة، التي يفترض أن أكون فيها منطلقة وسعيدة كما كانت هي في طفولتها. صارت توقظني في الخامسة صباحاً، لنلبس ملابسنا الرياضيّة. بدلة ماما معلّقة على علاقة خلف باب غرفة النوم التي صرنا ننام فيها معاً منذ أن غادر أبـي إلى الغرفة المجاورة. كحليّة، وعلى سترتها خط أفقي برتقاليّ. أما أنا فألبس (تي شيرت) قطنياً أزرق، و(تايت) أسود يبدي ساقيّ القصيرتين والضئيلتين. تشرب أمّـي ماء وقهوة، وتطلب إلي شرب كوب من الماء، ثمّ نخرج من المنزل بهدوء كأننا نتسلل كي لا نوقظ أحداً. نغلق باب الحديد متجنّبتين قرقعته المعتادة، ونخرج بانبساط وكأننا فررنا من أحلامنا المزعجة، إلى حيث يكون الصباح قد بدأ ينصب خيمته النورانية على المدينة النائمة. نخرج من الحارات المتداخلة خلال دقائق إلى الشارع العريض الذي يفضي بنا إلى الجسر العتيق. إنّه شارع (نادي الفرات) حيث يتغيّر كلّ شيء. الهواء يصير نديّاً، ولون الأفق أزرق لا نهائيّاً، ويختفي من أمامنا أي معلم معماريّ بحيث يمكننا أن نرى الماء. نترك تمثال عشتار، والذي يبدو من

صنع نحّات أعمى، عن يسارنا عند مدخل الجسر، ونبدأ المشيّ بدأب على رصيف ضيّق، يقابله رصيف آخر، وبينهما ممرّ للآليّات بعرض خمسة أمتار. لا أحد سوانا أمّي وأنا. قد تمرّ عربة نصف نقل أو اثنتان، تحملان الخضار من المزارع القريبة التي تلي الجسر، لكن لا تقطعان خلوتنا حتّى وأنا ألوّح بيدي للسائق. أشعر مع ماما أنّ العالم لا يتجاوز قبضتينا المتشابكتين، وينتابني قلق مفاجئ تجاه مصيرنا، وأخشى أن يكون أبي قد مات في غيابنا، وتركنا هكذا معلّقتين على الجسر! لكنّني أنفض هذه الفكرة عن رأسي بسرعة، وأقحم نفسي في المشهد الذي أمشي إليه. نقطع الجسر في عشر دقائق، أحاول خلالها أن أضع يدي على البراميل الحديدية المثبّتة على طول رصيف الجسر لجرّ الماء، فتنهاني بصوت ممطوط: لا يا لولوووو.. وقد نلتفّ إلى اليمين وننحدر نحو النهر الذي يكون أنقى وأهدأ حين يسقط على صفحته أوّل شعاع للشمس، مع صحوة الطيور هانئة لا يعلو على صوتها شيء، فنبدأ تمرين الإيقاع بلا كثير من التعليمات: علينا أن نمشي فحسب وأفكارنا في مكان آخر! ماما تقول: انظري إلى الأمام شدّي كتفيك، ودعي جسدك يختار وضعيّته بحريّة، فكّري في أننا سنذهب إلى المستقبل؟!

- كيف؟

- بأفكارنا. سنذهب إلى ما وراء هذه التلال، هناك أرض جميلة.

- أعرف، هناك غجر ينصبون المراجيح على أغصان الأشجار!

أعترف لها بسرعة أنّي ذهبت مع فرحان، فتتجاهل الموضوع.

- هناك الجامعة، والمطار وحلب والشام وأميركا وفرنسا...

- ومونت كارلو؟

أقصد الإذاعة التي أحب أن أستمع إليها، لكنّ تردّدها، للأسف، لايصل إلى الرقّة. إنّها تعني عندي طريق السفر إلى أماكن جميلة.

- ومونت كارلو أيضاً.

يبدأ البط جولته الصباحيّة، وتتنفّس غرف الصفيح العائدة لمراقبي محطّات الضخّ، وتلمع على أسطحها قطرات الندى، ويقتحم اللون الأخضر الماء مشكّلاً جزراً من الحشائش الهشّة. ندخل بعد الجسر منطقة (الكسرة) حيث بيوت الفلاّحين الذين صاروا ملاّكاً لمزارع الأشجار المثمرة. بيوتهم وادعة وواسعة وسط البساتين، بعضها مسوّر بأسوار حجريّة عالية. ثمّة دور أخرى مسوّرة بالورود: ورد الجوري الأصفر والأبيض والأحمر والبرتقاليّ، تبدو مثل جواهر معلّقة فوق سجّادة من النباتات الخضراء تخفي أيّ أثر لمواد البناء المصنّعة، وكأنّ الناس يعيشون في بيوت من الورد والشجر. أغبطهم، وأذهب لأقطف وردة أو اثنتين، ولا تنهاني ماما كما تفعل حين نكون في المدينة، لعلّه بسبب من كثرة الأشياء! يتدلّى التفاح الصغير (القصيري) من

الأشجار خارج الأسوار، ولا نبذل جهداً كي نقطفه وكذلك الدراق والمشمش، نأخذ منه بلا شعور بالذنب، وكأنّ الكثرة تمنح إحساساً بالمشاعيّة. تقول ماما حينما نمرّ بحقول عبّاد الشمس:

- شوفي يا لولو إنّه يدير رأسه نحو الشمس، ويتبع حركتها من الشروق إلى الغروب.
- كلّ يوم.
- كلّ يوم وإلى الأبد.
- هل يمكن أن يقرر في يوم ألاّ يفعل؟
- لا.
- ألاَ يتعب؟!
- من هنا يأتي بزر (عين الشمس) الذي تحبينه، وكذلك زيت القلي.
- من هنا؟
- نعم من هنا.

تقودني من يدي، وندخل في حقل عبّاد الشمس. تمسك أقرب قرص، وتضع كفّي على وجهه، وتمرّرها مرّتين وثلاثة، فيمنحني ملمس البذور المسنّنة الطريّة شعوراً مثيراً:

- مام: لماذا يكون الماء من بعيد أزرق، وحين نقترب يصير أخضر؟
- بسبب الانعكاس.

أحياناً أعرض عن سماع الإجابة، أكتفي بطرح الأسئلة لأدلّل لها على اهتمامي ونضجي.

تحاول دائماً أن تدفعني باتجاه الأشياء من حولي، كأنّها تريد أن تكسر عن طريقي الإطار الصلب الذي فصّلته لنفسها. تطلب منّي أن أمسك بأوراق العشب وأميّز بين ملامسها، وأن أنظر إلى ألوان السماء، وأحوال القمر، وأن أراقب معها نحلة متردّدة تحاول مقاربة زهرة. تريد أن تعرّفني إلى الأشياء كلها قبل أن يسبقها أحد. تشرح لي آية قرآنيّة سمعناها من راديو في أحد الدكاكين، أو تقول: لولو تعالي لنتسابق مع ظلالنا... ذلك أنّها تستمع كلّ ليلة إلى أمّ كلثوم رفقة جدّتي، وكلّما سمعت "الأطلال" تكرّر: لولو، اسمعي اسمعي هذه الصورة الجميلة: "وعدونا فسبقنا ظلّنا"! كيف يسبق المرء ظلّه يا لولو؟! الظلّ يتبعنا فحسب.

أعرف قصدها! تريد أن تقول إنّ الحبّ وحده يجعلنا نسبق ظلالنا.

تعود أمي إلى العمل نشيطة بعد مشوارنا الصباحيّ الصيفيّ هذا، فأذهب معها إلى المكتبة، وأدخل القاعة المخصّصة لكتب الأطفال، بينما تكون قد استقرّت وراء مكتبها في القاعة المخصّصة للكبار. وقد أبقى أحياناً عند جدّتي، فأخرج إلى الحارة، أو أجلس أمام باب بيتها منتظرة مرور أيّ أحد لألعب معه، أو أقمّع لها الباميا أو الفاصولياء، أو أنقّي العدس، فتجلس هي في الحديقة، تعدّ طبختها، وأكون أنا والشارع في مرمى نظرها.

يستيقظ أبـــي حوالي الثامنة، يشرب قهوته، ويتناول فطوراً خفيفاً تكون أمّي قد وضعته على الطاولة قبل خروجها: فنجان شاي، مربّى الورد وجبنة بيضاء، وأحياناً تعدّ بيضتين مسلوقتين وحبّة بندورة، يرشّ عليهما الكثير من الفلفل الأسود المطحون. يأخذ حمّامه اليوميّ، ويرتدي ثيابه، ويمرّ بجدّتي التي تكـــون قـــد وضعت ركوة قهوة كبيرة من (الجينغو)، حمراء أو خضراء منقّطة بالأبيض على سخّانة كهربائيّة، وأمامها زجاجة مـــاء (بقّـــين)، وبدأت جلستها الصباحيّة. تقطف فلّة أو غاردينيا من شجيراتها، وتضعها في كأس شاي صغيرة، وهي بأناقتها البيتيّـــة: فســـتانها القطنيّ الأزرق المقطوع بحزام عند الخصر، والذي يبدي ســـاقيها الصفراوين اللامعتين، ببضعة شعيرات دمويّة. مناكيرها الأحمر أو الأورانج على قدميها، وخفّها المنزليّ من الريش الأبـــيض مثـــل خفّ عروس. تلمّ شعرها إلى الخلف في شكل كعكة، وتضـــع عقدها اللؤلؤ ذي الدور الواحد، وحمرة خفيفة، وعطر من نينـــا ريتشي. تشعل سيكارها، وتجلس لتسمع على (البيك- أب) نور الهدى، وهي تنادي: "يا جارة الوادي طربت وعادني.. ما يشبه الأحلام من ذكراكِ"! وتحكي كيف انشبكت علاقة حبّ بـــين مدرّس اللغة العربيّة في بيت لحم، وبين إحدى زميلاتها بســـبب هذه الأغنية، ويكون جدّي الآغا الذي يخمّن أنّها هي وليســـت زميلتها التي انشبكت في علاقة حبّ مع المدرّس، قـــد جلـــس لتناول قهوته في روب دي شامبر من القطن الخمـــريّ ، وتحتـــه

بيجامة كحليّة مقلّمة. جدّي يأتي بكلّ احتياجاته من بيروت، حتّى بثيابه الداخليّة. بعدها يقوم بجولة على أزهاره، ويأكل بعض العسل والجبن مع خبز حنطة، وربّما حبّة فاكهة، ثمّ يرتدي بدلته بلا كرافات. يمرّ به سائقه، فيركب في المقعد الخلفيّ، ويذهب لتفقّد محلاّته ومستأجريه، ومحطّة البنزين التي يملكها على الطريق الرئيسي المؤدي إلى حلب. أذهب معه أحياناً وأتناكف مع العمّال هناك. يشترون لي الكازوز وبطاطا ديربي، ويقطفون لي الخوخ من شجر جيران المحطّة. يعود جدّي منتصف النهار ليجلس في المقهى، فيجتمع حول طاولته الذين يأتون له بأخبار البلد، ويشربون شايهم وقهوتهم على حسابه، ويستذكرون الأيام الخوالي، ويقولون له نعم على كلّ شيء، ما دام قد يفكّ دينهم، أو يطعمهم، ويهتمّ بعيالهم.

أحب حكايات جدتي عن القدس وبيت لحم! تحكي عن زيارة إمبراطور ألمانيا غيّوم الثاني إلى القدس عائداً من إسطنبول، فتقول: استقبله أحد أعيان المدينة، وأعدّ وليمة عظيمة، وملأ قصره بالشموع المشتعلة بحيث يظنّ الناظر الدنيا نهاراً في عتمة الليل. كان للرجل ابنة صغيرة بالغة الجمال والفطنة، كتب لها والدها قصيدة لتلقيها مرحّبة بالإمبراطور. وقفت البنت التي بدت ملاكاً، بثوبها الحريريّ الباهر وشعرها الأشقر الطويل، وتلت القصيدة آسرة نفوس الجميع. تقدّم منها الإمبراطور وأهداها عقداً ثميناً، ثمّ انسحبت تمشي بين الشمعدانات التي تحمل الشموع

الوضّاءة، فلامست إحداها شعرها وثوبها، وسريعاً سريعاً التهمتها النار، وماتت بعد ذلك بأيّام، ولم يخبر أبوها الإمبراطور بهذه الفاجعة التي أحدثتها ضيافته!

يذهب أبي لينجز مصالحه في دوائر الدولة. له في كلّ مفصل مُعيْن يكرمه بالمال، أو سكرتيرة يأتي لها بهدايا على قدّ خدماتها: جزادين جلديّة، خواتم ذهبيّة، بارفانات... أو يعدها بالسفر إلى حلب أو دمشق بسيّارته الـ (الكاديلاك) وإطعامها في مطعم الفندق السياحي أو في مطعم الباشا أو الستراند. هكذا يحلّ معضلات عمله، ويستمتع بحياته، ويترك أمّي ترفل بين كتبها ومجوهراتها وفساتين نومها المهجورة، ولا ينقصها شيء سواه.

استغرق تعلّمي المشيَ ثلاثة أشهر اقتضت مشوارنا اليوميّ أنا وأمّي. صرت رشيقة وصارت خطوتي واثقة. لم أختر أية مشية، مشيتي هي التي اختارت جسدي، وكأنني تحررت من قوى شريرة كانت تكبّلني، وشعرت أنّ بإمكاني أن أطوي العالم كلّه بساقيّ الرياضيّتين، مادمنا نعبر الجسر كلّ صباح معاً، أنا وأمّي، في حين يكون الناس كلّهم نياماً، إذ لا أحد يفكّر في أن يفعل ذلك قبل العصر، لكن حينها يكون البطّ قد غادر، وتكون الطيور أرهقت من مراقبة السمك. لم أعد أفكّر بشيء يخصّ المشي، ألقي التحية على الجميع أو أستبدلها بابتسامة، وأنظر أحياناً إلى الأمام، إلى مكان موجود في عقلي فحسب، ومن

وقتها اكتشفت أنّنا ننجو من الأشياء حين نتجاهلها. انتهت رياضتنا اليوميّة مع دخول أيلول حيث يبدّل العالم من حولنا جلده، وندخل في مزاج المدرسة، والبرد، وانتظار المطر.

رائحة الهجر

لطالما اعتقدت أنّ أمّي واحدة من أجمل عشر نساء في العالم، ممّا زاد في حيرتي حول الفجوة التي تزيد كلّ يوم بينها وبين أبي، والتي لم يفلح أيّ منهما في ترميمها أو رأب صدوعها. ماما دائماً أنيقة وكأنّها خارجة من إحدى مجلّات الأزياء التي تطالعها بانتظام. حين تذهب إلى مناسبة مسائيّة ترتدي فساتين الموسلين التي تكون قد أوصت آنّا أن تشتري لها قماشها من تشيكوسلوفاكيا، وتتزيّن بعقد اللؤلؤ ذي الأدوار الثلاثة، أو تضع قلادها الماسيّة التي كانت هديّة خطبتها، وفي كلّ مرّة تلقي فيها جاكيت الفرو البنيّ على كتفيها، أعجب كيف يثبت عليهما فلا يسقط حين تحرّك ذراعيها! حين تلبس ماما البيجاما، أتأمّل ذلك المدى المرمري بين رقبتها وأعلى نهدها، فيسحرني، وأحب أن أدفن رأسي فيه، متسائلة عن تلك الأشياء المعتمة التي تحجب عن أبي رؤية هذا الحسن الباهر. أمّا حين تتوجّه إلى العمل حيث يحسب الأقرباء والمعارف لها حساباً قبل الغرباء نظراً لجدّيّتها المبالغ فيها، فإنّها ترتدي معطفها الجوخ، وحذاء شتويّاً بساق طويلة، بنيّاً أو أسودَ، وتضع الخواتم ذات الأحجار الكريمة في سبّابتها وإبهامها، وتكتفي من الزينة بكريم ياردلي وبارفان من شانيل أو أنغارو. كانت تعتقد بشدّة أنّها لم

تصمّم لتكون في هذه البلاد، لذلك ما أن تبدأ الإجازة الصيفيّة حتّى نسافر مع جدّيّ إلى إسطنبول، بالسيّارة أو بالباص، ومنها إلى بلغاريا ورومانيا، في حين يبقى أبـي يمارس غراميّاته في البلد بعد أن يزوّدنا بالمال الكافي للرحلة.

أصرّت أمّي على الزواج بأبـي، ونجحت في أن تنتقم من نفسها، وأن تعاقبنا جميعاً. كان بينها وبين عميّ فارس قصّة حبّ مغيّبة، حاول الجميع تجاهلها، لكنّ أمشاجها السامّة تسلّقت حياتنا رغماً عن الأطراف كلّها.

لم أقابل عمّي فارس ولا مرّة، حتّى صوره بين يديّ كانت نادرة. كان، كما سمعت، مثل أبطال الحكايات، لا يمكن أن تقاومه امرأة، لكرمه وسلاسة طبعه، وللسماحة التي تُقرأ في وجهه. وكانت النساء تقصده في محلات أبيه، جدّي لأبـي، حيث يدير شؤونها، وهي محلّات لبيع قطع تبديل الآليّات الزراعيّة، لكنّه لم يكن يرى في العالم أيّة امرأة. لعلّها نجوى هي التي استطاعت أن تقف على شرفة عالمه. إنّها ابنة خاله التي تربّت معه تقريباً، وكانت الأقرب إليه منذ طفولتهما على الرغم من وجود عامر أبـي، شقيقه الأصغر. بعد أن أنهت ماما دراستها في دار المعلّمات في حلب انتظرت أن يكونا معاً، هي وعمّي، في زواج متوقّع، لكنّه كلّما شعر بذوبان المسافة بينهما أقامها من جديد. لقد أتعبها كثيراً، وأضناها بالصدّ! جدّتي وحدها التي شهدت اعترافه بأنه يخشى الاقتراب منها، إذ يعتقد

أنّ جسده لن يسعفه لذلك، وأنّ قواه ستخور في أوّل محاولة. سافر ليتعالج عند أطبّاء حلب ودمشق وبيروت، وكان الرأي الفصل أنّه لا يعاني من مشكلة عضويّة. نصحته كرمة أن يذهب إلى أحد المواخير في حلب، ويضاجع واحدة من بنات الهوى، فيستوثق من إمكاناته، وبعدها لن يفرّقه شيء عن نجوى. كان فارس مستعداً ليفعل أيّ شيء يحرّك رجولته المعطّلة. مضى فعلاً إلى الماخور، واختار امرأة استطاعت أن تطلق رجولته، فتزوّجها وسافر معها إلى اليونان ولم يعد ثانية.

جنّ جنون نجوى التي طعنت في كرامتها، ولم تتجاوز ما حصل على الرغم من معرفتها التامّة بتفاصيل الداء والدواء. كان عامر، أبي، الشخص المتوافر في مرمى للانتقام، والذي له رائحة الحبيب والعدوّ، والمنقذ الذي سينتشلها من أزمتها النفسيّة ومن حرجها أمام الأقرباء والمعارف. كان أبي الرجل الثاني في كلّ شيء بالنسبة لعمّي فارس، لكنّه الآن سيعوّض عن ذلك في أنّه سيحوز على التركة التي لم يوفّق صاحبها في الاستمتاع بها. تعرف أمي بينها وبين نفسها أنها كانت ستترك (فارس) لو استمرّت عنّته، لكنها استمرأت دور المغدورة، ورمت لومها على كاهل جدّتي التي تعدّ أنّها خرّبت حياة ابنتها الوحيدة بمشورة حمقاء. ساءت علاقة نجوى بكرمة، وتحوّلت إلى كره صامت ومحظور، ومشوب بشائبة التدنيس والعقوق، حتّى إنّها في لحظة قالت لها إنّها ستبقى خرّيجة علب الليل! لكنّ جدّتي تصرّفت كأنّ شيئاً لم يكن، ولم تحاول أن

تسأل ابنتها عن مصدر معلوماتها، أو تجادل فيما سمعته منها. لم تمكث بعدها في بيت أهلها طويلاً، تزوّجت بأبي الذي يحمل رائحة الحبّ القاهر ودماءه وذكرياته، لكنّه ليس هو بكلّ تأكيد. تبيّن فيما بعد أنّ أبي لم يستمرئ التركة أيضاً، وقد تلقّى الكثير من اللوم والانتقادات. لكن بزواجهما سكت الجميع، وهم يترقّبون ما يحدث خلف سور بيتنا الجديد. جئت أنا بعد تسعة أشهر لأؤكّد كل ما يحتاج إلى تأكيد، وسمّتني أمي لميس. وكان الأولاد الأشرار يصيحون في الشارع: لميس! نضعك في الكيس ونقول لك بيس بيس.

لم تفلح الحياة اليوميّة في محو هذا الإرث من التباغض المعقّد، بل أنفشته كما تفعل الخميرة بالعجين. سريعاً خرج أبي من حجرة أمّي إلى الحجرة المجاورة، بحجّة أنني أزعجه في الليل ببكائي، فأُقحمت في المشكلة بينهما رغم إرادتي. وضع أبي في غرفته أثاثاً كاملاً، ووصل سلك الهاتف بعد أن قطعه عن الحجرة الأولى، وصرنا ننام معاً أنا وأمّي في سريرهما الواسع، وبقينا كذلك إلى يوم التفريق الأخير.

قضينا أيّامنا وكلّ منهما يتحاشى الآخر. مايُقال هو الكلام اللازم فحسب، مع غياب طويل خارج المنزل، وصراخ على أشياء تافهة، كالغسيل أو نوع الطعام أو وضع الأشياء في غير مكانها المتوقّع، وزيارات ليليّة نادرة بين الغرفتين المتقابلتين، وتحوّلت أنا سريعاً من مراقب إلى حكم، ففي الثامنة من عمري كنت أعلن عن

انتهاء معركة أو عن صلح وتجاوز. أبكي أحياناً أو أرمي نفسي على الأرض بينهما، أو أهدّد بمغادرة المنزل، وحين أختلي بنفسي أفكّر في أنّ الحلّ الوحيد لمصالحتهما هو أن أموت فيشتركان في الحزن عليّ. وهكذا أتخيّل جنازتي، وأرى جثّتي محمولة على الأكتاف في تابوت، وهما يتعانقان من الحزن. أرى موقف كلّ فرد في العائلة من موتي، وأرى الندم الذي سيصالح الجميع، وكنت مستعدّة فعلاً ليكون ذلك، مقابل أن يحلّ بينهما السلام.

كانت جدّتي ملمّة بتفاصيل هذا الصراع، وكنت أتضايق منها حين تنال من أبي بسوء، مع أنّي أشعر أحياناً بالمقت تجاهه، وبأنّ مسألة خلاصي منه ليست فاجعة. أحاول أن أهرب من أمامها متى ما بدأت تفتح ملف الخلاف بين أبويّ. أتركها تتكلّم وحدها، وأتعلّل بأيّ شيء، كأنْ أخرج، أو أعود إلى البيت، أو أذهب إلى المطبخ، أو أنهمك بوظائفي المدرسيّة، أو أسقي الزرع... كنت أشفق على أمّي، وأزدريها في الوقت ذاته، وكان هذا يعذّبني كثيراً، ويجعلني أبكي في فراشي كلّ ليلة، حتّى لو كانت في فترة هدنة مع أبي! لكن حين تنهض بعد المعركة مستجمعة قواها، ورافضة الكلام أو أداء واجباتها، ومستسلمة لصمت جليل، كنت أعود فأعجب بها.

حين نسافر بسيّارة أبي الكاديلاك إلى حلب أو دمشق نكون ثلاثتنا صامتين، نستمع إلى كاسيت فايزة أحمد، أو وردة، أو فيروز. أمّي تفكّر بأبي، وأبي يفكّر بامرأة أخرى، وكلّ منهما

يوجّه ملاحظة إليّ، أو ينبّهني إلى شيء يمرّ على الطريق. أمّي تقول: لولو، انظري إلى الخراف ترعى العشب! أبـي يقول: لولو، هـذه الشاحنة المرسيدس محمّلة بالشوندر، وذاهبة إلى معمل السـكّر... وحين يتكلّمان معاً تكون أحاديثهما عامّة في الغالـب، أو انتقـاداً لشخص ما قريب أو بعيد. يشكو لها من العمل وسـوء المـوارد، والفساد والرشاوى، والضرائب على آليّاته، فتهزّ برأسها وتقـول: إيه، إن هذه المدينة ستحترق بأعمال أهلها وفساد نفوسهم، وهـي بذلك ترميه بسهم! وقد تعيد أحاديث قديمة تروّض بها مشـاعرها الثائرة، فتحكي عن زيارة جدّي وصحبه إلى بيت فريد الأطرش في القاهرة: ركبوا الباخرة من ميناء اللاذقيّة إلى الإسكندريّة، ومنها إلى القاهرة. وصلوا إلى فيلّته في حدائق حلوان. طرقوا الباب، ففتحت لهم خادمته واسمها خضرا. قالوا لها قولي لفريد إنّنا أقربـاؤه مـن سورية من الرقّة. سمعوا صوته من الداخل يقول لها: اطرديهم، ليس لي أقرباء من الرقّة، فخرجت عليهم بمنفضة الغبار... تحكي ماما عن أيّامها الهانئة في بيت أبيها، وكيف كانت تـدرس قبـل وصـول الكهرباء إلى المنازل على نور مصابيح الشارع إلى منتصف الليـل، وتحكي عن جمال أشجار الصـنوبر في الطريـق بـين تيمشـوارا وبوخاريست، ثمّ تسكت بانتظار الكلام الذي لن يقوله هو عـن المرأة التي يعاشرها في تلك الآونة. حاولت أمّي أحياناً رأب الصدع بينهما، لكنها فشلت. جدتي تقول لها إنّ نفسها قصير، ومازالـت تجهل كيف تجرّ النساء الرجال إلى الفراش! وتقـول إنّ عليهـا أن

تكفّ عن لبس البيجامات، فتستبدل بها فساتين النوم، البيجامات حزام العفّة! أمّا أمي فلديها مجموعة من النظريّات التي لايمكن لأحد أن يغيّرها لأنّها نتاج تجربتها الشخصيّة. هي تؤمن أنّها ترى أبعد منهم جميعاً لأنّها تقف على أكتاف خيبة عملاقة، تقول: "لا ولد بنذر، ولا زوج بسحر"، فتقف جدّتي عاجزة أمام بلاغة أمثالها. تقول أيضاً: "لعن الله عيشة المداراة"، أي التحايل والتغاضي. ماما صعبة المراس، لا تلين ولا تنكسر. تحلّق فوق خيباتها، وتستطيع أن تكتشف من تحيّة امرأة ما، أو نظرتها إلى شباك بيتنا في أثناء مرورها أمامه إذا ما كانت تخصّ أبي أم لا.

لم يفكّر واحدهم في أن يقود المركب خارج هذا المضيق المعتم! لو خرجت أمي إلى عائلة أخرى، أو لو تزوّج أبي غير حبيبة أخيه، أو لو أنّ جدّتي تضافرت مع جدّي في وجه هذا الارتباط، لما كنّا الآن أبطال هذه الحكاية الكئيبة.

صارت نجوى تذهب لتصفّف شعرها عند (صالون الأحلام) على بعد حارتين، وكان ذلك على غير العادة، لأنّها لا تسلّم شعرها إلاّ للكوافير هاروت، الذي تسافر إليه في حلب كلّ شهر تقريباً. كان الصالون عبارة عن غرفة للمدعوّة أحلام في بيت عائلتها، ولا تعرف أمي أنني أذهب إليهم باستمرار مع جارتنا عفاف لتسوّي حاجبيها هناك، وتحفّ وجهها بالخيط. يضعن لها بودرة كثيفة فيصبح وجهها كوجه المهرّج. الجميع يقول إنّ سمعة البنات العاملات هناك سيّئة! هكذا تقول كلّ من العمّة ماريّة

والعمّة صافية. لكنّني أحبّ استكشاف هذا الموقع المحاط بالريبة. عندما أذهب يرحبن بـي ويدللنني، يضعن لي المناكير، ويضفرن شعري، وقد تسألني إحداهنّ كيف ماما وبابا، وهل ينامـان في سرير واحد؟! بصراحة صحبتهنّ ممتعة، ويؤكدن دائماً على أنني جميلة وشيطانة. حين تذهب أمّي يحتفلن بها، وكأنّها نزلت مـن السماء. يأتين بالقهوة والسجائر، ويعاملنها باحترام مفرط، وهي كذلك تضحك وتسمع منهنّ أحاديث حول ما يجري في المدينة. تطلب أمّي إلى أحلام أن ترتّب شعرها في تسـريحة، فتفعـل، وتكون جميلة جدّاً! تدخل أمّي إلى الغرفة المجاورة، بحجّة أنّهـا تريد أن تصلّي، فتجد غرفة تشبه غرفة عروس، بارفانات ثمينـة، وعلباً فاخرة لمساحيق التجميل والمجوهرات، و(بيبيدولات) معلّقة على المشجب، وبيجامة أبـي المفقودة من الغسيل. تخرج أمّـي وتتابع تسريحتها، وتعاود جذب أحلام إلى أحاديـث عشـوائيّة كالضحيّة تناور المجرم. ترجع إلى البيت وتمسك كتابـاً بكـل جبروها، ولا تحكي لأحد شيئاً. بعد أيام تنفجر وتدخل في حالة هيستيرية، وتحكي لجدتي كلّ ما رأته وسمعته، وهدد أبـي بأها ستحرقه وتطرده: اذهب إلى عاهراتك! ويقول إنّه سـيذهب، ثمّ بعد قليل يعود ليهدّئ من روعها.

أسأل جدّتي: لماذا يعيش الناس مع بعضهم وهم لا يحبـون بعضهم؟ تقول: هناك ما هو أبقى من الحبّ! وتردّ أمي: لـيس هناك ما هو أبقى من الحبّ.

يمرّ شهر من الصمت تذوي فيه أمي. أقف في صفّها، وأتجنّب أبي، وأعامله بنفور. آتي لها بأخبار الصالون، أفكّر بطريقة للانتقام لها، فلا أجد سوى البكاء، والرغبة في أن أبقى مع عبود، من غير أن أسمع أيّ شكوى عن الموضوع. أعود فأذهب مع عفاف إلى صالون الأحلام، يعاملنني باللطف ذاته، أخترع لهنّ حكايات عن الحب والوئام بين أبي وأمّي، وأسألهنّ في نهاية المطاف: هل أنتنّ عاهرات؟

فتفرقع ضحكاتهنّ، ويقلن: لا.

يفوح بيتنا بالرغبات المكبوتة: الرغبة في الصراخ، والرغبة في الطلاق، والرغبة في القتل، والرغبة في الوصال... تتحوّل أحياناً إلى مواجهات عنيفة، وأحياناً إلى هجوم يقع على جسدي الصغير حينما أحول بينهما. تعانقني أمّي وتبكي، فأكون معها بكلّ عواطفي، وحين أجلس مع أبي، فيحملني بين ذراعيه لنشتري الصحف أو الحلويات من الدكان، أبكي وأتشبّث برقبته وأجد له أعذاراً.

تلقّت أمّي اتصالاً هاتفيّاً، سمعتها تقول: بيت أحلام، ثمّ ذهبت بالسيّارة. لماذا تذهب بالسيّارة، والمكان على بعد حارتين! أمّي من قلّة قليلة من النساء اللواتي يعرفن القيادة في البلد، حيث ليس ثمّة حاجة للسيّارات حين لا يتجاوز أبعد مشوار ساعة مشي. الشوارع ساكنة، والناس نائمون في قيظ الظهيرة بعد عودهم من العمل، وأبي لم يعد إلى المنزل. حين عادت أمي

إلى البيت في المساء علمت أنّه في المستشفى، وأنّه أصيب بجلطة قلبيّة. كانت شديدة التوتّر، شاحبة وكئيبة، لكنّها لم تكن آسفة عليه. سألتها لم لم تبق معه؟ خفت عليه، وبكيت، واشتقت له. قالت: الزيارة ممنوعة. أعرف أنّ الناس كلّهم يبيتون عند مرضاهم في مستشفى المدينة الوحيد، فكيف تركته؟ الأهالي هناك يجلسون على الرصيف، بشايهم وقهوتهم وطعامهم، وثمّة عائلات كاملة مع الجيران تبقى حتى الصباح بانتظار موعد الزيارة، وهناك دائماً في الداخل مرافق واحد على الأقل، فمع من بقي أبي؟!

عرفت فيما بعد أنّ أمّي أخرجته من غرفة أحلام وقد أصيب بجلطة أثناء مضاجعتها. نقلته إلى المستشفى، وادّعت للأطبّاء أنّه كان معها. بقي الأمر طيّ الكتمان إلى أن سمعتها تصرخ في وجه جدّتي، وتقول لها الحقيقة. لم تعد أمي إلى البيت بعد شفاء أبي، وكانت أيّامنا ينطبق عليها وصف الجحيم. بعد أكثر من سنة، التحق أبي بعمّي فارس في اليونان. احتضنني قبل السفر، ورأيت غيمتي دموع في عينيه، وعدني بعودة قريبة لكنّه مثل أغلب الأوقات لم يفِ بوعده.

لم تسمح ماما بأن تخرج الحكاية من بيتنا فتتحوّل إلى حكاية شعبيّة. أظهرت تماسكاً فريداً يصعب أن تأتي به امرأة متروكة من قبل رجلين شقيقين. لكنّ جسدها ذوى، وصارت له رائحة غريبة. لم أعد بحاجة إلى صوت أو صورة لأميّز حضورها

في مكان ما، إذ صرت أميّزها من رائحتها الواخزة، فلو مرّت في الشارع قبل مروري أو دخلت حمّام البيت، أو حمّام بيت جدّتي، فسأعرف أنّها كانت هناك من رائحة مفرزاتها الواخزة، والتي أشبهت إلى حدّ بعيد رائحة جسد آنّا، أم عبّود، في أيّامها الأخيرة. أعتقد أنّها رائحة الهجر، رائحة تنتجها المرأة حين يستبدلها رجلها بأخرى. صرت أعرف النساء المهجورات من رائحتهنّ، وأراهن صديقيّ عبير وشذى على ذلك، محلّلة لهنّ العلاقات الخاصّة لنساء الحارة بأزواجهنّ، وفي كلّ مرّة أكسب الرهان. فآمنتا بفراستي، وقوّة حدسي وتحوّلتُ إلى مستشارة عاطفيّة ومدرّبة روحيّة. لم يكن يهمّني أيّ شيء ما دامت ماما معي، صامدة وعفيّة، وكلّما أطالت في نومها أقلق، وأدور حول سريرها مثل ذبابة تحوّم في فضاء دافئ. أحاول أن أتأكّد من تنفّسها، وأراقب صدرها إذ يعلو ويهبط. قد أمسك بيدها لأجسّ النبض، فتسحبها متذمّرة وهي ترفع صوتها: حلّي عنّيبي. فيرتاح قلبي، وأخرج من الغرفة مطمئنّة، وأؤكّد لنفسي أنّها قويّة، إذ تأكل جيّداً وتمارس الرياضة، ولم تذهب يوماً إلى طبيب أو تشتكي من علّة، وستبقى معي إلى اليوم الذي لن أفكّر به أبداً.

بقي من أبي صور قليلة ورسائل، ونقود بدأت دوريّة ثمّ غابت. كان يقول في رسائله إنه سيرسل لي بطاقة طائرة لأقضي الصيف عنده على شاطئ سالونيك لكنّ ذلك لم يحدث أيضاً،

وتحوّل سفره إلى رحيل دام ثماني سنوات، إلى أن تلقّينا نبأ موته قبيل دخولي امتحان الثانويّة العامّة. على الرغم من أنّــه كــان بالنسبة إلي مجرّد صورة ببعدين، فقد تهاويت، وحين خرجت أوّل مرّة بعد تلقّي الخبر لأقدّم امتحاني، شعرت بأنني أمشي في الطريق عارية، وأنّ الجميع ينظر إلى عريي، وانكمشت لأداري جسدي، وترك هذا الانكماش أثره فيّ إلى اليوم عبر تقــوّس بســيط في ظهري ينتابني بشكل قسريّ كلّما حزنت! أمّي صمتت في ذلك اليوم، ورجتني أن أنام في حضنها، متعلّلة بأنّها ستزيل عنّي قلــق الامتحان، لكنّها كانت حزينة! لقد صرنا حينها وحدنا في ذلك العالم على وجه الحقيقة. كان أبــي من قبل بعيداً، لكنّه كــان موجوداً، ويمكن استعادته بشكل ما في أيّة لحظة، والحصول على دعمه، وعتابه، والانتقام منه، وكان يمكنني تهديد أمّي بالانضمام إليه أيضاً، وحين مات أخلى سمائي من الشياطين والملائكة!

ليالي المقطورة القديمة

كنّا قد تنفّسنا بسفر أبـــي الصعداء، إذ هدأت المشـــاكل، وصار التزامنا بكلّ شيء أقـــلّ، بمواعيـــد الطعـــام، وبـــالنوم والاستيقاظ وبالمناسبات الاجتماعيّة. قبل سفره فضّ شراكته في المحلّ وأعطى أمّي مبلغاً لمعيشتنا، لكنّها أضافت إليه مـــن مالهـــا الخاصّ الذي ورثته عن جدّي، وعادت شريكة في المحـــلّ ذاتـــه الذي بقي يدرّ علينا دخلاً ممتازاً. عشنا أنا وأمّي وجدّتي في وئام فريد إلى أن جاء نيكولاس فتغيّر كلّ شيء، وكأنّ الدنيا قلبـــت علينا فصلاً في كتاب، أو أنّ مركبة فضـــائيّة نقلتنـــا إلى مجـــرّة جديدة.

نزل نيكولاس في فندق الحريّة. فنـــدق بـــائس، ترتـــاده (آرتيستات) الدرجة العاشرة. له باب صغير على الشـــارع، وفي مدخله درج بموكيت أحمر فقدت حوافّه حبكتها، وتفوح منـــه رائحة رطوبة مختلطة برائحة البول التي تنطلق من تواليت مجـــاور كثيرالاستعمال. على الجدار في صدر المكان شمعدانان من البرونز المتأكسد، تتوسّطهما صورة لرئيس الجمهوريّة. معظم الغـــرف فيها أسرّة متعددة، وحمام مشترك، ما عدا غـــرف الـــــ VIP. اللوبـــي فيه كونتوار خشبـــي يجلس وراءه موظّف الاســـتقبال على كرسي عال، وبين يديه سجلّ كبير، وخلفه لوحة خشـــبيّة

تعلّق عليها مفاتيح الغرف. وإلى جانب الجدار أريكة من الجلد الأسود مطعونة بسكّين، يطل الإسفنج الأصفر من شقّها في محاولة للاندلاق التامّ ستكلل بالنجاح عما قريب. كانت فنادق المدينة الثلاثة على هذه الشاكلة، فلم يكن أمام نيكولاس خيار أفضل.

كلّما انفتح باب الممرّ الذي يفضي إلى المطبخ تهبّ رائحة البيرة مع الفستق المملّح، مختلطة برائحة سوق الملابس المستعملة الذي يقع تحت الفندق وبجانبه سوق الخضار، فيكوّن هذا الخليط من الروائح شخصيّة شارع القوتلي الذي تعرفه الغالبيّة بالسوق الشرقي، والتي لن ينساها العابرون مهما عوّدوا حاسّة الشمّ لديهم على أرومات لطيفة وباذخة.

مرّ نيكولاس، الذي يعمل أستاذاً للفهم الجماهيريّ للعلم في جامعة ميونخ، أمام بيت جدّتي. كنّت أجلس على عتبة الدار مع عبّود، نرقب المارّة ونفتّق أحاديث تجرّ إلى كلّ مكان إلاّ إلى المكان الذي أتمنّاه. ارتدى بنطلون كتّان بيج، وبلوزة حمراء بقبّعة. له قامة طويلة فيها انحناءة مهيبة، وشعر كستنائيّ، وشاربان ينتهيان بلحية محمرّة كثيفة. في قدميه صندل بنيّ تصطفّ أصابعه في فتحته كجنود في عرض عسكريّ. سألنا عن الطريق إلى (تلّ البيعة)، بلغة عربيّة فصيحة لكن مكسّرة، فرُحنا نصف له ذلك بإخلاص، ورسمنا خريطة على أوراق كانت في حقيبة قماشيّة خاكيّة اللون على ظهره. حينها أطلّت جدّتي

ودعته إلى فنجان قهوة، فلبّى الدعوة بلا انفعال أو تردّد كأنّه يعرفنا منذ زمن!

حين دخل إلى الحديقة لم تغيّر ماما جلستها، كانت تطالع أخبار نجوم الفنّ والمجتمع في مجلّة (الموعد). رفعت رأسها ونظرت في عينيه مبتسمة بتودّد، وحين عرفت مبتغاه غيّرت وضعيّتها، وطلبت إلينا أن نذهب معه. عرض أن يعطينا مقابل الجولة مئة ليرة، وأن يفعل ذلك كلّما اصطحبناه، فرفضت ماما باستنكار، وقالت هذا واجبنا تجاه الضيوف، وقبل ذلك تجاه بلادنا وتاريخنا. في الحقيقة أُحبّ خطابها الأخلاقيّ الجادّ عن احترام التراث! عرضنا عليه الذهاب بالدرّاجات، لكنّه أراد المشي، فالمشي، كما قال، يفكّ طلاسم الأمكنة!

اتجهنا شرقاً، دخلنا السوق العتيق، وكان يسألنا عن موقعنا، فنجيب: نحن في الرافقة العبّاسيّة، وحين وصلنا سور المدينة الأثريّ سأل عن الرقّة السمراء، ورقّة واسط، ورقّة الرشيد، وبدا لنا أنّه يعرف أكثر منّا! عند باب بغداد، التقط كثيراً من الصور للأقواس والنقوش، بكاميرا لها عدسة مكبّرة. يقترب من المشهد بهدوء كأنّه يخشى أن يزعجه، ينحني، أو يمدّ جسده الرشيق نحو الأعلى، ثمّ يغافله بكبسة الزرّ. شعرنا بالتعب، فجلسنا في مقهى للعمال حول المدينة الصناعيّة وتناولنا الشاي، سعيدين أنا وعبود بأننا معاً، وأنّنا نفعل شيئا مفيداً ومشتركاً برضى أمي. وصلنا إلى تلّ البيعة، ودخلنا بين خرائب وحفريّات، ومناطق مسوّرة

لبعثات أثريّة يجري فيها التنقيب. حين تأكّد من المكان الذي يمثّل مبتغاه كان العصر يسير نحو الزوال، والشمس تشرع بالغياب وراء تلال الرقّة الغربيّة، والفرات عن شمالنا يرسل نسيمه الذي بدأ يبرد. فجأة طلب إلينا نيكولاس أن نتركه وحده، فابتعدنا، وجلسنا على صخرتين متقابلتين، وصرنا نرقبه وتتسلّل إلى أجسادنا أرواح أبناء (توتول) العتيقة هبة المنتصر (نقفوريوم). رأيناه يركع على ركبتيه، مخلّفاً العالم ونحن فيه وراء ظهره. ضمّ كفيه وكأنه في صلاة، وأخفض رأسه وبدأ يبكي... بعدها وقف وأخرج ورقة من حقيبته، وبدأ يقرأ منها. عرفنا من أمّي، فيما بعد، أنّه قرأ قصيدة أمّه التي كتبتها للفلكيّ العربيّ (البتّاني) الذي عاش في الرقّة، وبنى مرصداً عظيماً عند هذه التلّة التي يقف نيكولاس عليها. أمّه شاعرة معروفة في ألمانيا! وأخبرها أيضاً أنّ الفرقة السيمفونيّة التابعة لجامعته في (ميونخ) قد ألّفت سيمفونيّة باسم البتّاني مهداة إلى روحه بمناسبة إطلاق اسمه من قبل الاتحاد الدوليّ الفلكيّ العالميّ على فوّهة نيزكيّة في القمر.

عدنا مملوءين بالغرابة! ونمت باكراً من التعب، وظلّ صوت نيكولاس في أذنيّ وهو يتلو قصيدة أمّه كأنها نداء مقدّس قادم من كوكب مجهول، أو من تراتيل بشر تحتنا، رقدوا منذ آلاف السنين في هذه المدافن البائدة:

يا سلطان الأفلاك!

أنا التي تركت حبيبي على الطريق،

لأنّه محفوف بالظلال.

قلبـــي نار تحرق لحمه الطريّ،

صحراء تلتهم عوده الأخضر،

يا من أضنى بجلاله نور عينيّ!

ارسمه، من أجلي، مداراً سرمديّاً،

تميمةً في سماء الرقّة،

صليباً في ليالي الراين الباردة،

مباركاً إلى دهر الداهرين!

دلّته أمي على بيت آل بركات، جيراننا الـــذين يمتلكـــون شقتين صغيرتين متقابلتين ومفروشتين في قبو بيتهم، ويقومـــون بتأجيرهما للغرباء. الشقّتان لطيفتان، سرّ بهما نيكولاس، واختار تلك التي يطلّ شبّاكها على الزقاق الصغير الذي يفصل بينها وبين الحديقة الخلفيّة لبيت جدّتي، فصار كأنّه في بيتنا. أخبرته ماما بأنّ الآنسة زهور زميلتها في المركز الثقافيّ منتدبة لمساعدته من قبـــل مديرية الآثار، لكن بعد أسبوع جاء انتداب أمي لتحلّ محلّهـــا، باعتبارها أكثر إلماماً باللغة الإنكليزيّة، بحيث يمكنها التواصل معه بطريقة أفضل إن اضطرّ الأمر، وذلك على الرغم مـــن معرفتـــه الممتازة باللغة العربيّة التي درس مبادئها في ألمانيا، ثمّ خضع لدورة مكثّفة لتعلّمها في دمشق مع شقيقته التي تخصّصت بها. لم أرتـــح لانتداب أمّي بدل زميلتها، وبدأت تنمو في داخلي عقدة نفسيّة جديدة، قامت على الصراع بين إعجابـــي بنيكولاس، الـــذي

وجدت فيه العنصر الرجوليّ المفقود في عائلتي، وبين توجّسي من أن يسرق أمّي. اضطرم قلبـــي بالمحبّة والغيرة والحقد، وأضـــحى نيكولاس رجلنا المشترك، وصرنا بسببه أنا وأمّي ضرّتين. كـــان ودوداً جدّاً معي، يهتمّ بـــي ويتعامل معي وعبّود كأنّنا أفراد في طاقمه. كلّفنا بمهامّ ترتيب المقطورة التي استأجرها في الموقـــع، وتزويدها بالقرطاسيّة وبطاولة وكراسٍ، وكـــان يســـألنا عـــن معلومات لها علاقة باللغة وبالأهالي، ويطلب إلينا أن نقرأ لـــه في بعض الكتب التي تحضرها ماما من مكتبـــة المركـــز الثقـــافيّ: (المجسطيّ) لبطليموس، و(تاريخ الرقّة) للقشـــيري، و(وفيّـــات الأعيان) لابن خلّكان، وكان يستطيع التواصـــل مـــع عبّـــود بالتشيكيّة. ومقابل خدماتنا كان يأتي لنا بهـــدايا: شـــوكولاته، وساعتي يد (رومر) اشتراهما من محـــلاّت العقّـــاد في الســـوق الشرقيّ، وأعطاني (ووكمان) كان قد جلبه معه مـــن ميـــونخ، أبيض اللون. كانت سعادتي به فائقة، وظلّ يعمل إلى يوم تركته، وقد صار رفيقي الوحيد، لا سيّما بعد انقطاعي عن عبّود. أسمع به وحدي موسيقى رخمانينوف، وأبني من حركاتها شـــرنقتي. صرت أحبّ أن ألفت نظره بدأبـــي ومبادراتي في المســـاعدة، وإيجاد حلول لما يعترض يوميّاته، فحين انفصل إطار نظّارته عن العدسة أخذته إلى محلّ النظّارات في شـــارع المنصـــور وثبّتـــه، وحمّضت له أفلام التصوير، واشتريت أفلاماً جديدة، وأحضرت له من الصيدليّة شراب الباسبيران عندما أصيبت معدته بتوعّـــك

واستفرغ... أريد أن أنال إعجابه أنا، وليس أمّي، وما دام وجوده بيننا قد صار أمراً واقعاً لا أقوى على تغييره فلا بدّ من التعامل معه بأفضل طريقة ممكنة! لقد كنت منهكة من أحداث حياتنا ولا يمكنني ان أفتح جبهة جديدة مع أيّ طرف، لكن هذا لا يعني أنّني على وفاق معه، أو أنّني راضية عمّا يحصل. كنت أنفر منه بالدرجة ذاتها التي أقترب بها منه. أعرف تماماً أنّني مهما أثبت ذاتي وقوتّي، فلن أكون سوى تلك البنت الشاطرة اللمّاحة، وإنّ حدث أن تقاربا هو وأمّي فسيكون بينهما الشيء السريّ الخطير الذي سيجعلني أقتل نفسي لو تأكّدت منه.

كان في تلّ البيعة بالقرب من الطريق العامّ عربة قطار قديمة ومعطّلة، خرجت من سكّتها منذ زمن طويل، وجرّها بعض المشاغبين بعيداً عن المحطّة نحو الأماكن السكنيّة. ينام فيها السكارى أو المطرودون، وقد يختبئ فيها الأولاد أو يستعملونها لألعابهم البريئة وغير البريئة. إنّها خرابة متنقّلة، فمقاعدها منهوبة في الداخل، ونوافذها محطّمة، وفي نهايتها شرفة صغيرة، كانت تفصل بينها وبين المقطورة اللاحقة. قرّر نيكولاس أنّها ستكون مرصده خلال الأشهر الستّة التي سيعمل فيها هنا. استأجرها من كبير المنطقة، ودفع فيها مبلغاً جيّداً، ثمّ سلّمها لصاحب أفضل محلّ في المدينة الصناعيّة. فرّغها من الداخل، وحدّدها، وركّب نوافذ جديدة، وطلاها، وألحق بها تواليت صغير. وضع نيكولاس أريكة من المخمل الأحمر، وطاولة للكتابة وكرسيّ ومصباح

مكتب، علّق أيضاً مصباحاً في السقف ومدّ له شباب المنطقة خطّ كهرباء أخذوه من خطّ الشارع، وأخذ من عند جدّتي أصصاً من ورد العصر البنفسجيّ وياسمينة وريحان، وضعها في الشرفة فغطّت الأغصان قضبانها، وعلّق عليها شريط أضواء كهربائيّة كالتي تعلّق على شجرة الميلاد، وصارت المقطورة المهملة استراحة جميلة وأنيقة، تلمع وسط الخرائب ومحلاّت الخردة.

أذهب مع أمّي في أوقات العصر التي تلتحق فيها بعملها المفترض مع نيكولاس. عملها عموماً صباحيّ، لكنّ نيكولاس يقضي الصباح في بيته يبحث في الكتب أو يتجوّل في المدينة. وتبقى أمّي في البيت. يطلب إليها أحياناً أن تقرأ في بعض المراجع العربيّة وتلخّص له المعلومات، وصارت أمّي تبالغ في القراءة، وتحوّل مزاجها من مطالعة الروايات وسير العظماء والمشهورين إلى كتب التاريخ والظواهر العلميّة. كانت تبقى معه في الموقع لوقت متأخّر، ثمّ تعود ويبقى هو ليباشر عمله الفعليّ، وهو رصد السماء، الذي يبدأ منذ غياب الشمس، ويمكن أن يستمرّ إلى طلوعها. قد ينام هناك في المقطورة، وأحياناً يعود عند منتصف الليل. يسهر أحياناً أمام باب المقطورة مع الأهالي الذين تعرّف إليهم. يضعون كراسي الحديد ويجلسون معه يتأمّلون السماء، ويحدّثونه عن المنطقة وآثارها، ويعلّمونه المفردات العاميّة المحليّة، وتجد أطباقاً تأتي وأطباقاً تذهب من الضيافة، وكؤوس الشاي وفناجين القهوة، والمشبّك واللقم والكليج، وصندويشات الكبدة

المشويّة من البيوت المجاورة أو دكاكين الشِّواء. وضع لي في المقطورة لوح رسم وألواناً زيتيّة فاخرة جاء بها من ميونخ، وطلب إليّ أن أرسم السماء والحقول من حولنا، وعلى دفتر أحمر بأزهار زرقاء حثّني على كتابة مشاهداتي حين أرصد معه. كان عبّود ينضمّ إلينا أيضاً، وكان بارعاً في الرسم! كانت المقطورة قرب التلّة التي يتوقّع أنّها كانت منذ حوالي ألف ومئة عام مرصد البتّاني، وكان نيكولاس يحاول أن يكون في أقرب مدى من الظروف الجغرافيّة والفلكيّة التي كان فيها ذلك الفلكيّ، ليبني التصوّر الأكثر مصداقيّة.

كنّا نستعد أمّي وأنا لمغادرة المقطورة ليلاً، وكانا يتحدّثان عن ترتيب زيارة لبعض طلبة المعسكرات الصيفيّة إلى موقعه وتعليمهم مبادئ الرصد. في أثناء الحديث وضع يده بحنو على كتفها وطبطب عليها، كأنه يهمّ بضمّها إلى صدره، فتغيّرت ملامحها. ابتسمت له بعذوبة، ومال جذعها العلويّ إليه بطراوة، وصارت جميلة جداً! وفجأة نظرت في عينيّ وكأنّها تذكّرت وجودي. في تلك اللحظة تهاوى شيء في داخلي، وكرهتهما، وقرّرت أنّهما فريق واحد ضدّي، إنّهما عدوّاي.

لم أعد أرغب في أن آخذ موقع المراقب أو الحارس لأمّي. صرت بمجرّد أن نصل إلى المقطورة، أخرج إلى المرج المجاور، وأمشي، أمشي، أمشي من غير أن أعدّ الخطى، أو أحدّد وجهة. لم أعاتب أمّي أبداً أو أسألها عن تلك الحركة المستفزّة، فبعض

السؤال إثبات لما نريد إنكاره. إلى شرق المقطورة كانت هناك غرف صغيرة مسبقة الصنع متناثرة في المرج، وبيت كبير من الحجر سقفه مظلّة من التوتياء. رأيت بضعة شباب ظننتهم عمّالاً في مصلحة ما.

رحت أتجوّل هناك، تعبث برأسي رائحة لسماد عضويّ وروث حيوانات، وكانت هناك رؤوس من الخيل ترعى، وثمّة تلال عديدة من القش، ووراء البيت الحجريّ الذي تبيّن أنّه إصطبل، حقل محروث من البرسيم، ومضمار خيل وحواجز، لكن لم يكن أحد يركب أو يتدرّب. صادفت رجلاً أربعينيّاً، نحيفاً، أسمر، مربوعاً، بشعر أسود، وشاربين أسودين رفيعين نازلين عن حافتي شفتيه باتجاه الذقن الحليقة، وله خال كبير أسفل خدّه.

وضع سيكارته في طرف فمه ريثما يطوي حافراً أماميّاً لحصان بنيّ. ووضع الحافر بين فخذيه النحيلين، ورمى السيكارة بعيداً باتجاه التراب، وبدأ يثبّت حذوة معدنيّة للحصان، الذي كان مستسلماً، يرجّع صوتاً خفيفاً ليس بصهيل ولا حمحمة. تناول شاكوشاً وبدأ يدقّ النعل في المنطقة المتقرّنة بمسمار. طلب إليّ بثقة أن أناوله مسماراً آخر، كأنّه يعرفني، ومن غير أن يلتفت نحوي سألني عمّن أكون وماذا أفعل هنا! قلت له إنني أحب الخيل لكنني أخاف الاقتراب من الحيوانات، وأتابع مباريات الفروسيّة وقفز الحواجز على التلفزيون، وأحبّ عبارة: النداء

الأخير للفارس فلان على الجواد فلان، وأعرف الأخطاء والزمن وقوانين المنافسة... قال لي إنه يدرّب بعض الشباب، وإنهم في طريقهم لتأسيس ناد للفروسيّة، ويمكنني الانضمام إليهم إذا أردت، ومجّاناً، ولا يوجد لديهم فتيات! سأساعد أيضاً في تحضير مستلزمات التدريب والخيول، وهو سيعلمني أصول العمل.

سألني عن عمري، قلت له ثلاث عشرة سنة، كما سألني إن كنت أستطيع الالتزام بالمجيء يومياً، أجبت بنعم و لم أفكر بموافقة أمي. خيّل إليّ أنها لم تعد تمتلك كثيرَ حقٍّ للتدخّل بشؤوني، مادامت قد بدأت تحوك لنفسها شرنقة خاصة لا مكان لي داخلها.

تململ الحصان البنّي. سألت أحد الفتيان الذي بدا أكبر منّي قليلاً عن اسم الحصان، فقال: ابن الفرات! كانت كتلته خفيفة، و لم يكن عالياً مقارنة بالجياد التي أراها في مباريات القفز على التلفزيون. قال أبو ليلى: تلك غالباً خيل أجنبيّة أو مهجّنة، تكون عالية، ومناسبة للقفز، فارتفاع ساقها بارتفاع الحاجز تقريباً، وهي غالية الثمن. ابن الفرات عربيّ، رشيق. الحصان العربيّ أفضل للطراد، وزنه خفيف، وحركته سريعة، ويحتاج جهداً كبيراً من أجل القفز ، وبراعة من الفارس الذي عليه أن يضبط إيقاعه على إيقاع الحصان، وأن يتفهّم قبل كلّ شيء مزاجه. الفارس هو الذي يقفز بالحصان العربيّ، أمّا الحصان الأجنبيّ المدرّب يقفز وحده يا ميس.

لم أسمع منذ زمن أحداً يناديني بـ لميس، أدركت أنّ (أبو ليلى) يرسل لي رسالة تقول إنّ اسم لولو لا يصلح لفارسة! ولأثبت له رغبتي الصادقة تجاهلت خوفي القديم من الحيوانات، واقتربت من ابن الفرات. قال لي أحد الواقفين: لا تأتي من ورائه، ولا تشعريه بتردّد. واجهيه، وأمسكي بالرشمة تحت ذقنه، ثمّ ضعي يدك بثقة على ناصيته، أو امسحي بكلّ كفّك على رأسه. وهكذا بدأت أشكّل لنفسي عالماً من الفرادة بحيث لم يخطر لأحد من حولي أنّه يمكن لكائن صغير ووحيد مثلي أن يبرع في إقامته. علّمني (أبو ليلى) نجارة الحواجز و(المورينات) كما يسمّيها، أي العوارض التي تحمل الحاجز. جعلني أشتغل في أعمال شاقّة لم أخبر بها أمي: ألمّ البرسيم من حقل صغير بمنجل حادّ، وأغسل الخيل، وأرتّب السروج، وأنظّفها، وأطرّيها بالفازلين. أعالج قروح لثّة الخيول وأسنانها بخليط الثوم واللبن، أغسلها، أسبّحها في مغطس من المطاط صنعناه من إطارات السيّارات التالفة. يتكوّن من منزلق لنزول الجواد، ثمّ مساحة مستوية عميقة بطول خمسة أمتار، تُملأ بالماء ليسبح فيها الحصان، ويخرج بعدها إلى مصعد يوازي المنزَلق. صرت أنزل مع الحصان إلى الماء، فيمنحني شعوراً بالبهجة الفريدة، يعوم وأنا على ظهره، ويلعب معي كأنّنا في (مدينة ملاهي). بنطلوني الجينز الذي أدخلت ساقيه في الجزمة البلاستيكيّة يبتلّ، فلا أهتمّ، ستجفّفه الشمس والهواء بعد هنيهة. ليست كلّ الجياد تحبّ

العوم، (ميمونة) مثلاً كانت تجبن ولا تنزل إلى الماء، كانت محتفية بنفسها مثل عروس سمجة تفرض دلالها على الجميع. لكنّ (ابن الفرات) و(نجمة) و(عبلة) سبّاحون شغوفون. تعلمت البيطرة، أي إلباس النعال، ونزعها عن الحوافر، وتعلّمت الإطعام، والتسريح، والتمشية، والتحلية. يوصلنا سائق جدّتي، أو تقود ماما سيّارة جدّي الراحل بعد أن باع أبي سيّارته قبل سفره إلى اليونان. أوقف سيّارات الشوندر السكّري على الطريق، والقادمة من الحقول باتّجاه معمل السكّر، لآخذ منها بضع حبّات. أقطّعها وأطعمها للحصان، لـ (نجمة) غالباً، أو أضع حبّات السكاكر على راحة يدي، فتلعقها مخلّفة دغدغة تصل إلى أصابع قدمي، شعور لذيذ بأنك تستطيع إسعاد كائن حيّ، غير الإنسان. الخيول تشعر بالسعادة، وتشتاق، وتبكي أحياناً. عينا (نجمة) فيهما دموع، وعينا (غزوة) دائماً فيهما قذى، ويحوم حولهما الذباب، فأمسحهما بخرقة رطبة. تشكرني (غزوة) بأن تحّك رأسها بصدري. تفعل ذلك بعنف أحياناً، تكاد تكسر ضلعي! أغسل كلاًّ من نجمة وابن الفرات يوميّاً، فتختلط رائحة الشامبو برائحتهما، وبرائحتي التي تصير دائماً رائحة خيل، خليطاً من العرق والروث والعشب. أحضر أحياناً مجفف الشعر من البيت، فيضحك أبو ليلى، ويقول إن خيوله لم تتلق دلالاً كهذا، أوتحظ بلمسة أنثويّة من قبل! حين يتركنا سائق جدّتي في آخر الطريق الترابيّ، تتجه أمّي إلى المقطورة، وأنا إلى النادي، تقول

لي: ديري بالك على حالك، لا أردّ. أقول في نفسي: إنت ديري بالك على حالك! لم أعد أسألها كثيراً عن نيكـــولاس أو عـــن عملها، في مقابل أن تتركني أطول وقت ممكن في عالم الخيل.

أسأل (أبو ليلى):

- لماذا تزوّجت أربع نساء؟
- لكي أرضي أعمامي الأربعة!
- كلّهن بنات عمك، وضرائر، كيف يقضين أيّامهنّ!؟
- أتركهنّ جميعاً، فيعشن بسلام.

يضحك برزانة. دمه خفيف، ويشعرني كلّما تبادلنا الحديث أنّ لديه سرّاً أكبر من أن يبوح به، ويقف على مسافة منّا جميعاً. ما الذي يريده أبو ليلى من الدنيا؟ (وليلى هي اسم فرس قديمـــة كان يعتليها في شبابه الأوّل)، يترك نساء أربع وأطفالاً، وكذلك أبويه، ليقضي وقته مع الخيل، وقد يبيـــت هنـــا في غرفـــة أو (كرافانة) كما يسمّيها، جعلها مكتباً له، يمدّ فرشة أمام بابهـــا، وينام. حين أسأله يقول: الخيل تختار عشّاقها، وهذا الشـــغف لا حلّ له. نعم أنا أعرف. ذقت هذا الشغف، أخذني من غيـــاب أبـــي، ومن غيّاب عبّود المتوقّع في أيّة لحظة، والأهمّ أنّه سلاّني قليلاً عن مراقبة أمّي وتوقّع احتمالات غيابها هي الأخرى. لمـــن ستتركني أمّي إذا رحلت مع نيكولاس؟ هل يمكنها أن تقتـــرف ذلك فعلاً! هل سأذهب معها؟ هل سأذهب إلى أبـــي؟ أخاف من أن أسألها. لقد قالت لي العمّة مارية مرّة إنّنا إذا قلنا الفكـــرة

السيئة فإنّها ستحدث، وإذا قلنا الفكرة الجيّدة لن تحدث! لا يمكن لأمّي أن تتركني. تلك حقيقة راسخة مثل شروق الشمس، لكن قياساً على غياب الجميع: خالي وجدّي وأبي، فقد تغيب!

كنت أقترب من (أبو ليلى) حين أراه هادئاً متأمّلاً في المدى البعيد حيث تسرح خيوله، يدخّن سيجارته ويشرب كأس شايه، ويملك العالم. يقول لي: تعالي، تعالي، اجلسي. أودّ من كلّ قلبي أن أحكي له هواجسي وعذاباتي وأن أعترف أمامه بأنّني خائفة من أن تذهب أمّي مع الألمانيّ، وبأنني أشتاق إلى أبي الذي كان يعذّبنا! من غير أن ينظر في وجهي يقول لي: أنت شجاعة يا لميس، وقلبك جميل لذلك تحبّك الخيول. لا تجعلي شيئاً يكسرك. الحياة كلّها مزروعة بمثل هذه الحواجز، فإذا خفنا من الحاجز انهزمنا، وإذا قدنا الحصان بثقة سنقفز، سنقع، لا يهم، لكن علينا أن نعرف على أيّة جهة نقع، ليس على الرأس، ليس على الظهر. لنحاول أن تكون الوقعة على الساعد، على الكتف، سيكون ضررها أخفّ. تذكّري ابتهاجك حين قفزت الحاجز الأوّل! تذكّري خوفك قبله، وضربات قلبك. تذكّري كيف تجاوزته وخلّفته وراءك... كان يقول تماماً ما أحتاج أن يقال لي. أعاد تربيتي. علّمني أن أزهد بكلّ شيء، فلم يعد لي طلبات، لدرجة أنّني قضيت سنة كاملة ببنطلون جينز واحد وقميص واحد أزرق بأكمام طويلة أعقده عند الخصر، وجزمة بلاستيكيّة

كالتي يلبسها الفلاحون وعمّال النظافة، اشتريتها من السوق الشرقي بخمس وعشرين ليرة. لم أعد أرغب في العودة إلى البيت، وفي الشتاء حين قلّ وقت التدريب، وصار وجهي في وجه أمّي، وشبح نيكولاس يحوّم حولنا، أصبت باكتئاب وقصّرت في واجباتي المدرسيّة. كان أبو ليلى الشامان الذي ساعدني على أن أرى الجوهر، ودرّبتني الخيل على الحكمة، متى عليّ أن أُقدم، ومتى أتوقّف، ومتى أرخي الرسن، ومتى أشدّ، ومتى أستسلم... حين يهرب بك الحصان، قلبك سيترك جسدك ربّما نصف ساعة، ثمّ سيعود، فتقبّل ذلك بلا عتاب. لا تشدّ، ولا تجزع. استسلم فحسب، كن ثابتاً فوقه. سيصير أسرع من الريح، وسيفتح قوائمه إلى أقصى مدى، فتلامس بطنه الأرض. دورتان أو ثلاث، سيستنفد بعدها طاقته، ويهدأ، ويعود الأمر إليك.

لم يصدّع أبو ليلى رأسي بنظريّات عن عالمه، بل طلب إليّ أن أراقب، وأسأل حين الحاجة، ووضعني وجهاً لوجه مع تجربتي، ومنعني من الاستئثار بفرس واحدة، فمن وجهة نظره يجد أنْ نتآلف مع البدائل، فقد يمرض الجواد وقت المباراة، وقد تلد الفرس، أو تموت... علينا أن نكون على وفاق مع البديل، وأنا قست حياتي على نموذجه، لكنّني أحببت نجمة، الفرس الزرقاء، والمحبّة من الله! حدّثتها عن كلّ شيء، شكوت لها، وبكيت، وكانت تجيبني بنظرة حزن، وحمحمة باهتة. أحياناً نحدّق في عيون بعضنا البعض ربع ساعة ونستمتع بالصمت، بلا أسئلة.

نجمة وحدها التي احتوت اضطرابي بمحبّة. كانت تشعرني بذلك بالقوّة التي تحكّ بها عظام وجهها القاسية بصدري، والتي تصير تؤلم من الحبّ. نتبادل الحماية والدعابة والأنس، مثل أختين أو صديقتين تعاهدتا على وفاء أبديّ.

حين يقلق أبو ليلى من تعلقي المفرط بها، يحجبها عنّي ويجبرني على ركوب (غزوة) ذات العينين الجاحظتين، واللتين يغلب بياضهما على سوادهما، فأسأله: ما بال عينيها؟! فيجيب: أمّها بقرة! فأضحكِ ويذهب جزعي منها، ومن عنفها. عندها لا أتردّد من أن أبثّه بعض ما يقلقني، فقد كنت أسمع من الفتيان لغطاً حول السائس عنتر. قالوا إنّه يسكر كلّ ليلة ويضاجع الخيول! وعنتر هذا رجل ثلاثينيّ لكنّه يبدو ولداً قصيراً ونحيلاً، أسمر بشعر أحمر، وله سنّ ذهب محلّ الناب، يرتدي الجينز الداكن و(تي شيرت) أصفر أو أحمر، وجزمة مثل جزمتي. سمّيته عنتر أبو الجزمة، قياساً على شبهه بالقطّ أبو الجزمة في القصّة التي قرأتها لي أمّي في سنواتي الأولى:

- أخشى أن يكون عنتر سيّئاً مع نجمتي...!

يفهم أبو ليلى ما رميت إليه، ويجيب بجدّيّة مطلقة تبدّد حرجي:

- سأخصيه إن فعل ذلك. لا تقلقي إنّه ينام مع الكدش عند الفرات، لا مع الخيول الأصيلة.

يدهشني أبو ليلى بواقعيّته:

- ولماذا يبكي عنتر عندما يحلّ المساء؟!
- لأنّه أطلق النار على أخيه وهو صغير فقتله.

يعلو الضوء وينوس في المقطورة، ويحطّ المرار بقلبي ويشيل... ماذا يفعلان؟! يمسك يدها؟ يقبّلها؟ هل يشمّ فيها رائحة الكلور الذي تضيفه إلى صابون الجلي؟ هل شمّ بقيّة رائحة الثوم الذي قشّرته لإعداد الغداء ممتزجاً برائحة البرتقالة التي قشّرتها لي منذ قليل! ماما كانت من قبل تسألني: هل أقشّر لك البرتقالة بكرة أم حزوز؟! وغالباً ما كنت أقول: بكرة. فتكرّ قشرة البرتقالة بشكل حلزوني، لا تنقطع حتى تخرج كلّها قطعة واحدة، فتقطع لي البرتقالة المقشّرة نصفين، وتكون شهيّة حين أهرشها إذ يسيل ماؤها على شفتيّ وذقني، ويحرق أيّة جروح أو جفاف في بشرة وجهي حيث يمرّ. ماما لم تعد تسألني منذ انشغلت بنيكولاس ذلك السؤال المعهود، بل تضع أمامي البرتقالة حزوزاً متفرّدة وهي تغرق في أفكارها. ما كان يخيفني أكثر هو أنّ رائحة الهجر فارقتها، كيف؟ لعلّ نيكولاس هو من يعرف! ماذا سيجد رجل يستطيع تحريك النجوم في أمّي! كلّ مساء يقول لي: تعالي لنحرّك السماء، وحقّاً أكون قد رصدت موقع إحدى النجوم مثلاً، وبعد ساعة أرصدها في مكان آخر. أسأله:

- النجمة هي التي تتحرّك أم السماء؟!
- بل الأرض! الأرض تتحرّك باتجاه عقارب الساعة من الشرق إلى الغرب.

- إذا كانت النجوم موجودة في الليل والنهار ولا تغيّر مواقعها، فلماذا لا أراها في الصباح؟
- بسبب ضوء الشمس، والغلاف الجويّ.

* * *

أنهيت مع (أبو ليلى) المراحل الأوّليّة من التمرين: المشي، والخبب، وقد استغرق الأمر أقلّ من شهر. أتدرّب كلّ يوم ساعة ونصف إلى ساعتين، حتّى اعتاد جسدي على الجلسة والوضعيّة الصحيحة، وبدأت عضلات ساقيّ بشكل خاص تقوى على النكز. لم أستعمل مهمازاً أو كرباجاً، كانت في قبضتي الممسكة بسير الرشمة خيزرانة صغيرة، نهايتها بموازاة بطن الجواد بحيث لا يراها، صرت أستعملها بخفّة في أن أضربه على صفحة وركه العريض من الخلف، بحركة خفيفة، لأقول له فقط: أنا هنا! صار الخبب لعبتي، جسدي يقوم ويقعد مع خطوات ثنائيّة متبادلة من قبل الحصان. اكتشفت مع الخبرة أنّ الفرس الأنثى أحنّ وأطوع من الحصان الذكر! تعرّضت لكثير من الوقوع، والعضّ، والسرقة، إذ يسرقني الحصان، فيهرب بي خارج المضمار، وتعرّضت لحادث عنيف ترك ندبة مازال أثرها في جلدة رأسي تحت الشعر الذي لم يعد ينمو مكان غرز الجرّاح العشر، لكنّه لايظهر للعيان. بعدها صرت تلك التي يقولون عنها فارسة لا يشقّ لها غبار. أبو ليلى يقول: الفارس لا يصير فارساً إذا لم يقع

مئة وقعة! نقلتني الخيل إلى عالم مواز لا يلتقي مع عالم البشر. حين تركض بي الفرس، أو أركض بها، أسمعها تقول: سلّميني نفسك الآن! وتذهب بي وكأنها ترعاني، أو تريد أن تريني العالم بطريقة عجيبة، فأنسى عبّود، أصير أقوى منه، وأسبقَ منه إذ أتجاوز وأنا على صهوة الجواد صور الواقع المتلاحقة، أتخلّص منها، وأرميها، وأوقن من أنّني ألامس المستقبل وأنّني قد خلفت العالم ورائي، وما دمت أخلّفه ورائي فهذا يعني أنّ كل ما ينتمي إليه صار متجاوَزاً.

عجزت عن الانتقال من الخبب إلى الطراد، الذي هو حركة المنتهى للحصان، وهي حركة تشبه الركض، يدخل الجواد فيها قائمتيه الأماميّتين في الخلفيّتين اللتين تتراجعان، وكأنّه يأكل المسافة، ويتغيّر فيها إيقاع الفارس أيضاً، إذ تثبّت جسدك بلا قيام وقعود، وتشدّ فخذيك على السرج. ظهرك مستقيم، وخصرك يلين مع إيقاع الجواد تحتك، فينطلق مثل بساط الريح. ما أن يبدأ النقلة الأولى من الخبب إلى الطراد حتّى أسحب لجامه فأمنعه. أحاول فأفشل، يعنّفني أبو ليلى: ستخرّبين ترويض الحصان! أحسست بالعجز، هناك عالم جميل ينتظرني لا يعرفه الآخرون، وجنّة أمنع نفسي عنها بسبب الخوف الذي يقيّدني من المضيّ باتجاه المغامرة. هو الخوف ذاته الذي يمنعنا من أن نرمي أنفسنا بالمظلّة من طائرة، أو نسترخي فوق الماء لنبدأ السباحة، أو نتخلّص من قيد حبّ مذلّ على حدّ تعبير (أبو ليلى) الذي قال أيضاً: إنّ

الذين يحبّهم الله يمنحهم يده ليمزّقوا ستار الخوف. ومن هذا القبيل كانت حيلته لمساعدتي، لقد أشفق عليّ وهو يرى دمعة التحـــدّي في عينيّ وقد غلبها اليأس. يئست من استرداد أبـــي، والاحتفاظ بأمّي خالصة لي، ومن نيل قلب عبّود على الوجه الـــذي أريـــد، واستبدلت بهم جميعاً رغبة وحيدة في ذلك الوقت هي ذلك الطراد البريء. صعد كلّ منّا على جواد. ربط بخصره حبلاً، وعقد نهايته في لجام حصاني. سبقني، وأنا وراءه، وراح يسحب حصاني. بدأ حصانه بالطراد، فتبعه حصاني. تّبتُّ جسدي محتفظـــة بمرونتـــه، وتخليت عن الصلابة والتشنّج، ووثقت بـــ (أبو ليلـــى). كـــان يسبقني بمسافة، يجعلني بعيدة عنه، لكنّها مسافة آمنة، فوثـــاقي في يده، وإذا ما شعرت بالخطر، سيسحب حصاني، فأصير بموازاتـــه، فيمسك بالرشمة تحت ذقن الحصان ويوقفه أو ينتشلني كما يفعـــل فارس بأميرة! بدأت بالطراد، انتقلت إلى مستوى آخر من الوجود، و لم ألاحظ سوى خصره النحيل المشـــدود بكوفيّـــة، تشـــطره شطرين. كنّا، معاً معلّمي وأنا، مثل راكبـــي مركبـــة مقدّســـة عبرت بـــي إلى ما وراء العالم، لأخلّف صوراً متلاحقة فانية أمام عينيّ: الأشجار، والمروج، والبيوت، والبشر. حين نزلت عن ظهر الجواد كنت راضية عن الدنيا، حتّى إنّني صفحت عن أمّي. كلّما تراجعت كان أبو ليلى يربطني ونعيد الكرّة في البراري.

حين تغيب الشمس تماماً، وتسقط في النـــهر أكـــون قـــد غسلت الحصان، ومشّيته قليلاً، وأطعمته، وأغلقت عليه بـــاب

الإصطبل، فيعود العالم من حولي موحشاً. أمّي لم تنه عملها بعد، والضوء في صومعة نيكولاس يخفت ويعلو، ومعه يهتزّ وتــر في قلبـــي، فأدخل إلى غرفة السروج المعتمة، لتملأ صدري رائحة الجلد العابق بعرق الجياد. تصطفّ السروج فوق عوارض حديديّة منضّدة بعضها فوق بعضها الآخر. أجلس على الأرض وأخفـــي رأسي بينها وأروح بالبكاء. يصرّ باب الحديد فـــأنفض عنّـــي دموعي، وأقول لـــ (أبو ليلى): أنا متعبة من التدريب! لكنّـــه لا يتجاهل حزني، ولا يتركني وحدي ويغلق البـــاب علـــيّ، بـــل يسحبني من يدي لنجلس أمام غرفة المكتب في ضـــوء القمـــر، يصبّ لي الشاي في كأسٍ شربَ بها أحدهم قبلـــي، يشـــطفها بماء، ويكون الشاي لذيذاً رغم رداءة نوعه، والسكّر الكثير الذي فيه.

يقول الشباب في النادي إنّه بعد أن نغادر يجلس أبو ليلـــى ليشرب العرق، ويسمع مواويل عراقيّة حزينة ويبكي، فتستجيب له خيوله وتردّد بكاءه:

- لماذا أراك حزيناً دائماً؟
- لأنّني أحبّ الخيل!
- أنا أيضاً أحببتها، مثلك. لماذا نتعلّق بالخيـــل إلى هـــذه الدرجة؟
- لأنّها لا تبقى معنا طويلاً.
- كيف؟

- تموت بعد سنوات قليلة إذا لم تلق عناية فائقة، وهذه العناية مكلفة جدّا، وقد تمرض فنضطرّ للتخلّي عنها، أو تصير ملكاً لآخرين. إحساسنا بوجودها المؤقّت هو الذي يجعلها ثمينة!

عرفت فيما بعد أنّ (أبو ليلى) لم يتزوّج المرأة التي يحبّها لأنّ عائلتها تحمل مرضاً وراثيّاً عصبيّاً، أشبه بالجنون، وهو يظهر فجأة، ويحمل المصابَ به على إيذاء الآخرين وقتلهم أحياناً، وليس له دواء. يقول الناس إنّ سبب هذا المرض يعود إلى أنّه كان في دار جدّهم قبر لوليّ من أولياء الله الصالحين، فهدموه ليبنوا بيتاً حديثاً، فحلّ عليهم العقاب. لكنّ حبيبته تزوّجت برجل من خارج الرقّة. رحلت معه، وأنجبت منه، ولم يظهر عليها أثر للجنون، وتركت (أبو ليلى) ليتزوّج أربع نساء، فيهجرهنّ، ويبكي كلّ مساء.

صرت جاهزة للبطولة، قلقة ومتحمّسة. قال لي أبو ليلى: لا أريدك أن تفوزي اليوم، إنّها المرّة الأولى، أريد أن تشاركي فحسب. قبل أن يأتي دوري بقليل مرضت نجمة، أصيبت بمغص ولم تعد مأمونة الجانب. لم يخبرني أبو ليلى بشيء، فوجئت قبل أن ينادوا اسمي أنّه قد جهّز لي غزوة، فانهرت، وقلت له لن أشارك. كان المنادي يردّد اسمي واسم الفرس غزوة، فسقط على فخذي سوط لاسع من يد (أبو ليلى)، وقال: اصعدي. فوجئت بالضربة، وتجمّعت الدموع في مجرى عيني وكادت تفجّرهما،

لكنّني استجمعت قواي، وقفزت على ظهر الفرس، وأتممت المضمار بلا أخطاء، وبأقلّ زمن، وفزت، أنا التي فزت. حين خرجت من المضمار أمسك أبو ليلى فرسي، وأنزلني من عليها وأراد أن يعانقني فأحجمت عنه. دخلت غرفة السروج وانهرت بالبكاء. شعرت أنّني أستحقّ أن أمتلك العالم، لكنّ العالم رديء ولا يستحقّني، فماذا أفعل فيه؟! أمّي ونيكولاس كانا بين الجمهور، وأنا كنت واعية لفوزي لكنّني حزينة ووحيدة ومقهورة. أوجعتني ضربة (أبو ليلى)! اجتمعت فيها أوجاع حياتي القصيرة حتّى ذلك الحين. كان هو مصدر ثقتي وقوّتي. هو الذي يحميني، وهو الذي حرّرني من خوفي ونقلني إلى مستوى آخر من الجمال والحريّة. علّمني كيف أتخلّص من تردّدي، وكيف أصنع نجاحاً من ماء قلبي الصغير المهزوم! صارت نفسي ثقيلة عليه، وظلّت لسعة السوط حمراء على فخذي، ثمّ ازرقت أسبوعاً، وكانت حارّة ومؤلمة. لكنّني عدت في اليوم التالي إلى التدريب، ولم أعاتبه. سألته كم أمامي من الوقت لأقفز المتر وثلاثين سنتيمتراً، فقال: ما يزال أمامنا حصبة وجدري! وهذا تعبير نستعمله في الرقّة يدلّ على أنّنا سنمرّ بتجارب قاسية لننجو، كما كان الأطفال قبل توافر اللقاحات يمرّون بالأمراض الفتّاكة كالحصبة والجدري والشلل والدفتريا... وهكذا ظللت مع (أبو ليلى) مشدودة إلى الأرض، وأمّي مع نيكولاس مشدودة إلى السماء.

أراقب أضواء المقطورة وأرى صوراً مرهقة، لا أعرف إذا ما كانت حقيقيّة أم أنّها نتاج مخيّلتي: يحتويها الآن بين ذراعيه، ويقول لها كم يحبّها، وسيعوّضها عن أيّامها الصعبة الماضية، وهي ستضحك بالتأكيد ضحكة لا أعرفها، ضحكة النساء المغويات، تشبه ضحكتها التي كانت تضحكها حين كان خالي نجيب يحدّثها عن علاقته بعروبة، أو حين تضحك مع صديقتها الوحيدة منتهى وهما تدخّنان معاً في حديقة البيت الخلفيّة، أو عند استجابتها لنكات العمّة مارية الماجنة. أنفض تلك الصور السوداء. أسقطها من خيالي، فلن يحدث بينهما شيء: أنا كابنة أقول لا وألف لا، ولكن كامرأة أقول نعم وألف نعم، وأدخل إلى غرفة السروج وأبكي... وحين يفصل نيكولاس الكهرباء بحجّة منع التلوّث الضوئيّ يغطّ المكان في ظلام رهيب، ويصير بكائي أكثر مرارة.

لم يكن همّي أن يعجب نيكولاس بأمّي أو حتّى أن يحبّها! بل أعرف أكثر من ذلك. أعرف أنّه لا يمكن لرجل أن يراها فلا تأسره عيناها العسليّتان وشعرها البنّيّ الذي يصل كتفها، معتنى به دائماً، ومصفّف بموجات عريضة، وتفوح منه رائحة بلسم (إلسيف) بزيت الزيتون، يؤطّر بشرة وجهها الزهريّة الريّانة. وعلى الرغم من أنّها لا تعدّ طويلة القامة، بوصف الطول صفة جماليّة عندنا، فليس في قوامها عيوب، إذ اكتنز في جسدها ما يجب أن يكون مكتنزاً، نهداها، ووركها، وفخذاها، واحتفظت

بخصر لطيف، وكانت جدّتي تحاصرها دائماً بالريجيمات، وتحثّها على الرقص، لكنّ أمّي تفضّل رياضة المشي. ما كنت أطمح لأكون أجمل منها بأيّة حال، لكن ما كان يفتك بي حقّاً هو أن تتحرّك مشاعرها، التي ما التفتُّ إلى وجودها يوماً، تجاهه. أمّهاتنا لا يمتلكن مشاعر حبّ سوى تجاه آبائنا، ولا يمكن أن نفكّر بغير ذلك!

تأكّدت بشكل قاطع من أنّها واقعة في غرامه، لأنّها ببساطة كانت تخصّه بقلب الخَسَّة. كانت تمنحه إيّاه بكرم بالغ، وأنا أعرف أنّ قلب الخسّة عزيز عليها. لم تكن تعطيه لأحد، تحتفظ به لنفسها، وإذا ما طالبتها به تتذمّر. قلب ذو أوراق مجعدة كأصابع طفل وليد خرج للتو من بطن أمه، ومتفاوتة الطول. حلو، وينتهي بجذر قاس تقشره بعناية، تفتّح الأوراق الخضراء المشقرّة برفق لتنظف ما بينها بالماء والخلّ، وتأخذ وقتاً في تجهيزه، لذا فهو لا يمنح إلاّ لكلّ عزيز. تجهّز له أيضاً مائدة صغيرة حينما يصادف مروره ببيت جدّتي وقت الغداء أو العشاء. تضع أطباقاً محتفى بها من المتبّل والحمّص والبطاطا المقليّة وستيك الدجاج المتبّل باللبن والثوم، والمحمّر على الشوّاية اليدويّة، وتزيّنه بالجزر وشرائح البندورة وعروق البقدونس. لم أعرف أن لديها هذا الشغف بإعداد الطعام وتزيين السفرة إلا بعد أن التقت نيكولاس. وفي حين وجدت أمّي بهجتها الضائعة مع هذا الألمانيّ الغريب، فعادت أشبه ما تكون بمراهقة مخبولة أو طفلة أفسدها

الدلال، هرمت أنا وحطّت على قلبي كآبة الدنيا، وكنت كلّما حاولت تناسي مكابدتي، عرض لي مظهر من مظاهر حبّهما الآثم: مرّة خرجت بحماس من بيت جدّتي للقاء عبّود. كنّا قد قرّرنا الذهاب إلى سينما غرناطة في شارع القوّتلي الذي خلف حارتنا بحارتين فقط، لحضور فيلم (التقرير) لدريد لحّام، رفقة زينة بنت العمّة مارية التي تدرس في كلّية الصيدلة في دمشق. غيّرت ملابسي عشر مرّات حتّى استقريت على ثوب باللون الأصفر، وله طبقات من الكشكش برتقاليّة اللون، وعلى صدره بروش على شكل نظّارة شمسيّة سوداء. ربطت شعري ذيل حصان، ووضعت في قدميّ حذاء قماشيّاً كحليّاً إذ كانت أحذية الكتّان موضة ذلك الموسم. مررت ببيت جدّتي لأتفقّدها هي وأمّي وأخبرهما بخروجي. كانت أمّي تتأرجح في مرجوحة تصنعها مثل مراجيح النَّوَر. تربط حبل القنّب من الأعلى بالقضبان التي تزيّن أعلى حديد الباب الكبير الأسود، وتضع مكان المقعد مخدّة، وتتأرجح، وكان نيكولاس هو الذي يؤرجحها. يدفعها برفق، وهي تضحك ضحكتها التي تصير سمّاً في دمي. اقتربت منهما، دفعتهما بيديّ، كأنّ أرجوحتها اعترضت طريقي، وفار الدم إلى رأسي، وهاجمتني نوبة بكاء. جلست على عتبة بيت الجيران، طويت جذعي على ركبتيّ، وأخفيت وجهي فوق ذراعيّ الملفوفة إحداهما على الأخرى، واستسلمت لكرهي لكل شيء حولي. إنّهما متحابّان! إنّها تحبّه،

ذلك المقيت، بلهجته السخيفة، يقول: كمر وأكمار، بدلاً من قمر وأقمار. كمر بلهجتنا تعني الحزام. ليت لي كمراً أشنقه الآن به، وأشنقها بحبل أرجوحتها التافهة، وأتخلّص منهما إلى الأبد! وهو كيف وقع في غرامها؟ كيف انقدحت الشرارة الأولى، وما هي طريقته في التقرّب إليها؟ ماذا يقول لها؟ كيف يُغضبها وكيف يصالحها، وما الذي يفعلانه في خلوتهما... ليست لديّ إجابات، لديّ تصوّرات صعبة صعبة على قلبي الذي ما زال يتكوّن، وذلك ما جعلني منذ ذلك الوقت أمتلك فضولاً مؤلماً تجاه خرائط الحب، من غير أن أكون طرفاً فيها، فأحاول أن أستفسر من أيّ عاشق عن طريقته، وعن معجمه، وعن بصماته على القلب ومسار أصابعه على الجسد! ومع مزيد من المعرفة وصلت إلى أنّهم جميعاً يتشابهون، وأنّه لا توجد خريطة بديلة للحبّ تنجيك من المكابدة والإثم، مثلما لا توجد خريطة بديلة للرِّقّة تجعلك تعبر من الشرق إلى الغرب من غير أن تجتاز النهر.

* * *

وجدت ابن الفرات مستلقياً على ظهره وقوائمه مرفوعة في الهواء. كان متخشّباً. أول مرة أرى حصاناً ميتاً، وقبل أن أرفع كفّي التي كتمت بها صرختي عن فمي، أو أن أسأل عمّا حدث، قال الفرسان إنّ (أبو ليلى) قتله لأنّه أصيب بطلق ناريّ في ساقه، ولن يكون مفيداً بعد ذلك.

- لماذا يقتله، فليدعه من غير فائدة، ليطلقه في الطبيعة!
- سيتألّم كثيراً، ستعضّه الضباع، الموت أحسن!

لم يَبدُ لي أنّ (أبو ليلى) حزين. كان صامتاً، ولعلّه لم يكن يسمع ما يقال أيضاً. يلفّ الجمدانة على خصره بشدّة، ليبقى ظهره مستقيماً كما يعلّل دائماً. يحمل الرفش ويضرب الأرض بقوّة، وسيكارته في فمّه فيخرج مع كلّ ضربة تراباً كثيراً يلقيه إلى جانب الحفرة، كي يهيله على الجثّة فيما بعد. يتوقّف وينقل سيكارته إلى إصبعيه، وهو ينظر في الحفرة التي صنعها. الشمس كانت برتقاليّة تنوي الغياب، والهواء حولنا حارّ ودبق، وكان الذباب يحوّم على جثّة ابن الفرات، يقف على مؤقي عينيه المفتوحتين، ثمّ على كفّي (أبو ليلى) الممسكتين بمقبض الرفش، فيذبّه بحركة لا إراديّة، وتركيزه موجّه نحو معركته القادمة بعد أنّ حدّد عدوّه!

حفروا له حفرة كبيرة، وأهالوا عليه التراب، وأنا بكيت، وقرأنا الفاتحة وكأنّنا نشيّع كائناً بشريّاً، وصديقاً عزيزاً إلى مثواه الأخير. خِفْتُ من (أبو ليلى)، وتلبّستني فكرة أنّني لا أعرفه بما يكفي ليكون قريباً كلّ ذلك القرب. كنت أحبّ المسافة التي يصنعها بيننا، وأنّه لم يسمح لي أن أتعلّق به بشكل متجاوز، وهذا ما أشعرني بالأمان، لكنّ تلك المسافة تتحوّل الآن إلى جدار. لم يتركني أبو ليلى لتوجّساتي، ولم يتجاهل خصامي. لم يَقُل: سترضى وحدها، وإن لم ترض فهذا شأنها! كان ببساطة

يكترث لي، وقد علمني أن أحترم الحقيقة مهما كانت، أن أجد لها روحاً وأتعامل معها على ذلك الأساس:

- لميس! تعالي. لم يكن هناك حلّ أفضل من القتل. كان سيتألّم وقتاً طويلاً، ثمّ سيموت.
- كنتَ قاسياً جدّاً.
- قد تنبثق الرحمة من القسوة.
- إذن الطبيعة هي القاسية!
- الطبيعة ليست رحيمة ولا قاسية، هي فقط لا مبالية. علينا ألاّ نشغل بالنا بها، ستحلّ معضلتها من ذات نفسها. وأنت انشغلي بالركوب، متى كانت آخر مرّة قفزت بلا سرج؟!

أَنسحبُ من أمامه، وأذهب لأتدرّب ولكن بشغف أقلّ، وبجرح في داخلي تتسرّب منه على مهل كلّ الأشياء التي ظننتها جميلة، فبماذا يختلف قتل الخيول عن قتل البشر!

عرفت أنّ ابن الفرات أصيب بطلق ناريّ من أحد متنفّذي الحكومة في الرقّة، وهي إشارة تهديد لـ (أبو ليلى). بعد أن نجح مشروع (أبو ليلى) الذي بدأ من الصفر، شعر بعض المسؤولين بأهمّيّته، وبالمكاسب التي ستجنى منه في وقت قريب، فأعطوه أرضاً للدولة ملاصقة لأرض النادي التي يملكها، ليستثمرها في توسيع المضمار والإصطبلات، ثمّ حوّلوا المشروع إلى مشروع رياضيّ حكوميّ. لو لم يقبل هذه الشراكة لأغلقوا له النادي على

أقلّ تقدير. اشتروا خيولاً ومعدّات، وأسّسوا مجلس إدارة، وكي يمدّوا له طُعْمَ حسن نيّتهم، عيّنوه رئيساً. بعد أن أرسى النادي ثقله وصارت آليّة عمله واضحة، وبدأ يدرّ الأموال من الدورات التدريبيّة، ويحرز فرسانه البطولات، أزاحوه واتهموه بالاختلاس، وحين وقف في وجههم مدافعاً عن نفسه وعن مشروع حياته، أطلقوا النار على الحصان. لم أترك (أبو ليلى) في معركته وحيداً، فانسحبت معه، وخبا ذلك النور المنبعث من عالم الخيل مثل كل شيء كان يلمع في المدينة. حين انتهت المعركة لصالح الخصم الذي لا يخسر أبداً، رحل أبو ليلى عن الرقّة. ترك نساءه الأربع وأولاده في عهدة أبويه. تركني أيضاً لأوسّع منطقتي المعتمة، وحمّل بضعة رؤوس من الخيل، فيها نجمة وغزوة، وذهب إلى دمشق حيث سيدرّب أولاد ضابط كبير. كان يبحث عن سلطة أقوى لينتقم، في حين عدت أنا من جديد غباراً متناثراً من معارك لا يحسب لي أحد فيها حساباً.

حين قامت الثورة كان ثلاثة من أولاد (أبو ليلى) ناشطين فيها، فاعتقلوا في المظاهرات التي دعت إلى إسقاط النظام في دمشق، حيث استقرّ به المطاف مدرّباً خاصّاً للضبّاط في ناد تابع للجيش. قاطعه أولاده إذ اتهموه بالعبوديّة للسلطة، واتهمهم هو بالتخريب والخيانة. خرج اثنان منهم ولجأا إلى أوربة، ولم يفلح قربه من النخبة العسكريّة في الإفراج عن ثالثهم الذي مات تحت التعذيب.

* * *

أحببت نيكولاس، لولا تلك العضّة في القلب التي أفطن إليها كلّ حين، والتي تجعلني أسرق بعض أوراق بحثه فأمزّقها، أو أنطح رأسي بالحائط... لا بد من أنه سيشرح لنجوى عن حبّه بالثقة ذاتها التي يحكي فيها عن أيّة حقيقة علميّة، ويخبرها تلك القصص التي تسحرني قبل أن تؤثّر فيها، عن بروج السماء وكواكبها المعتمة والنيّرة. تستمع إليه وهي تشبك كفّها في شعرها الذي قضت وقتاً طويلاً في تصفيفه، بدلاً من أن توليني اهتمامها، أو ترخي ظهرها على الأريكة الحمراء الواطئة، وتضع ساقاً على ساق غير آبهة بتباعد طرفي ثوبها الأزرق المفتوح من الأمام، والذي يثير فضول أيّ كائن كان لينظر باتجاه ذلك الفجّ العميق بين فخذيها الزهريين. صوته، وهو يحكي يقزّزني، ورائحة فوم الحلاقة بالنعنع الملتصقة بجلده تحرّك أمعائي للاستفراغ....

سألته نجوى عن الكرات البلوريّة، والأبراج، وجواهر الميلاد، بعد أن قامت لترتّب بعض الأوراق، وقالت إنّ حجر سعدها هو العقيق!

ابتسم وهو يقترب منها ليحضن كتفها بتلك الحركة البشعة والمنحطّة، والتي تشقّ هوّة في قلبي، فأقول بصوت عال: بابا قال إنّه سيتّصل اليوم! تنظر أمّي إليّ بلا تركيز، تتجاهلني وكأنّني لست ابنتها المعذّبة، في حين يجاملني هو بابتسامة سخيفة، ويعود إلى حديثه:

العالم الحقيقيّ له جماله العميق، والذي لا ينضب، وعلينا أن نفهمه فهماً صحيحاً، أي بالطريقة العلميّة، لنصل إلى هذا الجمال. لسنا بحاجة إلى أعاجيب زائفة، ولا نحتاج لأن ننظر لما هو أبعد من الموجودات بين أيدينا. الجمال يستحقّ، وعلينا بذل جهود صادقة!

أقول لها: يا الله! هيّا إلى البيت يا ماما، تعبت، أريد أن أنام. يحملني هو بدعابة مفتعلة إلى المقعد على باب المقطورة، فأرفس برجليّ الهواء. يطوي جسدي ويثبّتني ببطانيّة، ويقول: نامي. أواجه قلّة حيلتي بأن أستسلم، وأشعر بقلبي يتشقّق مثل أرض عطشى. أنظر إلى فوق، فأجد نفسي محاصرة بالسماء، سماء العدوّ القادم من الشمال. ما له وما لنا! يريد أن يسطو على سمائنا، ونجومنا، وعلى البتّاني، وعلى أمّي بادّعاء الحبّ والتقدير. أسرح في السماء، فأجدها رهيبة حقّاً! أستطيع أن أميّز الآن ما علّمني إياه نيكولاس من المجموعات النجميّة: هناك باتّجاه الحارة يلمع نجم الشمال، بولاريس، أجده بعد خمس مسافات، أقدّرها كمسطرة من الدب الأكبر باتّجاه الدبّ الأصغر. أستطيع أن أجد هاتين المجموعتين طوال فصول السنة. ألاحظ كذلك مجموعة كاسيوبيا التي أرسمها مثل حرف w بنجومها الثلاث اللامعة، وخلفها ستكون المجموعة النجميّة أندروميدا، والتي تقع في منطقتها مجرّة أندروميدا، المرأة المسلسلة، وهي مجرّة غير مجرّة درب التبّانة التي ينتمي إليها كوكب الأرض. قال لي نيكولاس

إنّه إن بقي حتّى شهر نيسان، فسأرصد معه مجموعات الشتاء: مجموعة الرجل الجبّار التي تعدّ أجمل المجموعات، وأمامه العقرب الذي تقع في قلبه نجمة ساحرة هي أنتارس، وخلف الجبّار ستكون مجموعة الثور بنجمها المميّز المسمّى الدَّبران، كما في العربيّة، وذلك لأنّه يقع في دبر الثريّا المكوّنة من ثلاثة آلاف نجمة، وخلف الثور تقع مجموعة الجوزاء. لكنني لا أريد أن أنتظر الشتاء ونجومه، إذ يسوءني أن يبقى نيكولاس معنا ذلك الوقت الطويل كلّه. لعلّ نيزكاً يضرب الأرض قبل ذلك أو ثقباً أسود يبتلعه ويخلّصني منه! أريد لهذا الصيف، على غير العادة، أن ينتهي سريعاً، ولعلّ أسوأ ما قد يحدث لشخص هو أن يقضي الصيف مع عدوّه!

قال لي نيكولاس إنّه كلّما كبّرنا قطر عدسة التلسكوب سنرى بشكل أوضح، وإنّه كان من الصعب عليه أن يحمل التلسكوبات من ألمانيا. سيعرّض نفسه للمساءلة الأمنيّة في المطار، وإنّ هذه التلسكوبات التي معه أعاره إيّاها بروفيسور صديق له في جامعة دمشق. قال إنّه في مرصد جامعة هامبورغ يستعملون تلسكوبات ضخمة، وإنّه تعامل مع تلسكوبات يبلغ قطر عدستها 1.52 م، وذلك في مرصد لاسيلا الذي عمل فيه في صحراء أتاكاما في تشيلي. لقد قضى هناك عاماً كاملاً في البحث، حين أرسلته منظّمة الأبحاث الفلكيّة التي تختصّ بالرصد في نصف الكرة الجنوبيّ، حيث السماء بالغة الظلمة، والهواء شديد الجفاف.

كان في مقطورة نيكولاس أربعة تلسكوبات وحاملان، ومجموعة عدسات بأحجام متعدّدة، وفلاتر. وكان يسمح لي باستعمال تلسكوباته والنظر عبرها إلى السماء، وأحياناً يثبّتها على الحامل، وينظر فيها بعد أن يحدّد موقعاً ما، ثمّ يناديني: هيه تعالي لنصطاد! أقف وراء المنظار، وأرى عدداً هائلاً من النقاط اللامعة، كثيفة في المركز، ومتناثرة على أطرافه، فيقول: هذه مجموعة مغلقة عنقوديّة. أتناول التلسكوب الأكبر بينها، فيأخذه منّي ويعطيني الأصغر، الذي يبلغ قطر عدسته خمس بوصات، وأستطيع حمله بسهولة. رأيت من خلاله فوّهات القمر، وكوكب المشتري بأقماره الأربعة، وزحل ذا الحلقات. كان يفرد على الطاولة مجموعة من الخرائط الغريبة، قال إنّها أطالس السماء، التي تدلّ على مواقع النجوم، والمجموعات النجميّة، والسدم، والمجرّات.

حين ينام الناس ونذهب نحن غالباً، وتطفأ أضواء تلّ البيعة، فيتساوى من هم فوق الأرض بمن هم تحتها في الغياب، يفصل نيكولاس الكهرباء عن مقطورته، ويكون قد أخرج الحامل المعدنيّ الأسود، وثبّت عليه التلسكوب الكبير الذي يبلغ قطر عدسته 14 بوصة، وأسلم روحه لخريطة السماء.

– العدسة الأكبر تكبّر النجوم والكواكب؟

– بل تقربها، التلسكوب لا يكبّر. إنّه يعمل على جمع الضوء من النجوم البعيدة والمجرّات، لذلك كلما زاد قطر

التلسكوب ازدادت كمية الضوء الذي يمكن أن يجمعه، ومن ثمّ يزداد عدد الأجرام التي يمكن رؤيتها من خلاله. وكلما ابتعدت تلك الأجرام السماوية زاد خفوتها واحتجنا لجمع كمية أكبر من ضوئها.

- لماذا لا نعرف أشياء كثيرة عن الفضاء؟

- بل نعرف. فكّر الإنسان في الفضاء منذ زمن بعيد، منذ العصر الإغريقيّ، فقد كانت السماء دائماً سؤالاً محيّراً. وصل الإغريق إلى أنّ توصيف الظواهر المرصودة وتفسيرها يمكن صياغته بطريقة رياضيّة بدلاً من التجسيد. إذن نبدأ بالملاحظة، أصل العلم الملاحظة. الآن صار لدينا تراكم هائل للمعارف أوصلتنا إلى القمر، ويخطّط علماء الفضاء الآن للوصول إلى المرّيخ من خلال روبوتات أو طواقم بشريّة، وقد نصل إلى حافّة الكون، إذا حصلنا على مركبة تتجاوز سرعتها سرعة الضوء بمئات الآلاف من المرّات. لكي نصل إلى أقصى مدى عرفناه إلى الآن نحتاج ما يقارب 16 مليار سنة ضوئيّة. مشكلتنا إذن أنّ الفضاء كبير والزمن قصير! لقد وضع بطليموس الروماني كتابه (المجسطيّ) في القرن الثاني بعد الميلاد، والكتاب يصف ظواهر الحركة السماويّة لكنّه لا يفسّرها، وقد بقي الفلكيّون معتمدين على هذا الكتاب إلى أن جاء صديقنا. من يا لولو؟!

يجيب عبّود بتهكّم:

- الإسكندر الأكبر.

يتجاهله، فأقول أنا:

- البتّاني.

- سوبر! البتّاني.

في المرّات التي كان عبّود يأتي بها معنا إلى المقطورة كان يستبدّ بكلّ شيء. في الحقيقة تدهشني رغبته في التعلّم، وصبره، وهدوءه في التعامل مع موضوعات المعرفة، ومعلوماته المتنوّعة التي تفوق معلوماتي. حين تعرض له أيّة ظاهرة أجده فجأة ينفصل عن العالم، ويشيح عمّا حوله بعينيه البنيّتين المصمتتين كحبّتي بندق، ويصير يعضّ على شفتيه البرتقاليّتين، ويفكّر في مدى معقوليّة ما يسمع أو يرى. يحتكر التلسكوب الصغير، ثمّ يجرّب آخر، ويغيّر العدسة، وتحذّره أمّي من أن يكسر شيئاً لنيكولاس، وأقول في سرّي: ليته يفعل! صارت أمّي تطلب إليّ ألاّ يرافقنا عبّود، تقول إنّها في عملها وليست في نزهة. وأنا منذ أن استكنت إلى عالم الخيل بدأت أنفصل عمّا عداه. عبّود أيضاً انشغل بالمنحلة التي أنشأها أبوه في مزرعة اشتراها في منطقة (السِّحل) غرب المدينة، فصار يقضي هناك وقتاً طويلاً، وبدأ يشقّ طريقه إلى عالم الشهد والعسل.

كانت أمّي قد درست عن البتاني كلّ شيء تقريباً، وحضّرت معلوماتها كأنّها تدخل امتحاناً مصيريّاً. حفّزها هذا

الحبّ، وهي قابلة لذلك، ومولعة من قبل بتطوير ذاهّا، والآن تريد ردم الهوّة المعرفيّة بينهما بأيّة طريقة، وهذا هو المستحيل. مع ذلك ترهق نفسها بالدراسة والبحث، وهذا الإرهاق يجعلها جميلة وشابّة ومهمومة! قرأتْ كثيراً. كانت تمضي الليل وهي تقرأ لتحظى بإعجابه، في حين لا يمكن أن نحدّد أفكاره، فهو المجهول الذي يبكي أمام تكهّنات لا دليل على صحّتها، وأمام قبور دارسة، وأوهام صنعتها ما تسمّى بالحقيقة العلميّة، التي يقفز الناس منها إلى أخرى بمجرّد أن يجدوها أكثر مناسبة لحياهم! لا نعرف أيضاً إذا ما كان نيكولاس يقضي هذا الوقت برفقتها لأنّها تساعده أم لأنّها تؤنسه، أم لأنّه أغرم بها حقّاً على أنّها جزء من المكان ومن البتّاني وأبراجه؟! سمعته يقول لجدّتي: لقد عجز البتاني عن الوصول إلى (برج نجوى) لكنّ نيكولاس وجده! تضحك جدّتي، وتلمع عيناها من ذكرى الحبّ. إنّ غزل الأجانب يؤخذ دائماً بحسن نيّة بل بمحبّة واعتزاز!

أحضرت نجوى كتباً كثيرة من مكتبة المركز الثقافيّ، كتباً مجلّدة بجلد متين بنيّ يجعلها متشابهة، وتحمل ختم المركز، وعلى كعبها أوراق تحمل أرقاماً. فتحتها معاً على طاولة السفرة في بيتنا، وبدأت تجمع المعلومات لتعدّ ملخّصاً تقدّمه لنيكولاس، يتضمّن ترجمة البتّاني. سيقارنه بما جمع طوال حياته من معلومات، فيصل إلى نصّ يعتمده في كتابه، مرفقاً بصور حيّة عن موقع مرصده في تلّ البيعة، وستكون صورنا معه عند المقطورة في الكتاب أيضاً:

"عاش البتّاني في القرن التاسع الميلاديّ. ولد في بتّان بإقليم حرّان بين الرقّة والرها. كان صابئيّاً ثمّ أسلم، وكانت ديار الصابئة على شواطئ الفرات، نهرهم المقدّس، وكانوا يهتمّون بحركة السماء وبالنجوم بوصفها جزءاً من طقوس عبادتهم. كان البتّاني، وهو أيضاً ابن أخت العالم العربيّ ثابت بن قرّة الذي اهتمّ بعلم الهيئة أي الفلك، يحمل معه دائماً كتاب بطليموس (المجسطيّ)، وقد بنى مرصداً في أنطاكية، ثمّ استقرّ في الرقّة، وبنى هذا المرصد الذي نقف على أطلاله، في العام 878 م – 264 هـ. حين بدأ الرصد كان في الرابعة والعشرين من عمره، وأمضى أربعين سنة وهو يرصد.

كان بطليموس وغيره من الفلكيين يقولون بثبات ميل حركة أوج الشمس بحساب دائرة الفلك، وحركة أوج الشمس تعني حركة الاعتدالين الربيعيّ والخريفيّ، لكنّ البتّاني بيّن أنّ الميل يتغيّر مع الزمن. وصنع أجهزته الفلكيّة بنفسه كجهاز قياس الارتفاع الزاوي للشمس، وله مؤلّفات كثيرة منها: شرح المقالات الأربع لبطليموس، ورسائل في علم الجغرافيا، وتعديل الكواكب. أشهر كتبه قاطبة كتاب الزيج، والمعروف بالزيج الصابئ أو زيج البتاني، وقد وضعه في العام 900 م – 287 هـ، وهو مؤلّف من مقدّمة وسبعة وخمسين فصلاً. وقد أمر ألفونسو العاشر في قشتالة بنقله إلى الإسبانيّة، وترجم أكثر من ترجمة إلى اللاّتينيّة في القرن الثاني عشر، واطّلع عليه كوبرنيكوس في القرن

السادس عشر الميلاديّ، وبالاعتماد عليه أثبت أنّ الأرض ليست مركز المنظومة الكونيّة. وطبع الزيج في روما في العام 1899 بتحقيق كارلو ميللينو عن النسخة المخطوطة بمكتبة الـ (أسكوريال) بإسبانيا.

صحّح البتّاني الكثير من أوهام بطليموس، فأثبت أنّ الكواكب تدور حول الشمس في مسار بيضويّ وليس ملتوياً. اعتمد الفلكيّ دنتورن من القرن السادس عشر على أبحاثه في تحديد تسارع القمر، واستطاع إثبات الكسوف الحلقيّ للشمس، واستخدم الخطوط المماسّة للأقواس مستعيناً بها في حساب الأرباع الشمسيّة، وأدخل الجيب وجيب التمام بدلاً من الوتر في الحسابات الفلكيّة وحساب المثلّثات.".

تجلس ماما على كرسيّ جدّتي الـ (ستراند)، وتقرأ تلك المعلومات بصوت هادئ، تتخلّله بحّتها الجميلة التي كانت تستوقفني حين كانت تحكي لي الحكايات، وذلك ليس منذ زمن بعيد، أربع سنوات على الأكثر، وكنت أظنّ أنّ البحّة نتيجة لشيء عالق في حلقها، فأضع أصابعي على رقبتها البيضاء، وتكون دافئة وطريّة، لأسحب ذلك الشيء. تتذاكر الآن المعلومات كأنّها تقرأ قصيدة حبّ:

- ما هو الزيج؟
- الزيج هو الخيط الذي يمدّه البنّاء على الحائط لمعرفة الانحرافات، وللتأكّد إذا ما كان مستوياً. وهو هنا

جدول وضعه البتّاني ليدلّ على حركة الكواكب وانحرافاها وجمعه أزياج. إنّها قوانين حسابيّة تخص حركة كلّ كوكب من سرعة وبطء واستقامة ورجوع، لتحديد موضعه.

- هل يأكل القنفذ الفريز؟

أسألها تلك الأسئلة التي تربك منظومة أفكارها، وتجعلها تتوقّف لتفكّر. في الحقيقة، ماما تأخذ كلّ سؤال علميّ أسأله بجديّة تامّة، ولا تتجاهل أيّة معلومات يمكن أن تقدّمها لي. لم تعرف الجواب، ولم يكن ثمّة غوغل آنذاك. بعد أيّام قالت لي:

- لا بدّ من أنّ القنفذ يأكل الفريز، فهو يأكل النباتات والثمار، ويستيقظ في الربيع أي في موسم الفريز، بعد أن يكون قد نام طويلاً في الشتاء.
- والأصباب.. الأصطبلاب؟
- الأصطرلاب. عيب لولو عمرك ثلاث عشر سنة ولا تعرفين كيف تقولين أصطرلاب، لو أنّها كلمة من كلام الشوارع لحفظتها كما تحفظينِ اسمكِ! الأصطرلاب هو آلة فلكيّة تأخذ شكل قبّة السماء وتُظهر كيف تبدو السماء في مكان محدّد عند وقت محدّد. يمكنها أيضاً أن تقيس ارتفاع الشمس، ومنه نقدّر الوقت.

بعد أن تكون أمّي قد أسمعتني هذا الكلام الذي يسمّ البدن، تتوقّف رغبتي في أن أتعلّم شيئاً، وأتركها لأجلس أمام باب البيت.

يحفظ نيكولاس اسم البتّاني كما يحفظ أحدنا اسمه، ويردّده أمامنا، كأنّه يتحدّانا، مترنّماً به هكذا: أبو عبد الله محمّد بن جابر بن سنان البتّانيّ الحرّانيّ الرقيّ الصابئ.

تقول ماما إنّ ميتته كانت مؤسفة، كانت لأسباب سياسيّة، إذ ذهب بصحبة بعض أهل الرقّة إلى بغداد متوسّطاً عند ذوي السلطان لرفع المظالم عن الناس، فتوفّي قرب سامرّاء. إنّها الحماقة التي تقتل في كلّ زمان العبقريّة!

في العام 1651 أطلق جيوفاني ريسيولّي أحد علماء الفلك الإيطاليين اسم البتّاني على أحد سهول القمر Albategnius، وأقرّ ذلك اتحاد الفضاء العالميّ في 1935، حيث فوّهة نيزكيّة قديمة تتموضع في المنطقة المركزيّة من سطح القمر المواجه للأرض، وذلك تقديراً لإنجازاته العلميّة العظيمة. وفي العام 2013 أُسقط تمثال البتّاني في الرقة على الأرض من قبل إحدى الجماعات المسلّحة التي احتلّت المدينة وعبثت بأقدارها.

يسألني نيكولاس مفتعلاً جديّة يحارب بها شكوكي، وأعتقد أنّه يفعل ذلك حين يشعر أنّ على علاقتنا أن تكون أفضل:

- هل درستم عن أجسام عمق الفضاء؟

- لا.

أقول ذلك وأنا أتشوّق لأعرف! أقايض بعضاً من غضبي وغيرتي بشيء من الكلام في هذا الموضوع الذي أحببته ربّما أكثر

ممّا أحبّته أمّي. هي أحبّته لأنّها تحبّ نيكولاس، وأنا أحببته رغم أنّي أكره نيكولاس.

- هي الأجسام السماويّة باستثناء الشمس والقمر والكواكب والنجوم.
- ماذا يتبقّى في السماء إذن؟
- المذنّبات التي تغيّر موقعها كلّ ليلة.
- مذنب هالي تقصد؟

كنّا في ذلك الوقت نسمع أخباراً عن أنّ مذنّب هالي سيظهر في السماء، وبأنّه يمكننا أن نراه من الأرض بالعين المجرّدة، وأنّه يظهر كلّ خمسة وسبعين عاماً تقريباً. وكان الأولاد المتحذلقون يقولون إنّه سيسقط علينا وينهي حياتنا على هذا الكوكب. كنّا قلقين فعلاً حيال هذا الأمر!

- نعم أشهرها هالي المسمّى على اسم الفلكيّ الإنكليزيّ إدموند هالي الذي تنبّأ بوجوده و لم يره.
- جدّتي تقول إنّ نجمة بيت لحم هي ذاتها هالي!
- تماماً، وقد استوحى منها جيوتو في العام 1301 لوحته الشهيرة (معبود المجوس). لكن يا لولو يبقى السديم أجمل شيء في الفضاء! إنّه نجم انهار قلبه، وبدأ يحتضر.
- يا سلاااام! حزينة فكرة احتضار النجم، وجميلة أيضاً. أحببتها! يتعب قلب النجمة أيضاً وتموت مثل كلّ شيء إذن.

- يتجمّع رماد الهليوم، ويطفئ الفرن المركزيّ للنجم.

أراني نيكولاس صوراً التقطتها (ناسا) لسدم، أو نجوم محتضرة:

- هذا سديم كارينا المكوّن من غبار وغازات.
- موتها جميل!
- ستكونين شاعرة يا لولو.

أنظر في أطلسه، وأضع يدي على نجمة بعيدة:

- ما اسم تلك النجمة؟
- يمكن أن نسمّيها لميس.
- أسأل بجدّ!
- لا تحمل كلّ النجوم أسماء، فمع التعرّف إلى عدد كبير منها بتطوّر وسائل الرصد، صار لها أرقام.

تسأله نجوى:

- لماذا ليس هناك برج الجبّار إذن، مثل الجدي والدلو والحوت...؟
- (الرجل الجبّار) من المجموعات النجميّة التي لا تمرّ بها الشمس ولا القمر ولا الكواكب، في حين أنّها تمرّ بالمجموعات النجميّة الأخرى، التي تشكّل الأبراج المعروفة بـ (الزودياك).
- جدّتي تقول النجوم هي أولياء السموات الصالحون، وأرواح الناجين من رجس الدنيا، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ما. كسبت من عمل صالح في حياتها

على الأرض، وبقدر هذا الارتفاع تكـــون ســـعادهّا ويكون قربها من أعلى السموات التي يقوم عليها عرش الله!

تنظر إليّ ماما بودّ:

- تتذكّرين لولو! آنّا كانت تقول كلّ منّا ولد من نجمة، تبقى معلّقة في السماء تحميه طيلة حياته، فـــإذا مـــات انطفأت نجمته.

- في الحقيقة النجوم المنهارة هي التي أنتجتنا. لقد خلقنـــا من بقاياها، فهي مصانع للذرّات التي تكوّن كلّ شيء. الكالسيوم الذي يكوّن عظامنا وأسناننا هو ذاته الـــذي في النجوم، والحديد الذي في دمنا، والنيتروجين الـــذي في حمضنا النوويّ، والكربون الموجود في قطعة الكيك. ليس لكلّ نجم في السماء جسد بشريّ علـــى الأرض، كما يمكن أن نفهم من كلام آنّا، بل قد تكون كلّ ذرّة فينا من نجم مختلف عن الآخر!

يعود إليّ إيماني بنيكولاس بعد مثل هذه الحوارات ، وأكذّب هواجسي بخصوص علاقته بأمّي. إنّه أجنبيّ، وأمـــر عـــاديّ أن يلمس كتفها ويحتضنها كمساعدة، وكصديقة، وربّما كأخت. إنّه يحتضن الجميع بنفس الطريقة: جدّتي، والعمّة مارية، والعمّـــة صافية... إنّه عالم، ولا وقت لديه للتفكير بهذه الأشياء السخيفة: الحبّ، والنساء..

أفضّل أن أُهي قلقي هنا. أخرج إلى المقعد أمام المقطورة مهدودة من التعب. أحمل بطّانيّة خفيفة، من التي يستعملها نيكولاس حين تفاجئه نسائم منتصف الليل، وأستلقي لأنام. أسمع همهمات ورطانة، لا أريد أن أفهم ما يقال ولا أن أستوضح، ما دمت لن أستطيع أن أفعل شيئاً، سوى أن أبكي أو أقتل نفسي!

- لا بدّ من أنّك تكوّنت من أشرف النجوم وأحبّها إلى الله.

تضحك بدلال، وقد أشرق ضياء الحبّ المفقود في عينيها العسليّتين. تميل إلى صدره مترنّحة، فيلتقطها من كتفيها، ويضمّها، ويسند ذقنه إلى رأسها، وأصابعه تتغلغل في موجات شعرها الغزير:

- لن أهديك زيجاً أو سهلاً في القمر، أنا أقلّ من ذلك يا نجوى، ربّما استطعت ان أهديك كتاباً باسمك، سأفعل ذلك قريباً!

أعتقد أنّها لا تفكّر بذلك كلّه، فتلك شكليّات لا تعنيها. كلّ ما تفكّر به هو هذه المسافة بين ذراعيه، وبإمكانيّة أن تحتلها لأطول وقت ممكن. إنّها يمكن أن تبادلها بمجرّة! لكن هل تحبّ أمّي أن تأوي إلى حضن نيكولاس بنفس الطريقة التي أحبّ أن آوي فيها إلى حضن عبّود، أم أنّ الكبار لديهم رغبات مختلفة، وأنّهم تجاوزوا تلك المشاعر؟ أعتقد أنّني كلّما فكّرت بعبّود سيعاقبني الله بأن يجعل أمّي تفكّر بنيكولاس!

هدأت أمّي كثيراً بعد انشغالها بعملها الجديد. لم تعد تتكلّم على أبي بسوء، بل لم تعد تأتي على ذكره، وكأنّه ليس في الوجود. عاد اهتمامها بنفسها، برياضتها وطعامها ومجلاّتها، وصارت تمرّ على محلّ قطع تبديل السيّارات بانتظام وتطمئنّ على التجارة، وعلى أملاكها من جدّي، وتصرف بسخائها القديم على ملابسنا وعلى صيانة بيتنا الذي هجرناه تقريباً، إلاّ وقت النوم، وصرنا نقضي معظم وقتنا في بيت جدّتي على الرصيف المقابل. تمكّنت نجوى بجبروتها وبمساعدة نيكولاس من أن تتجاهل أنّها متروكة من قبل أخوين، وصار اعتدادها بنفسها أضعاف ما كان عليه، وأقرب إلى جنون العظمة وذلك بعد أن رسّمها الباحث الفلكيّ الألمانيّ كوكباً من كواكب السماء:

- الآن عرفت سبب تعلّق البتاني بهذا المكان، فقضى عمره يرصد فيه، لا من أجل أجسام السماء، بل من أجل كواكب تسير على الأرض! قد يكون وقع في غرام واحدة من جدّاتك، لها عيناك، وشعرك الأصهب!

أزاح بأصابعه الطويلة خصلات شعرها، صفّفها في اتجاهين، وهي تجلس على حافّة المقعد الخشبيّ الذي أخذ شكل أريكة، ظهرها جدار المقطورة، وعليها فرشة خضراء جديدة، لماذا لست بشعر أسود كما هنّ العربيّات غالباً!

- أمّي تركيّة.

- قد تكون من جدّات أبيك إذن؟

- ممكن، سيكون هذا قد حدث منذ مئات الأعوام. زمن طويل! لا أصدّق أنّ هؤلاء القوم عاشوا هنا، حيث نقف أنا وأنت!
- بل صدّقي، وصدّقي قوانين الكون التي تقول: ما يحدث مرّة، يحدث ثانية!
- بضعة أشهر وستمضي وتتركني. وستنسى.
- ستذهبين معي.
- نحن من عالمين مختلفين، خطّان متوازيان.
- أنتِ وأنا فضائيّان. في الفضاء كل شيء يتغيّر، ويمكن للخطوط المتوازية أن تتقاطع.

يتصرّف نيكولاس بالحقيقة العلميّة حسب هواه. لا يشوهها، لكنّه يغيّر طريقة تقديمها، فتكون أمامنا أنا وعبّود بمستوى يختلف عن ذاك الذي يخاطب به نجوى. إنّه يلعب بالأفكار كما يلعب بهلوان السيرك بالكرات الملوّنة، وأعتقد أنّ هذا ما يعنيه أستاذ الفهم الجماهيري للعلم!

سألته نجوى:

- لماذا جاء البتّاني إلى الرقّة؟ هل السماء هنا أصفى أم أقرب، أم أنّ النجوم فيها تتجمّع وتكثر!

أجاب بحياد، وهو يرتّب مجموعة دفاتر من ذات الخمسين ورقة، وبغلاف كرتوني عليه صورة الرئيس:

- جاء بسبب الأرض لا بسبب السماء!

- ماذا تعني؟
- تعالي. تعالي أنت أيضاً لولو!

فتح الدفتر ورسم لها خريطة صغيرة، خطّ بقلمه خطوطاً بين ثلاث نقاط، وصنع مثلّثاً.

- جاء بسبب هذا المثلث: الرقّة، وحرّان، والرها. هنا حيث جامعات العلم والترجمات، وحيث أقام السريان الذين برعوا في علوم الفلك والطبّ والترجمة.
- بقينا إلى وقت متأخر من الليل. جلسنا أمام المقطورة. بابها مفتوح، وينتشر منه ضوء شحيح مستمدّ من المصباح المدلّى من السقف.

قالت نجوى:

- السماء الليلة مجنونة، في حالة فوضى. لم أر النجوم أكثر من قبل، لا أستطيع تمييزها...
- هذه الفوضى الظاهرة باطنها نظام جبّار.

وأمسك بقلم رصاص وصار يرسم خطوطاً بين النقاط، ليمنح أشكالاً للمجموعات النجميّة، فظهر الأسد، وظهر التوأمان اللذان يشكّلان برج الجوزاء، وظهرت أربعة خطوط منكسرة متوالية هي برج الحمل...

أدلي بدلوي، فأقول لأستفزّهما:

- النجوم بثور على وجه السماء، قبيحة وتحتاج إلى علاج!

- يتجاهلاني! فتتابع أمّي:
- ماذا عن حياة البتّاني الشخصيّة؟ عائلته!
- لا نعرف عنها تفاصيل، لكن العلماء حين يقعون في الحبّ يستسلمون له ببراءة. يعيشونه، ولا يتكلّمون عليه كثيراً. يعدّونه سرّاً من أسرار الكون، عليهم الاقتراب منه قليلاً قليلاً، وفحصه بدقّة، ثمّ التمكّن منه. الكلام للشعراء!

أسأله بحدّة:

- وأنت، لماذا أتيت إلى هنا، أليس لديكم سماء؟!

يقول بجديّة مستفزّة إنّه جاء ليسمع ضجيج النجوم الذي أسر البتّاني، وليضع قدمه فوق خطواته المباركة، ويحلم أحلامه النديّة على شاطئ الفرات!

وأنا أقول بصوت أتعمد إيصاله من غير أن أنظر في وجه أحد:

- جئت لتخرب بيتنا!

تقول أمي: اذهبي لتلعبي يا لولو.. اذهبي!

تمنيت لو أذهب إلى الأبد فلا تراني. أن يعاقبها الله بفقدي حتّى تندم أو تعود عن ضلالها. تقول لي اذهبي! تظنني لا أفهم! تريد أن تختلي به، أن تكلّمه كلاماً سريّاً، أن تبكي على صدره وتشكو أبي، والزمان، والهجر والخيانة، وأن تلعب معه لعبة الملك والملكة!

* * *

قبل أن نغادر المقطورة بقليل تكون (شتيفاني) قد أقبلت، ومعها مساعدها (رودولف). شتيفاني رئيسة البعثة الأثريّة الألمانيّة التي تنقّب في تلّ البيعة منذ ثلاث سنوات. الجميع هنا يستأنس بها، وليس نيكولاس فحسب. صرنا نعدّها رسولة توتول، المدينة الرومانيّة التي قامت في هذا المكان منذ الألف الثالث قبل الميلاد. نسألها عن ناس الزمان الماضي، وعاداتهم، وبيوتهم وكأنّها واحدة منهم، وقد تسلّلت من قبر من هذه القبور وانضمّت إلينا، وهي دائماً تحمل لنا إجابات ترضي جذورنا واعتزازنا بالمكان الذي نشأنا فيه! صارت شتيفاني صديقة لأمّي ولجدّتي وللجيران. تقضي يوم الجمعة في الحارة، تلبّي دعوات الأهالي على الغداء أو العشاء، وتلتهم طعامهم بتلذّذ وانشراح مهما كان بسيطاً، وهي لم ترفض دعوة أحد. الجميع ينادونها بالعاجوز، وينادون رودولف بالشايب. هي كبيرة في السنّ لكنّ شكلها يمنحها سنوات زائدة. شعرها الأشيب يبلغ كتفيها، وجلدها مجعّد، وشمس الرقّة اللاذعة تركت عليه بصمتها فصار لونها بنيّاً محمرّاً. رودولف صار يشبهها أيضاً، كأنّهما أخوان! طويلة وعظامها كبيرة، لكنّ لحمها قليل، ولعلّها امتلأت بحوالي ثلاثة كيلوغرامات إلى أربعة بسبب أكل الكباب والكبدة والكشك. تربط على رقبتها (فولار) ملوّناً وأحياناً هبريّة من هباري الحرير التي تلفّها نساء الرقّة على الرأس. أنيقة دائماً، ببنطلون من القطن، وقميص أبيض أو أزرق، ولساعتها سير

جلديّ بنيّ عريض، وعليها أرقام لاتينيّة سوداء واضحة على المينا البيضاء، ونظارتها الطبيّة تحمل فوق عدستيها عدستين شمسيّتين. حفظت الكثير من المفردات المحليّة: (يوال) أي يا ولد، (جايف)، (شين)، (كهوجي) أي قهوجي، (بابا حسن) أي أزعر...، الجميع هنا يودّها، وحينما يصادفها الأطفال في الشارع يحيّونها بندائهم: هاي هتلر، مادّين سواعدهم بالتحيّة النازيّة. تجلس في المساءات مع نيكولاس وتكلّمه غالباً بالألمانيّة، وحين يتحلّق حولها الموجودون من شباب المنطقة وفتيتها وبناتها الذين هم في مثل عمري غالباً، تبدأ الكلام بالعربيّة، ويردّد البعض كلماتها المحرّفة ضاحكين: (تيني تاسة شنينة)، أي أعطني طاسة شنينة!

لا تتأتّى سلطة شتيفاني من كونها رسولة توتول فحسب، أو أنّها تعيش وفريقها في قصر الضيافة التابع للحكومة، بل كنّا نراها صاحبة القرار في الدخول إلى الماضي المكنون في كلّ واحد منّا، والمتمثّل في المنطقة المحدّدة بالشرائط الصفراء التي تشير إلى أنّها منطقة ممنوعة، حيث حُفرت حفرة مربّعة كبيرة يتمّ فيها التنقيب عن مدينة قديمة، وثمّة لافتات معدنيّة كتب عليها ممنوع الاقتراب وممنوع التصوير.

تشير شتيفاني باتجاه الشرق إلى باب بغداد، تقول: هذا هو الباب الرسميّ الذي يمتدّ منه طريق بريّ إلى بغداد، ومنه يدخل الخليفة ويخرج. يدلّ على ذلك تصميمه المعماريّ المميّز وكثرة

زخارفه، وقد وجدت عليه كتابة تقول: "أمـر بعمارتـه أمـير المؤمنين هارون الرشيد - أطال الله بقاءه- بتولّي الفضل بن ربيع مولاه". وإلى الشمال باب الرها الذي يقود إلى الرها وحرّان في تركيّا. وإلى الغرب باب الجنان الذي يقود إلى بسـاتين الرقّـة الشهيرة بخضرتها وروائها وخمورها النفيسة. أمّا مـن الجنـوب فهناك الفرات، حيث لا يصل عدوّ أو حبيـب إلى المدينـة إلاّ بعبوره. تتابع شتيفاني: هنا أيضاً عُثر على كـأس الإمبراطـور الرومانيّ شارلمان، والذي كان صديقاً للرشيد، وتبـادل معـه الهدايا، وهو مدفون في مدينتي آخن في ألمانيـا، في الكاثدرائيّـة المعروفة هناك بكاتدرائيّة الإمبراطور.

تقول أيضا: تعلّق الرشيد بنهري الهنيء والمريء، وشـجّعه على ذلك أخوه الهادي الذي أراد منح الولاية لابنـه جعفـر، فقال الرشيد: "إذا حصلتُ على الهنيء والمريء، وخلوت بابنـة عمّي زبيدة، فلا أريد شيئاً.". لكنّ مستشاره يحيى بـن خالـد البرمكي قال: وأين هذا من الخلافة؟! فاقتنع وتمسّك بحقّه فيهـا بعد الهادي.

أذهب مع شتيفاني ورودولف باتجاه الحارة، أحبّ أن أمشي معهما وأسمع أحاديثهما. تبقى أمي بعدي بساعة أو اثنتين لتتابع عملها، كما تقول. تقلّ نيكولاس بالسيّارة بعد أن يكون قـد امتلأ نشوة بحكايات شتيفاني عن الخلفاء والأباطرة والأطبـاق والكؤوس... ينظر باتجاه المقابر، وتمتد أمامه أضواء الفرات حيث

تتهادى العبّارات المضاءة التي عشقها الرشيد يوماً، وسميت بالحرّاقات. تنعكس أضواؤها على وجه الماء، فيملأ رئتيه بالهواء ويهمس: رائحة الحياة الطازجة، رائحة الخلود، لن نسمح لهذا الجمال أن يذوي! كيف سنمضي ونتركه! ثمّ يبكي... وتبكي نجوى في حضنه... هل صارت حساسة تجاه الجمال والتاريخ لهذه الدرجة؟ هل الحب يعدي، ويعلم، ويربّي، ويجعلنا نتماهى مع أحبّتنا، ونتكوّن من جديد؟ أم أنها تبكي على الزمن الذي انسكب في إناء خطأ، فأورثها الحرمان والانكسار! يضمّها إلى صدره ويقول: هذا الكون سيخمد ويموت، مثلما تَفقِدُ الكرة القافزة طاقتها وتستكين حركتها، فلنؤخّر ذلك يا نجوى، فلنؤخّر ذلك! ونجوى تسهم بقبلاتها الحارة في عمليّة تأخير نفاد الكون، تمسّد شعره المنساب إلى الخلف، وتمرّر أصابعها على شاربيه الرفيعين ولحيته الطويلة، فتنشبك شعراته بأظافرها المدرّمة بعناية والمطليّة بالأبيض اللامع، الأظافر ذاتها التي تحكّ بها جلدة رأسي في الحمّام حتّى تكاد تكشطها، ثمّ تأخذ رأسه إلى صدرها، لتستقرّ شفتاه بين نهديها حيث تكون قد تخمّرت رائحة خشب الصندل، والعنبر، والخوخ، المكوّنة لعطر (أوبيوم) إيف سان لوران، الذي كانت تستعمله في ذلك الوقت، وأكون أنا قد صرت النجم المحتضر الذي انهار قلبه وتحوّل إلى سديم.

* * *

يزحف هواء الشمال ليحتلّ فضاء المدينة مع بداية أيلـــول، فينكسر جبروت الشمس وتكثّف الغيوم البيضاء حضورها فوق رؤوسنا، ووجه النهر يتجعّد بمويجات تترى، ويبدأ ذوو الأنوف الحسّاسة يشمّون رائحة التراب ويخبرون بقدوم المطـــر. طلبـــة المدارس يعرفون جيّداً سبب الكآبة التي يحملها أيلول، إنّها ليست في اصفرار أوراق الشجر أو احتجاب الشمس، بل بسبب العودة إلى سجن البيت، والمدرسة، والنوم بمواعيد، إذ تصـــير الحـــارة حزينة، حتّى العصافير تصمت وكأنّها نسيت أناشيد الصيف.

يجلس نيكولاس ليشرب القهوة في حديقة جدّتي في صباح خجول. يرتـــدي جاكيـــت مـــن الكتّـــان الكحلـــيّ فـــوق الـــ (تيشيرت) الأبيض والبنطلون الرماديّ، يلقـــي برأســـه إلى الوراء، ويسرّح شعره بكفّه وهو ينزلق بجذعه على المقعد ويردّد كلمات كأنّها قصيدة. تجلس نجوى على كرسيّ مقابل، تشـــيح عنه بوجهها وتنظر إلى شجرة الليمون التي بدأت تتخلّـــى عـــن أوراقها الشاحبة. عيناها جلاهما الدمع فأكسبهما براءة فريـــدة. هو أيضاً كان كئيباً، لم أره على مثل تلك الحال من قبل. يلاحق حركاتها وسكناتها بعينين مثقلتين بالمـــاء. أدهشـــتني ملامحـــه، ووجدت الدموع في عيون الرجال جميلة! راح يترجم لها سطوراً من قصيدة أمّه عن أيلول، ثمّ يمسّد صدغيه بأصابعه الطويلة التي أحرقها لهيب الصيف، كأنّه يحرّك فيهما الدماء:

يمضي قطار الصيف نحو أيلول،

أمشي، فلا أقابله

وحيدةً أكنس رصيف المحطّة

وألوّح بيد مكسورة للعابرين!

توقّف قليلاً، واحمل معي نصف بهجة

ونصف انطفاء!

إنْ لم يعلّمك أيلول الحبّ،

فلتلملم العجائز أطباق التين عن السطوح.

إن لم يعلّمك أيلول الحبّ،

فلنقم الليلة جنّازاً مهيباً لهذي الحكاية!

كان نيكولاس يلملم أشياءه استعداداً للعودة إلى ألمانيا. أعاد المقطورة إلى أصحابها، وترك لنا نسخاً من الصور التي جمعتنا، وأهداني التلسكوب الصغير بعد أن استسمح صديقه في دمشق بذلك. لم أكن سعيدة بقرار عودته كما كان من المتوقّع، فما حدث قد حدث، ولن يمحى برحيله.

عانقني وقت الوداع، فشعرت بألفة تنسحب من قلبي وتترك محلّها غصّة. لا أعرف ما الذي اتفق عليه مع أمي، لكنها لم تكتم دموعها. جدّتي لم تسألها شيئاً أو تواسيها، فهي أعرف بما بها! لقد وجدت في نيكولاس أخاها الغائب الأبديّ، والرجلين اللذين غادراها. جدّتي أيضاً كانت حزينة لرحيله، إذ أعاد إلى بيتها أُنس الرجولة الغابرة، وكذلك العمّة مارية، والعمّة صافية، وأهل الحارة جميعاً.

ودّعوه إلى ساحة الكرنك، شركة النقل الوحيدة في المدينة، وأصرّ عبّود على أن يساعدهم في حمل أمتعته. سيذهب إلى دمشق ومنها إلى فرانكفورت.

عادت ماما ساهمة وغير مبالية، و لم تعد تقرأ أو تصبغ شعرها، وسمحت لوزنها أن يزداد قليلاً. صرنا كائنين مصابين بالفراغ، وتعادلنا مجدّداً في أحزاننا! بعدها بأسبوعين تقريباً، ارتكبنا أنا وعبّود فعلتنا الآثمة إذ أزهقنا روح جدّتي الطاهرة، فدخلتُ مرحلة الصراع مع خطاياي، والتي امتدّت ظلالها إلى اليوم. تمنّيت وقتها لو استعادت أمّي نيكولاس، فيخفّف من حزنها، ويحرّرني من بعض عذاب ضميري تجاهها، لكنّه لم يعد بعد ذلك، وهي بدورها دخلت سريعاً مزاج سنّ اليأس حتّى أدركته بيولوجيّاً، وكأنّها ودّعت برحيل نيكولاس مباهج الروح والجسد إلى الأبد. مكتبة

يوم التفّاحة

كان العالم يحتفل بتدوير أفلام رائعة في دور السينما تلك السنة: (لا دوليتشي فيتا) لفلليني، و(سبارتاكوس) لكوبريك، و(إلى الشمال نحو ألاسكا) لهنري هاثاواي، و(إشاعة حبّ) لفطين عبد الوهاب، في عروض تَرَكَ تفويتها لدى كرمة تذمّراً وحسرة، لكن بددهّا تلك الليلة الشتائيّة التي ولد فيها خالي نجيب، على يد (ترفندة) الأرمنيّة القابلة الوحيدة داخل سور المدينة.

كانت ترفندة قد دخلت سكرة حلوة مع الدكتور جورج. إنّها ليلة الميلاد، وهما وحيدان. امرأة خمسينيّة عزباء وقبيحة، ورجل ستينيّ قضى حياته معلّقاً في أفواه المرضى، يركّب الجسور والتلبيسات المعدنيّة الرخيصة، ويخلع الأضراس المرهقة للقرويين الذين لا يفكّر أحدهم بزيارته إلا بعد أن يكون قد استنفد طاقته في تحمّل الألم أو العلاج الذاتيّ. تفوح من الدكتور جورج رائحة البنج في كلّ الأوقات، حتّى في الأعياد. سافرت زوجته مع ولديها إلى أميركا حيث يتابعان دراساتهما، وهو ما زال يعمل هنا، ليرسل لهما مصاريفهما التي لا تنتهي، في عيادته الصغيرة، التي يفيض زبائنها عن عدد المقاعد المتوافرة، فيفترشون الأرض، ومن لم يجد موقعاً في الداخل، سيجلس على درج العمارة العتيقة منتظراً دوره، لتدعوه ترفندة بصوتها الجهوريّ الآمر مثل من يتلو

الفرمانات السلطانيّة. ترفندة ممرّضة مشتركة بين العيادتين المتقابلتين، عيادة الدكتور خليل طبيب النساء، وعيادة الدكتور جورج. كان جدّي الآغا مرتبكاً جدّاً حين بدأ ماء الرأس يتدفّق من رحم جدّتي. جرّ ترفندة السكرى من شعرها ووضعها تحت حنفيّة الماء، لتصحو، وكانت بدورها تشتمه، وتدعو عليه وعلى جدّتي بزوال العافية خلال الدقائق الثلاث التي مشت فيها معه من بيتها إلى بيته. لكن حين أطلّ خالي برأسه على العالم، بكت من شدة حسنه، وقالت لجدّتي لقد ولدت لنا مسيحاً جديداً، سمّيه عيسى! جدّتي كانت قد اختارت الاسم منذ زمن، فوضعت في رقبة خالي قلادة ذهبيّة تحمل صورة مارجرجس على حصانه، وبيده رمحه يصارع به التنين، وقالت: هو شفيعي وشفيع بيت لحم، وهو شفيعك في الأرض والسماء يا نجيب! ظلّت القلادة في عنق خالي دائماً، واعتقد كلّ من رآها أنّه مسيحيّ، كما ظلّت ترفندة تنادي خالي نجيب بعيسى حتّى وفاتها، وكان خالي دائماً يدللها، ويحضر لها صندويشات الكبدة والكباب مع العرق، ويسامرها على كأس واثنتين وثلاث، وصار ونيسها الأوحد تقريباً بعد أن سافر الدكتور جورج إلى أميركا، ولم يعد. لقد كان لخالي نجيب من ترفندة النبوءة الحقّة، إذ وهِب من المسيح عذاباته وفداءه!

نشأ خالي نجيب محبوباً، ودمثاً، وجادّاً في الوقت ذاته. أوّل صورة أتذكّرها له كان فيها طالباً جامعيّاً. لم أكن أسمع الكثير

عن حكاياته الأولى من أمّي أو جدّتي، حتّى إنّني اعتقدت أنّه بدأ حياته شاباً ناضجاً بلا طفولة، ولم تكن الصورة الموجودة بالأبيض والأسود تحت زجاج التواليت في غرفة جدّتي تحيلني عليه، فهي لطفل يلبس أفرول منسوجاً من الصوف، وفي عنقه سلسال من الذهب تتدلّى منه تعليقة مار جرجس! له صورة أخرى مع أمّي تحت زجاج التواليت الخاصّ بها، وهما على شاطئ بحر آلانيا التركيّة، يلعبان بالرفش والسطل. هو بشورت ومامـا بمايوه. جسدان صغيران بشعر كثيف، وملامح أنيقة، لكنّني أيضاً لا أستطيع أن أربط الشخصين اللذين في الصورة بهما. في الصور يبدو الأشخاص أكثر سعادة وترفاً، بحيث توحي لقطات المتعة المختلسة أنّ الناس دائماً أسعد في ماضيهم. كل ما يقال عن نجيب إنّ فيه ذكاءً غريباً! إنّه يحقّق أهدافه بصمت، وبعشوائيّة مدروسة، مثل سهم نجهل مساره، لكنّه لا يخيب أبداً. كلّ من في الحارة يشعر بأنّ نجيب سند له، وأنّه لن يخذله على الإطلاق.

كان كثير القراءة. لديه مكتبة غنيّة، ويتابع نشرات الأخبار في موعدها، ويتردّد على أكثر من محطّة إذاعيّة، من لندن والقاهرة ودمشق. يجلس مع أصحابه الخمسة أو الستّة على البلكون الواسع المطلّ على باحة الحارة الرئيسة. يتحدّثون في شؤون السياسة، وتنضمّ إليهم جدّتي وصويحباتها وقد سطا عليهنّ سحر الشباب وقوّته، فيسهرون جميعاً حتّى الفجر، إذ يحضّر خالي مع أصدقائه عشاء بيتيّاً: جبنة ولبنة وبيض مقليّ ومكدوس، أو

يشترون من السوق القريب اللحم المشويّ أو الفرّوج، يكرمون به العجائز السبعينيّات المضطجعات على الأرائك الصيفيّة مثل سلطانات مهجورات، مقابل سماع حكاياهنّ الليليّة الفاحشة، حينما كانت كلّ منهنّ قادرة على أن تقول للسطان: قم، فيقوم!

تصرّ جدّتي دائماً على أن تقدّم للجميع عصائرها الشهيرة، عصير الخوخ، أو الدرّاق، أو المشمش، أو الليمون... كانت جدّتي تعصر أي شيء يتوافر في البيت، وتبرّده في الثلاّجة ليجمد، ثمّ تقدّمه في أكوابها البوهيميّة الثمينة، وتضع على سطح الكوب ورقة نعناع أو ريحان، فتبدو وكأنك تشرب في فندق خمس نجوم. تقدّم العصير في كؤوس الكريستال حتّى للزبّال، وتقول: سنموت ونترك كلّ شيء وراءنا! وحين كانت تنقطع الكهرباء لفترات طويلة في الثمانينيّات كان خالي يذهب مع صاحبه مجدي بالشيفروليه الكامينو ذات الظهر المفتوح إلى مصنع الثلج الذي تملكه عائلة مجدي، ويحضران قوالب الثلج، من على بعد شارعين من الحارة. يكسرانه في أرض الحمّام، يغسلانه، ويوزّعانه في السطول، ويكون الماء دائماً بارداً جدّاً. يضعان قطع ثلج في ظهور بعضهما البعض، وتقرّعهما جدّتي لأنّهما بللا الأرض. كان خالي وصحبه ينظّفون لجدّتي البيت، ويعزّلون الأسقف والجدران في إجازاهم الصيفيّة، ويغسلون لها السجّاد في المواسم، وكانت أيضا تستعملهم في طلاء الغرف التي تريد تجديدها. في الشتاء يفترشون سجّادة غرفة الجلوس، ويلعبون (البرجيس) على

رهن ما، عادة ما يكون مشاوي، فينقسمون فريقين، ويبدأ رمي الودع: دست، وبنج، ودُوَا، وبارة وراها خسارة، وشكّة وراءها فكّة، ويتصايحون، ويتّهم بعضهم بعضاً بالغش، وتحرد جدّتي، فتطوي الرقعة المخمليّة السوداء على أحجارها النحاسيّة التي تسقط على أحجار الخصوم، ويرنّ المعدن مع صيحات الاحتجاج من اللاعبين، ويبقى جزء من الرقعة مفتوحاً، مطرّزاً عليه بخيط أخضر (أنت عمري) أو (رباعيّات الخيّام). ترتسم صورة الشتاء في الحارة بالبرجيس مع القهوة بالحليب، وذلك قبل المطر ومواسم القمح السخيّة، والشوارع المتكسّرة المليئة ببرك الماء الموحلة، والتي بسببها تصطف الأحذية أمام كل بيت، إذ تكون الخطيئة التي لا تغتفر هي دَوس السجّاد بحذاء! وعلى الرغم من حميميّة شتاءاتنا وألفتها تبقى الرقّة مدينة الصيف، ويبقى نجيب العجيب رجل البهجة ليس في البيت فحسب، بل في الحارة وأزقّتها المتداخلة مثل المتاهة، والتي لا يفكّ لغزها سوى أهلها.

يحبّ خالي السباحة في الفرات، وبسبب إهمال الدولة للمرافق العامّة، وتجاهلها لتطلّعات المواطنين الترفيهيّة البسيطة، فقد أنشأ وصحبه (بلاج) خاصّاً بهم. اختاروا رصيفاً تحت الجسر على الماء مباشرة، واشتروا من حلب مقاعد من تلك التي يستلقي عليها الناس على الشاطئ. كلّ منهم اختار لوناً لفراش مقعده، وكانوا يحملون مناشفهم، وكريمات الشمس، وبعض الفاكهة: كرز ومشمش وتين مع الجبن، يضعونها في سلال القش، ويمضون

بسيّارة الكامينو إلى الكشك الخشبيّ المتنقّل الذي صنّعوه، فجاء أوسع من أكشاك الحرّاس على أبواب بيوت المسؤولين. يقضون الصيف هناك، إذ يذهبون يوميّاً، وأحياناً ينامون على الشاطئ، فننضمّ إليهم ليلاً أنا وأمّي وجدّتي وجدّي وربّما أبي. وقد نذهب في ظهيرة رمضاء لا يحتمل حرّها، حيث يسكن الهواء، فتشعر أنّ هموم البشر تكوّرت وحطّت على صدر المدينة. أمّا هناك عند الفرات على بعد خمسة كيلومترات فقط من الحارة سينفسح المجال لنسمة تهبّ بكرم، فنصيح صيحة واحدة: الله! ونتخيّل باب الفردوس وقد انفتح أحد مصراعيه.

كان لخالي دائماً ذلك اللون الأسمر الذي تتركه الشمس على الأجساد البيضاء. لون لا يزول أبداً. يدعونا لتناول السمك المشويّ البوري أو الجرّي، الذي يشتريه من الصيّادين الواقفين على الجسر. يريني السمكات موضوعة في سطل معدنيّ، وهي ما تزال تبلبط في الماء، فأتلمّس بأصابعي حراشفها المبلّلة الجارحة. يأتي الشوّاء من المقصف المجاور، يتناول السطل، ويلحق به كمال صديق خالي، ليشرف على غسيل السمكات، وتتبيلها بالكمون والكزبرة وزيت الزيتون والملح، ثمّ تشوى على الفحم، وتُقدَّم مع بطاطا مقليّة، ومتبّل وسلطة موسميّة، وتفوح رائحة البيرة في الهواء، لتمتزج برائحة الماء، وقصب الزلّ، وروث الحيوانات، والشمس التي تضرب الحصى، فتهيّج شهوة الرجال والنساء، وتجدهم دائماً فائرين. أنفاسهم حارّة، وكلامهم ملغز،

وأجسادهم دبقة. إنّهم يصنعون رائحة المدينة التي هي مزيج من ذلك كلّه. يرفع جدّي كأسه عالياً، ويشرب نخب الصيف والفرات، ويُسمح لي وقتها بأكثر من زجاجة سينالكو كولا، في حين تفضّل كلّ من أمّي وجدّتي السفن أب.

يقول لي خالي: هيّا تعالي لنصطاد البطيخة من الماء! لقد اعتقدت لردح من الزمن أنّنا نصطاد البطيخ الأحمر من الفرات! إذ يكون خالي قد وضع البطيخة لتبرد. يمسك بيدي، ويجعلني أدحرجها باتجاه الشاطئ، ويقول: احذري أن يسحبك التيّار! في الليل يكون المدّ قد ابتدأ، لأنّ عنفات السدّ تُفتح، فيعلو الماء، ويبدأ فجأة يغمر سنتيمترات من أرجل الكراسي التي وضعناها فوق الحصى، فتتحرّك. أسرع لأجلس على كرسي القشّ الصغير، وأغمر قدميّ إلى منتصف الساق بالماء البارد. ماء في منتهى العذوبة والنظافة، له رائحة الشمس والخضرة التي خزّنها طوال النهار، ليصنع منها عطر الليل، الذي لن يكون إلاّ في الرقّة. نرجع إلى الحارة ونترك الشباب ينامون تحت سقف من سعف وقصب. تحذّرهم جدّتي من سطوة الماء، وتقول إنّها تعرف بأنّهم يأتون ببنات إلى الكشك الخشبيّ، وأنّهم سيتسبّبون بفضيحة رنّانة. أحبّ أن أسمع هذا المقطع تحديداً، فأشنّف أذنيّ علّي أقترب من عالمهم السريّ، فأكشف خبايا شبابهم الأخّاذ المعزّز بأجسادهم السمراء القويّة، وصدورهم العارية الشعورة، وطيّات بطونهم اللطيفة، وسلاسل الذهب المعلّقة في رقابهم،

وعضلات سيقانهم المشدودة البادية من الشـــورتات البيضـــاء، وبارفاناهم القويّة الفوّاحة.

كان خالي نجيب وصحبه يرمون أنفسهم من أعلى الجسر، فتتوقّف السيارات على الطريق العام ليتفرّج راكبوهـــا علـــيهم، ويجتمع السيّاح الذين يصادف مرورهم ليتابعوا ويشجّعوا مـــع الأطفال الذين تعلو صيحاتهم. ثمّة صورة فوتوغرافيّة لنجيب وهو (يشكّ سبّول)، أي يقفز في الماء على رأسه، التقطها أحـــد مـــا بكاميرا ماما الـــ (نيكون) اليابانيّة: أنا أحملق، وأمي تضع يديها على أذنيها، وجدّي يخفي وجهه بكفّيه، وجدّتي تتابع بحمـــاس وتصفّق. كانت جدّتي في كل مرة يرمون فيها أنفسهم من الجسر تردّد لازمتها: كان الأولاد يرمون أنفسهم هكذا في البحر مـــن سور عكّا!

كنت أحبّ كفّي كمال، له أصابع عجيبة! خنصره معوجّة، إذ نتأ المفصل عن استقامته. أمسكه وأسأل عن ســـبب ذلـــك الاعوجاج، فيقول هو كسر قديم ولم يجبّره. يمكنـــه طـــيّ رأس السبّابة من عند المفصل الأوّل كمظلّة، ويبقى الإصبع مشدوداً، يحرّكه في وجهي فيضحكني، وأضع يدي في يده كلما ســـنحت لي الفرصة. رفاق خالي يمزحون معي دائماً. يقول مجدي: هـــل تقبلين بـــي خطيباً يا لولو؟ فأكشّر في وجهه، وأديـــر رأســـي، وأبتسم وحدي، وأفكّر طول الليل كيف ســـأكون خطيبتـــه! سنخرج معاً، ونتبادل القبل، ونذهب في أسفار طويلة، وأيـــدينا

متشابكة، في طائرات ومراكب... وأفكّر كيف سنتخلّص من هالة التي نعرف جميعاً أنّه على علاقة غراميّة بها. أتخيّل أنّها ستخونه فيتركها، أو ربّما ستموت، ثمّ أتخيّل أننا أصبحنا عائلة ولنا أطفال... في الصباح أعود إلى عالمي، أطرق باب دار عبّود، ونجلس معاً كما نفعل كلّ يوم، لكنّني أكون قد نضجت درجة، ويكون عبّود قد صار أصغر منّي، فالمراحل التي نقطعها في الخيال، تسجّل لنا في الواقع.

حين تقدّم مجدي لخطبة هالة، أصرّ أهل العروس على دعوته إلى الغداء في بيتهم. وقبل أن يضعوا الطعام أمامه، جاءت أختها بخرقة لتمسح بها الطاولة، وكانت الخرقة سروالاً قطنيّاً نسائيّاً خرج من الخدمة. حين رآه مجدي رفض تناول الغداء، وخرج من بيتهم مشمئزّاً، وأعرض عن موضوع الخطبة. اشتكته هالة لجدّتي التي حاولت أن تغيّر رأيه، وقالت له إنّ كثيراً من الناس يفعلون ذلك لأنّ قطن السراويل يكون صافياً وأصلح لأغراض التنظيف، وقلنا له: لا بدّ من أنّهم غسلوه جيّداً قبلِ الاستعمال، لكنّه ركب رأسه وألغى موضوع الارتباط، ولم تتزوّج هالة بعده أحداً.

لم يتزوّج كمال أيضاً، ولم أعد أراه منذ وقت طويل، وحين كنت في سنتي الجامعيّة الثالثة في حلب، فاجأني بعد إحدى المحاضرات، إذ وجدته على باب المدرّج، أنيقاً بلحية خفيفة وزيّ غير رسميّ، يحاول فيه أن يطمس فرق السنوات الكثيرة بينه وبين

الطلبة الذين زجّ نفسه في وسطهم. جلسنا في حديقة الكلّيّة، ولم يكن لديّ كثير شكّ في سبب قدومه. حكى كلّ ما لديه بسرعة، وبوضوح، ويبدو أنّه كان على وعي بمسألة قطار الزواج الذي يريد اللحاق به في محطّاته الأخيرة، وهكذا قال إنّه سيخطبني من أمي. أنا أحببت ذلك كثيراً، أحببت أن أكون معه! إنّ بيننا تاريخاً سيوفّر عليّ شروحاً طويلة لحلو أيّامنا ومرّها. سأستعيد معه عبثي الطفوليّ، وسيقدّر حرماني وأشواقي العتيقة لشبابه الذي بدأ يذوي. كان مديراً لفرع بنك التسليف الشعبيّ، وكان يحمل ذلك الحزن الذي تراه يتسلّل من بين طيّات الجلد الرقيقة حول عيون جيل الستينيّات، وكان أيضاً يوافق على منح قروض مستعجلة، أو مبالغ عالية القيمة، ويحصل مقابل ذلك على نسبة لحسابه الشخصيّ. لم أر ذلك في عينيه ولا على يديه، إذ كان نظيفاً جدّاً وواضح الملامح مثلما عرفته. طلبت إليه أن يحرّك إصبعه كما كان يفعل دائماً، أن يطوي مفصل السبّابة الأعلى مثل مظلّة، ففعل، وانهرت أنا بالبكاء، احتضنت ذلك الإصبع بكفّي، وصار يمسح دموعي بيده الأخرى. ثمّ ذهبنا وذراعي في ذراعه، وتناولنا البيرغر في مطعم على رصيف في حيّ المحافظة، قريباً من الجامعة، قلت له: ماما ستذبحني لو علمت بأنّنا معاً، وكان يقول: سأكلّمها، هيّا وافقي يا لولو، أعطيني وعداً، فأعطيته، وكأنّه طلب منّي أن أطعمه من شطيرة بيدي أو أن أمنحه حبّة من كيس سكاكري! حكيت لأمّي عندما عدت،

فانهالت عليّ بالصراخ واللعنات، ونعتتني بقلّة التربية، وكانت هذه شتيمتها المفضّلة لي، والتي أقول في نفسي دائماً إنّها ترجع إليها! قالت إنّ كمال (ختيار) ومرتشٍ، وقالت إنّها ستذبحني إن تواصلت معه ثانية، وقالت: ستسافرين بعيداً، وفارسك ليس في هذه البلاد. وبعد أن هدأت طلبت أن أعدها بأن ينتهي هذا الموضوع هنا، فوعدتها، وفعلاً بررت بوعدي. في خروجنا الأخير من الرقّة بسبب المواجهات بين داعش وقسد، رافقنا كمال، وكان يساعد كبار السنّ في قضاء حوائجهم، وهو الذي نقل العمّة أم رياض على موتور، وسقاني أنا وماما الماء، وبقي معنا حتّى انتشرنا في أرض الله الواسعة.

كان ناهل، الصديق الآخر لخالي نجيب، متزوّجاً، وكان أكثر أولئك الأصحاب خبرة في الحياة ومكابداتها على الرغم من أنّه أصغرهم. لديه بنت اسمها هند تصغرني بأعوام. يطعمها، ويهتمّ بها أكثر ممّا تفعل أمّها، ويحكي لها كل يوم حكاية لتأكل صحنها كاملاً، إذ كانت تلهو وتضحك ولا تكمل صحنها، في حين كنت أنا التي أستمع إلى الحكايات، وألتهم ما في صحني وأطلب المزيد. يحكي ناهل لهند كل يوم الحكاية ذاتها، لكنّ الطبخة تكون مختلفة عن طبخة اليوم السابق، فحينما يكون الطبق بامية يقول: "عندما كان كسرى عظيم الفرس يزور هرقل عظيم الروم، يطلب منه أكلة بامية، فتستنفر مطابخ هرقل، وتقام الأفراح، وتصدح الزغاريد، وتقبل عربة يجرّها أربعون حصاناً

محمّلة بقدور من الذهب يكسوها الزمرّد والألماس، ويهتف الجنود والجواري: بامية، بامية، بامية...

ويوم يكون الطبق ملوخيّة يتحوّل الهتاف كما يدّعي ناهل وهو يطعم هند إلى: ملوخيّة، ملوخيّة، ملوخيّة...

أحبّ ناهل قريبة له، وتزوجها وهما ما زالا في الثانويّة. كان وحيد أهله الأثرياء، الذين يمتلكون محلاّت لبيع أطقم الحمّامات ومعدّاتها. فوجئ أهل البلد بهذا الزواج المبكّر وكانوا يقولون: زوجان في هذا العمر، سيفترسان بعضهما البعض لا شكّ. رحت إلى العرس في بيت أهله. كانت العروس بثوبها الأبيض النفّاش، عارية الأكتاف. وقفت ألمّ ثوبها وأحتك به، وأحاول أن ألمس جسدها المرفوع على مصطبة. كانت سعيدة جدًّا، ترقص بهدوء، وتنتظر، وكان هو في الغرفة المجاورة للحوش حيث الاحتفال. أطللت عليه، فوجدّته يقصّ أظافره. قلت لجدّتي إنّني رأيت العريس، وما يزال يقصّ أظافره، فغمزت العمّة مارية: كي لا يخرمشها! فأسرتني عبارتها، وظللت أحلّلها بخيالي وأنا أسمع صوت الزفّة. حين كانت هند في الصفّ الأوّل الابتدائيّ اعتقل ناهل بسبب انتمائه إلى تيّار معارض في الحزب الشيوعيّ.

كان لهند شعر أسود طويل تضفّره في جديلتين. حنطيّة البشرة، وعيناها صغيرتان ضيّقتان، وشديدتا الجاذبيّة. ضحكتها صافية وكذلك دمعتها التي تنحدر على خدّها حين يغبنها أحد في اللعب. تراسيمها ناعمة مثل أرنب وليد. تأتي أبكر من جميع

زملائها كلّ صباح إلى حيث نجتمع قبل التوجّه إلى المدرسة، في الشارع الخلفيّ. تجلس إلى الرصيف وتنتظرهم بصدريّتها البيج، والفولار والسيدارة، والريبانتين البيضاوين أو الحمراوين. تقف عريفة لإحدى الفرق المصطفّة، وهي التي تقوم بتنشيطها. بعدها يجتمع الرفاق، فتسألهم وهي لا تنتظر جواباً بالطبع: لماذا تأخّرتم! وتبدأ موجة الأناشيد الوطنيّة في مديح الوطن، والحزب وميلاده، والقائد، والطلائع:

للبعث يا طلائع.. للنصر يا طلائع.. أقدامنا حقول، طريقنا مصانع...

لن يخطر مطلقاً لمن يشهد حماسها وانتفاخ أوداجها وهي تنشد النشيد بنغمه الصحيح، أنّ أباها واحد من المعتقلين المتّهمين بتهمة سياسيّة. والدها غائب منذ ثلاث سنوات، وهي تنشد للذين غيّبوه، وأنا أجدها طفلة جبّارة وهي تحمل كل هذا الحزن الذي يفرضه يتم مؤقّت، وربّما دائم. حزن يضيق عنه قلب هذه الصغيرة، ولا شكّ في أنّه سيتحوّل حقداً عارماً حينما ستكتشف حقيقة أنّها تنشد لوطن حرمها حضن والدها، ومن أجله تطلق حنجرها الصغيرة الهتافات: أمّة عربيّة واحدة، ذات رسالة خالدة!

لا شكّ أيضاً في أنّ أمّها تعبت كثيراً في البحث عن تهمة لا تضير الطفلة ولا تحمّلها وزر أبيها، وفي الوقت نفسه تمكّنها من العيش بسلام، بلا أحقاد أو ثارات يمكن أن تصنعها تلك الحقيقة المرّة التي تشير إلى خيانة أبيها، أو وقوعه تحت ظلم يجعلها نخلة

طازجة، لكن بلا جذور تسندها في التراب. كيف يمكنها ألا تحدّث أحداً منّا بألم الغياب، أو أن تبثّنا شوقها لأبيها، وآلام الغبن، وآلاماً أكبر منها في مديح الجلاّدين والغناء لبطولاتهم، وترتيل أمجادهم والتي يعد أحدها جعل هند بنتاً بلا أبّ! كيف تستطيع أمها أيضاً أن تدفع بها إلى هذه المحرقة الإنسانيّة، فتحتمل رؤيتها تغني للأعداء! إنّ الذين يظلموننا، ويأخذون منّا آباءنا هم أعداء بلا شك.

تأتي بقيّة الفرق، وتصطف في صفوف ثلاثة، وكذلك تكتمل فرق صفّي أنا، وتبدأ الصيحات، ويعلو التصفيق الموقّع المنتظم، والهتافات، وذلك بقيادتي حيث أكون عريفة الجميع. أقودهم مثل مايسترو يضبط حركة موسيقييه ويحكم فوضاها، أو ضابط يتحكّم بزخم جنوده ويحركهم كأحجار الشطرنج على رقعة. فرقتنا هي الأنشط، والأعلى صوتاً، والأكثر انسجاماً، والأوضح إيقاعاً. هذا كلّه يستفزّ جدّتي التي يكون تجمّعنا وهتافنا تحت نافذتها مباشرة، فتمدّ رأسها من الشباك، وتصيح بنا، وتدمّر بنائي الإيقاعيّ! والأقسى من ذلك أنها تهزّ صورتي الرصينة والمتحكّمة التي رسمتها في عيون زملائي بكثير من المثابرة والدبلوماسيّة: اذهبوا بعيداً، خذي رفاقك واذهبي بعيداً عن نافذتي، انقلعوا... وهكذا تكون كرمة قد فقدت أعصابها، ويكون البديل الوحيد لدخولي في نوبة بكاء محرجة هو أن أردّ على صياحها بتهديد أمنيّ: سأشكوك إلى المخابرات، سيسجنونك!

- اسجنيني، برافو، برافو، يعطيكِ العافية،.. اسجنيني بس حلّوا عن شبّاكي...

أتابع مهمّتي بكثير من التوتّر بعد أن حافظتُ على ثباتي أمام زملائي. أجاهد لأبدو هادئة، وأقترح أن نمشي الآن إلى المدرسة لأنّ الوقت قد حان للانطلاق، وفي الحقيقة لم يكن قد حان بعد.

أعود إلى جدّتي بعد الظهر، فتستقبلني، وتضع أمامي طعام الغداء وكأنّ شيئاً لم يكن.

* * *

يضمّ السور القديم للرقّة بيوتاً لا تنتهي حكاياهّا. بيوت يسند بعضها بعضاً. تعلوها طوابق، وتعلو الطوابق غرف صغيرة على الأسطح معمّرة بطريقة عشوائيّة، تشعرك بأنّها آيلة للسقوط، وهي غالباً غير مرخّصة، ولا آمنة لكنّها واقفة. تجد بيتاً بسقف من (العَمَد) أي جذوع الشجر المتعامدة، إلى جانب بيت من الطوب، وآخر من الإسمنت المسلّح. تشكيل لا يمكن لأعتى المعماريين أن يصمّمه، وأشبه ما يكون بحيّ إيطاليّ في روما القرون الوسطى. الشرفات والأبواب محفوفة بنبات المستحية، وبورد العصر البنفسجي والأحمر، وبالياسمين الأبيض، وبالعسل الذي نخرج قطرات رحيقه ونمصّها ونحن نستمع إلى أحاديث الواقفات بباب الدور، وغالباً ما تكون هذه النباتات مزروعة في تنكات السمن والزيت التي أكلها الصدأ. لم تكن البيوت ميسورة

في غالبيّتها، لكنّها عامرة بالألفة، بحيث تشعر أنّ أيّ بيت فيها هو بيتك، وأي وجه من وجوه أهلها هو وجه قريب. لعلّ حزناً سحيقاً هو الذي صنع هذه الألفة! حزن مجهول المصدر، صاغ الناس في الرقّة، وتحوّل من عاطفة متوارثة إلى حالة مناخيّة، فتجده في الماء والهواء، وعلى الأرصفة. حتّى البطّ في الفرات تجده ساهماً يحدّق في المدينة المرميّة على الشاطئ، وأفكاره في مكان آخر. وعلى الرغم من أنّ النهر يمتدّ على الطرف الجنوبيّ للمدينة ولا يخترق قلبها، نتعامل معه كأنه شيء يوميّ، مثل اللبن والبندورة والخيار والسمن العربيّ الذي يجب أن يكون في كلّ بيت، ومادام موجوداً فيمكن لنا أن نحتمل أيّ شيء: العجاج والإهمال وفساد المسؤولين المحلّين، ولهجة الغرباء المتحكّمة بالثروة. الفرات مصدر طمأنينتنا وخوفنا في الوقت ذاته. نعرف أنّنا لن نكون من غيره، ونعرف أنّ الخطر قادم منه أيضاً، لاسيّما حين يتذكّر أحدنا عبارة "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل". عبارة تشعرنا بأهمّيّتنا، وبأنّنا مستهدفون، وأنّ الفرات سبب وجودنا وفنائنا معاً، وقد يكون ذلك هو سبب الحزن الذي يعشّش في كلّ واحد منّا!

حين تقبل على المدينة قادماً من الشمال، تستقبلك أضواء كثيرة كأنّ كواكب ملوّنة وأسراب نجوم حطّت على الأرض. ستختار أن تقطع واحداً من الجسرين المتوازيين فوق الفرات، اللذين يصلان بين المدينة والريف، الجسر القديم الذي بناه

الإنكليز في العام 1942 لتسهيل عبور قوّاهم مـــن العـــراق إلى سورية، في أثناء قتالهم مع الديغوليين ضدّ القوّات الفيشـــيّة، أو الجسر الجديد الذي بنته الحكومة السوريّة في العام 1966 والذي ظلّ الأكثر استخداماً حتّى لحظات نزاعه الأخـــيرة. ســـيقابلك المشّاؤون، أو صيّادو السمك الذين أوقفوا درّاجاتهم الهوائيّة إلى جانب سلالهم الموعودة بالرزق، وقد تقابلك زفّة عروس. وتحت الجسر أولاد يسبحون، وعائلات تجمعها قهوة المســـاء، وربّمـــا تكون النساء قد جمعن صوف الفرش الذي غســـلنه في النـــهر، استعداداً للعودة إلى بيوتهنّ، حيث سيترك أيّاماً ليجفّ، ويضرب بالعصا، ليعاد حشوه ثانية، فيكون النوم على الفراش الجديد أشبه بالنوم على الفرش التي وعد الله بها عباده الصالحين في الجنّـــة! ثمّ تبدأ دورة السكارى، والمقهـــورين، والعشّـــاق الهـــاربين مـــن حرمانهم. يتركون زجاجات عرق البطّة أو بيرة الشرق مرميّـــة على الحصى مع مناديل دموعهم التي تطير بعيداً أو تعلق علـــى أغصان البرديّ الواقف مثل جيش من الحرس موكّل بحماية سرير الماء. حين خرجنا من الرقّة لم يكن ثمّة جسر، فكلّ من طـــيران التحالف، وداعش، وما دار بينهما من مناورات، أحرق الجسور إلى المدينة التي عادت إلى زمن سفن الأربعينيّـــات. ومـــن الآن، وحتّى إشعار آخر لن يقف الحجيج إلى بيت الله ملوّحين تلويحة الوداع لمشيّعيهم، ولن يكون تحت الجسر أو فوقه متّسعٌ لمواعيد العشّاق. العرائس أيضاً سيحرمن من الدورة التقليديّة التي عرفتها

من قبل أمّهاتهنّ وجدّاتهنّ قبل انتقالهنّ إلى بيوتهنّ الجديدة، إذ لا بدّ لكلّ بنت من أن تمرّ فوق جسر الفرات لتصير امرأة، وأكثر من ذلك، كما تقول الحكايات، إنّ المرء يبرأ من السحر الذي يمكن أن يكون قد سوّاه له أحدهم، بمجرّد عبوره الجسر متّجهاً خارج المدينة!

تقترب شيئاً فشيئاً لتقبض على أنوار المدينة المتلألئة مثل كنوز بحريّة لفظتها الحيتان إلى البرّ. لكن حين تدخل ستجد ظلاماً رهيباً. الظلام يأتي من الداخل، من مكان مجهول، وكلّما اقتربت منه فرّ إلى مكان آخر! قد يعود الظلام إلى الخرائب الكثيرة المتناثرة في المدينة، والتي تتحوّل إلى نقاط علّام، فإذا أردت أن ترشد أحداً إلى بيت أو دكّان أو حتى دائرة حكوميّة، ستقول: بجانب الخرابة. كلّ بيت يقع بجانب خرابة ما، حيث قد نجلس، أو نحضر أحجاراً لنلعب بها لعبة (الكربجي)، أو نسدّ بها فتحات تصريف المياه. قد يرمي البعض في الخرابة ما لا يحتاجه، وربّما سنجد بعض النفايات. في الخرابات دائماً جزء من بناء مهدوم، أو بقايا جدار بنوافذ محفورة فيه، قد يظنّها الغافل بعضاً من الآثار الرومانيّة للمدينة. وثمّة شيء من جدار بقي عليه باب خشبيّ عتيق. تدفع الباب فتنتقل إلى الجزء الآخر من الخرابة. ستجد سريراً حديديّاً مكسوراً، وزجاجات مشروب حطّمها السكارى، ويمكن أن ترعى الخراف العشب الذي يتغذى من النفايات وماء السماء. في إحدى خرائب المدينة سيّارة خردة

واقفة منذ ثلاثين سنة، يتناوب على الجلوس فيها أطفال، يضعون أيديهم على فراغ كان مكاناً للمقود! البيوت تطلّ أيضاً على خرابة ما، عن يمينها أو يسارها. يطول عمر الخرابات وتصير جزءاً من ذاكرة الناس، حيث يموت أصحابها قبل أن يتحصّلوا على أموال لاستثمارها أو تعميرها. ورغم الماء، والسماء الصافية الزرقاء، والشجر الأخضر. يسيطر لون الخرائب على الرقّة، وينقله إلى الوجدان، نعم الخرائب في وجداننا، وهذا ما يجعلنا على الرغم من الضحك والبهجة ننهي حكاياتنا دائماً بغصّة، وأحاديثنا بتنهيدة ورجاء!

كانت العمارة البيتونيّة خرابة أيضاً. بيت كبير تمّ هدمه، وظلّ أنقاضاً لثلاثين سنة. يعمل ابن مالكه الأصليّ في اليونان. موّل البناء، وأنجز الهيكل، ثمّ اختلف مع إخوته الذين يشاركونه في ملكيّة الأرض. أرادوا أن يبني لهم بيوتاً من غير أن يدفعوا شيئاً، أو من غير أن يحصل على زيادة في حصّته مقابل ما دفع من مال، فأوقف أعمال البناء. هذا مصير معظم الخرائب في البلد، خلاف على البناء، وضغائن إرث! ظلّت العمارة البيتونيّة على حالها لعشرين سنة أخرى، إلى أن قصفها طيران التحالف. قبل ذلك، كان كلّ من في الحارة يعدّها ملكاً له. استثمرناها جميعاً، أقمنا فيها أعراساً، ومآتم، واختفينا بين طوابقها وغرف شققها غير المكتملة أثناء لعبنا (الغميضة)، وكان لها حصّة كبيرة من دموعنا، وقبلاتنا المختلسة، وأسرار أجسادنا! العمارات

البيتونيّة أيضاً موجودة في كلّ حيّ. معظم بيوت المدينة ناقصة، يسكنها الناس قبل أن يطلوها أو يؤثثوها، وربّما قبل تركيب البلاط والأبواب الداخليّة. إنّهم يكتفون بالمأوى، ثمّ يتمّمون سكنهم على مهل، وما أن يكتمل البيت حتّى تظهر فوقه غرف بيتونيّة جديدة لولد سيتزوّج، فتبقى حركة العمران سرمديّة، لكنّها ناقصة دائماً.

حين مات خالي نجيب، وضعوا جثمانه في العمارة البيتونيّة المجاورة، وذهب صديقه مجدي إلى معمل الثلج- هذه المرّة وحده- فأحضر الألواح الشفّافة التي ستحفظ الجثّة من الحرّ الشديد، ريثما يحين موعد الدفن. خطّطوا ألاّ يخبروا أحداً بتوقيت وصول الجثمان أو بموضعه، لاسيّما جدتي وأمّي، لكنّ الناس تجمّعوا حين رأوا سيّارة الإسعاف تقف في الحارة. جاء أبي إلى البيت مسرعاً، وعانق أمي. أول مرة أراها تأوي إلى حضنه. بكيا معاً، وأنا كنت أراقبهما عند الباب، من غير أن أشعر أنّ دموعي بللت كنزتي البروتيل الحمراء. كنت مأخوذة بذلك الحنان المفاجئ، وكانت تلك من اللحظات القليلة التي شعرت فيها بأننا عائلة متكاتفة، ووجدت نفسي ممتنّة لخالي نجيب حتّى في موته. غسلوه هناك بهدوء كيلا يثيروا حفيظة الأمن الذي كان مخبروه ينتشرون في الحارة. حتى مظاهر العزاء كانت مقتضبة لا تليق بالفاجعة التي صنعها رحيل نجيب. لم تهنأ جدتي ولا جدي بموت ولدهما الوحيد. لم تصرخ جدّتي بملء صوتها، ولم تقصّ النساء

ضفائرهنّ أو يمزّقن صدور أثوابهنّ كما جرت العادة عندنا في الرقّة. كفكف جدّي دموعه التي تحوّلت إلى سمّ سرى في جسده بتؤدة، وقتله بعد ولده بخمسة أشهر، وانتحبت جدّتي بصمت، وكانت تقول إنّ الله عاقبها بفقد ولدها لأنّها كانت ترقص أمام الرجال وتظهر جسدها، وأنا خشيت أن يكون ما تقوله صحيحاً فعلاً!

لم أر خالي ميتاً، لكن بعد أن عاد المشيّعون من المقبرة، دخلت العمارة البيتونيّة حيث يقام بيت العزاء فيها، وليس في مضافة الحارة الواسعة المطلّة على الشارع. الأمن أراد أن يمضي كلّ شيء بأقلّ جلبة. تسلّلت من الباب الجانبيّ للشقة، فوجدت التابوت. مستطيل بنيّ من ألواح خشب رخيص، يتّسع ليأخذ شكلاً غير منتظم من منطقة الجذع نحو الأعلى، وعند موضع الرأس جثمت بقعة دم كبيرة. كان ينزف وهو في كفنه، وكانت ثيابه مرميّة على الأرض خارجة من كيس أزرق: بنطلون مخملي زيتي وبلوزة قطنيّة كحليّة اللون، وفوقها ساعته السيتزن، فضيّة مستطيلة بجلد كحليّ، وكانت ما تزال تعمل! عقرب الثواني يتكتك برشاقة. صار مثل ناقوس يضرب في رأسي. خطفتها قبل أن يعثر أحد عليها. ظلّت معي دائماً، وكنت قد أخفيتها عن أمّي إلى أن رأتها مخبّأة في درجي، فلم تعقّب، بل ضمّتها إلى صدرها وغرقت في البكاء.

انطفأ النور في بيت جدّي، وفقدت الحارة أكثر بهجتها برحيل نجيب العجيب الذي بكاه الصغار والكبار والرجال

والنساء. أُجّلت الأعراس تلك السنة، ولم يُستقبل حجّاج بيت الله بالزينة والطبول، كما لم يكتب على أبواب دورهم: حجّاً مبروراً، وسعياً مشكوراً!

حين اعتقل خالي نجيب، لم نتمكّن أيضاً من التعبير عن قلقنا. كان الهمس هو طريقتنا في التواصل. كلّ الكلام تحوّل إلى همس، حتّى ذاك الذي لا علاقة له بموضوع الاعتقال أو بتهمة نجيب التي تشير إلى انتمائه مع صاحبه ناهل إلى حزب شيوعيّ معارض. لم يكن الكلام مسموحاً أمام أيّ طفل في الحارة حول نجيب من قريب أو من بعيد، إذ يمكن لأيّ طفل أن يشي بالقول، والمخابرات يسألون الأطفال، ويأخذون كلامهم على محمل الواقع من دون مراعاة لمخيّلاتهم. يجب أن تمشي الأمور عادية، وكأن نجيباً مسافر للدراسة، للسياحة، للعمل... وسيعود قريباً، وسنزوّجه، وسيملأ أولاده البيت، وسيقتحمون غرفة كرمة، ويعبثون بالبودرة، وأحمر الخدود، وأقلام الكحل، وبعلبة الصور، وستجرح الحافّة الصدئة للعلبة إصبع أحدهم، فينفر الدم، ويأتي خالي ليضرب العلبة: أ، أ، أ، وسيمسح جرح طفله بسبيرتو، وستدوخ كرمة من مشهد الدم، في حين ستنظر أمّي باستخفاف، وتتابع قراءة الكتاب الذي سيكون بين يديها وهي تقول: "صارت بيهودي ومات!". ذلك هو السيناريو الذي كنّا نمنّي به أنفسنا في غياب نجيب، ذلك الغياب الذي حدسنا خلاله أنّ أيّام البهجة ستولّي إلى غير رجعة، وأنّ كلّ ضحكاتنا ودندناتنا ستتحوّل إلى أنين مكبوت.

رأيتهم يوم جاؤوا لأخذه إلى التحقيق. كنت ألعب مع عبّود في الحارة، فدخلت لأصنع لكلينا صندويشات جبنة ومربّى. هذا ما كنّا نفعله حين نجوع من اللعب، فندخل مطبخ جدّتي، أو نطلب إلى العمة مارية التي تسكن إلى جوارنا أن تمدّنا بما نتناوله: صندويشة زيت وزعتر، أو دبس وطحينة، وكنّا نتجنّب أن نطلب من آنا شيئاً، لأنّها ستفطن إلى أنّ وقت اللعب انتهى، وعلى عبّود ألاّ يعود إلى الشارع. حين خرجت من المطبخ، وبيدي الصندويشات وجدهم يرقصون على أغنية (على أم المناديل). يقفون إلى جوار بعضهم البعض، في الصالون، الذي كان نصف معتم، بسبب إغلاق الأباجور الذي على الشارع، والاكتفاء بنور يأتي من الباب المفتوح على الحوش. أكفّهم متشابكة، مثل أشباح في سفينة غارقة، وصوت نور الهدى في الراديو يصدح. وقفت إلى جانب الباب، فناداني خالي لأنضم إليهم، لكنّي لم أستجب. التصقت بإطار الباب أتابعهم، وأنا أؤكد لنفسي على أنهم عائلة مجنونة. جدتي قائدة الدبكة، تقف أولاً، وترفع مجموعة من مناديل كلينكس كان جدّي قد قضى ساعات طويلة في فصل طبقتي النسيج فيها عن بعضهما إلى اثنتين، وذلك توفيراً للموارد اقتضته سياسة شدّ الأحزمة التي اتبعتها الحكومة السوريّة في ثمانينيّات القرن العشرين. تنثني أجزاء جدّتي بعذوبة، ويبقى كتفاها مشدودين بعنجهيّة. صدرها مرفوع، وابتسامتها لا تفارق شفتيها، ولا يمكن لها أن تخرق

الإيقاع مهما أتت به من حركات حادّة. كانت سلطانيّة المزاج والحركة حقّاً! أمي تدبك بلا ابتسامات، وكأنها تؤدي واجباً عسكريّاً. كانت حركتهم موقّعة، ورزينة. يتأمّلون الكلام واللحن، ويحلّقون في سماء الطرب. جدّتي تشدّ جذعها عالياً، ثمّ تطوي ركبتيها برشاقة، فيدبّ الحماس في الثلاثة الباقين. جدّي يأتي كلّ قليل بقفزة غريبة، مثل قفزة الديك، لكنّه يبقى قيدَ الإيقاع. خالي يضع ماما في الوسط، ويغلق الحلقة عليها، فينقلها إلى مقام آخر! تصير تتمايل مثل عريشة عنب، فأفرح لجمالها، وتنتابني غبطة تجاهها. أول مرة أراها بهذه العذوبة، وكأن زيتاً قدسيّاً قد حلحل مفاصلها المتصلّبة. في أثناء ذلك طُرق الباب الخارجيّ بعنف ثلاث طرقات، ثمّ اهتدى أحدهم إلى الجرس، فوضع يده عليه و لم يبعدها حتّى خرج خالي إليهم، ونحن خلفه نتساءل عن هويّة الطارقين، فسحبوه من بيننا هكذا بكلّ بساطة، ونحن نحدّق في خطواته بكلّ انكسار ويأس!

جدتي تبكي، وأمي تبكي، وأبي وجدّي خرجا مفزوعين و لم يعودا إلى ما بعد منتصف الليل. كان جدّي يقول في محاولة لاستدعاء المنطق: أنا آغا، وأبي آغا، وابني لا يكون شيوعيّاً. هناك سوء تفاهم، هناك تقرير كيديّ! و لم يكن لجدّتي صلوات أو أدعية واضحة أو محفوظة، وذلك مثل جزءاً من حزنها ووحدتها أحياناً، لكنها وجدت طريقة تكلّم بها الله، فتقول بعفويّة: يا الله أنا حزينة! لماذا تفعل بي هذا؟ أعد نجيب إلى

حضني اليوم. أنا زعلانة منك يا الله، أنا موجوعة يا الله، أريد ابني يا الله...

كان ذلك ديدنها، إذ تحكي ما تشعر به، وتعجز عن قول مثل بليغ يلبّي حاجة أو يشفي غليلاً، وحين تذكر إحدى صويحباها مثلاً متداولاً خلال حديثها، كانت جدّتي تردّده وتحفظه، لكنّها تفشل في استعماله في اللحظة المناسبة. لديها مثلان أو ثلاثة مصريّان لا نقولهما في الرقّة بحذافيرهما، من مثل: "يا خبر بفلوس.. بكرة يبقى ببلاش"، أو "خالتي وخالتك وتفرّقوا الخالات" لكنّها ظلّت تردّد أيّام اعتقال نجيب: أمّ القتيل تنام وأمّ المهدّد لاتنام، أمّ القتيل تنام وأمّ المهدّد لاتنام... صار أبي وجدّي يغيبان معاً طويلاً في البحث عن وساطات ومعارف لتخليصه أو الاهتداء إلى الفرع الذي اعتقله، أو المكان الذي احتجز فيه، وملابسات ذلك الاعتقال، وذلك قبل أن ينقطع خبره في غياهب السجون التي يصير المرء فيها نسياً منسيّاً. أمّا أمّي فكانت تبكي بكاء مرّاً، بكاء من فقد ذاته الثانية التي تحتمل ضعفه وأخطاءه!

كان لخالي نجيب حبيبة أموت غيرةً منها. أشي به حين يكلّمها بالهاتف، فأذهب وأملأ الغرفة صياحاً في بيتهم: خالي يكلّم حبيبته في الهاتف. إنّها حبيبته على التلفون. مسكّر الباب وعم يحكي مع الست... أقول لماما وأكرّر العبارات لجدّتي، فتنهرني كلّ منهما، أو تتجاهل الموضوع، إذ ليس مسموحاً أن

تكلّم النساء الرجال الغرباء في الهاتف، لكن خالي نجيب يكسر كلّ قاعدة، ويأتي بكلّ ممنوع ولا أحد يراجعه في ذلك. أهدد دائماً بأنني سأقول لأهلها، لكن أنا لم أعرفهم أبداً. لم أر أحداً منهم، فضلاً عن أنّهم لا يعيشون في الرقّة. تعرّف خالي نجيب إلى عروبة في حلب. كانت زميلته في كليّة الحقوق، ووالدها واحد من القضاة المعروفين بجبروت نزاهتهم، ونضالهم السياسيّ، وكان صديقاً لجدّي. ليس صديقاً حميماً، لكن حينما عيّن في بداية حياته الوظيفيّة في الرقّة، كانا يسهران معاً في البيت، أو في المزرعة، ويتنادمان على كؤوس الشراب، وقد يتناول يوم الجمعة غداءه عند جدّتي. كان خالي وعروبة طفلين آنذاك، ولم تكن عائلة القاضي معه في الرقّة، بل كان يعود إليهم في حلب في الإجازات. جدّاي أيضاً كانا يزورانهم في حلب حتّى وقت طويل لاحق، فيذهبون جميعاً للتنزّه في المونتانا والسهر في نادي حلب، ثمّ تراجعت العلاقة بين الأسرتين بفعل البعد والانشغالات، ولكن الودّ ظلّ قائماً. التقى نجيب بعروبة بمحض الصدفة، فقرّبتهما الذكريات المشتركة لتاريخ قديم. أراد أن يتقدّم لخطبتها، لكنّ أباها رفض بشكل قاطع، وطلب إليها أن تنهي الموضوع معه قبل أن يصل الأمر إلى مستوى الآباء، وليس ذلك لأنّ سحابة الشيوعيّة تلاحق نجيب، في حين يلمع نجم القاضي البعثيّ فحسب، بل لأنّه أيضاً استطاع أن يستقصي تاريخ جدّتي القديم، والذي لاحق ولديها مثل شيفرة وراثيّة لا تنفكّ إلاّ بطفرة.

صارت الرفيقة عروبة فيما بعد شخصيّة سياسيّة فاعلة في صفوف الحزب، وتدخّلت للإفراج عن خالي نجيب في وقت حسّاس وخطر، وكان يمكن أن يهدّد مستقبلها السياسيّ. كلّ ما استطاعت أن تفعله هو أن توصل جثّته إلينا. جاءت إلى الرقة وقت العزاء، وكانت المرّة الأولى التي أراها فيها. سمراء نحيلة، طولها معتدل، بعيون داكنة صغيرة وأنف حاد، ترتدي (تايير) أسود، تنورته ضيّقة وتصل الركبة، تحته قميص أبيض، وحذاء أسود بكعب عال، وجوارب نايلون رماديّة، وتضع على شعرها إيشارب أبيض قصيراً، تعقده بعقدة رخوة تحت ذقنها تظهر منه غرّة شعرها الأسود، وكانت كلّ هنيهة تشدّ العقدة كي لا يتفلت الإيشارب، فتبدو أظافرها المطليّة بلون أبيض لامع، وأصابعها الحادة في كفّين معرورقتين. كانت نائباً في مجلس الشعب، وكان يبدو عليها الهرم باكراً. ظهر على محيّاها حزن رزين يناسب مركزها السياسيّ، وبدت متجاوزة في قوّتها بحيث تقدم على مثل هذه المغامرة بأن تأتي لتعزّي بنجيب المعتقل السياسيّ الذي عارض الحزب الذي تشكّل هي أحد أقطابه. رحّبت جدّتي بها بعفويّة، إذ لم تكن قد انتبهت لهذه المعادلة السياسيّة، فقد كانت مغيّبة عن العالم في الأيّام الأولى للفاجعة، وإلّا لكانت أكلتها بأسنانها، أو طردتها. لكن ظلّت عروبة بعد رحيل نجيب واسطتنا عند الحكومة، وظلّت تلبّي حاجاتنا بلا تأفّف: حين يسطو أحد المتنفّذين أو البلطجيّة على عقار، أو

يتجاوز موظّف في التخمين الضريبيّ انتقاماً من ماضي جدّي الإقطاعيّ، أو يُمنع عنّا خطّ للمياه في الأرض، أو يؤجّل دورنا في الحصول على خطّ هاتف، وحتّى حينما عذّبوا أمّي في نقلها من وظيفتها الحكوميّة... نتّصل هاتفيّاً بعروبة، فتنحلّ العقد كلّها بعد قليل.

كنت أقارن بين عروبة وبين ندى، فتاته أثناء العطلات في الرقّة، فتأتي المقارنة لصالح ندى دائماً. ندى ابنة الجيران طويلة، ممتلئة، بشعر أشقر كثيف. جديلتها قاسية مشدودة مثل حبل الكتّان الذي يتسلّقه الأبطال في سلسة حكايات (ليدي بيرد). لديها وبر أشقر جميل عند منبت الشعر أعلى رقبتها مثل قصاقيص الذهب. عيناها خضراوان واسعتان، وفوقهما حاجبان كثيفان بنيّان فوضويّان، لو عرفها أحد متعهّدي عارضات الأزياء، لاقتنصها بالتأكيد لصالح وكالة ما. جسدها متين، وخصرها نحيل، ووركها ممتلئ، وأنفها حادّ، وفمها حبّة خوخ حمراء، مدوّر ونافر، وجاهز لقبلة خاطفة. تبدو ندى ساكنة دائماً، تقف أمام باب بيتهم الكبير ذي الحديقة الواسعة الموحشة بأرضها المرمريّة، أو تقف على الشرفة، تتأمّل أبداً في الوجوه، وتنقّل عينيها بقلق في الأشياء التي تتفرّس فيها. ولدت ندى بصمم ليس له علاج، ونتيجة لذلك فقد كبرت خرساء. قيل إنّ السبب يعود إلى زواج الأقارب، وهناك من قال إنّها وقعت على رأسها وهي رضيعة، ويقول بعضهم إنّها صيبة عين، لكنّنا نحن

الصغار، كنّا على يقين بأنّ السبب هو الورد الزهريّ الذي يتدلّى من سور حديقتهم نحو الشارع، والذي يدعى ورد (الطـريّش) أي الذي يطرش من يشمّه. هو ورد جميل، ليس له رائحة. ورقته مخمليّة سميكة، مقلوبة نحو الخارج مثل شفتين في حالة عدم رضا. ما زلت إلى اليوم أتجنّب المرور بالقرب منه، فإذا ما رأيته متدلّياً من على أيّ سور، لا بدّ من أن أقفز إلى رصيف مقابل.

تخفي ندى تحت جلدها الملائكيّ شهوة شيطانيّة، إذ تتحوّل حواسها وخبراتها المفقودة إلى رغبة محمومة، تغافل من أجلها إخوتها الثلاثة، وتلبّي نداء جسدها الفوّار، لاسيّما في ظهيرات الصيف الحارقة حيث تخلو الشوارع من المارّة، ويكون الندرة من البشر الذين يصادَفون في ذلك التوقيت، قد فقدوا تركيزهم، ولم يهتمّوا سوى بالوصول إلى هدفهم، فأدمغتهم تكون قد ذابت من حرارة الشمس وثقل الهواء الذي يعبق بالرطوبة، فتتفصّد الأجساد عرقاً، وتصير رائحة المدينة رائحة دبق، ورغبة، وكباب مشويّ، وخضار متحلّلة، ولن يكون لجسد ندى الفائر سوى حضن خالي نجيب. لقد أحبّته بملء جوارحها الصامتة، وحينما تختلي به كانت تفترسه. أسمع صوت لهاثهما في قبو بيت جدّي، إذ تلتحق به حيث يقضي الظهيرة هناك يقرأ، مستثمراً برودة الجدران المعزولة والمطليّة من الداخل بالكلس. أسمع أنينها المكتوم، تكاد النشوة تنطقها، وعلى الرغم من أنّي لا أرى شيئاً، أشعر برهبة تضرب حواسي المستنفرة أصلاً، وأدرك بغريزتي أنّ

محظوراً ما يحدث فيهبط له شيء أسفل بطني، وأخشى أن آتي بنأمة فيفتضح أمري، لكنّ خالي يناديني بصوت بالكاد أسمعه، ويطلب إليّ علبة كلينكس، فأركض لأحضرها، وأبقى واقفة وراء الباب، وبيدي علبة المحارم. يقول نجيب إنه مصاب بالزكام، ثمّ يعطس، ويطلب أن أبتعد كي لا أصاب بالعدوى، فأتعاطف معه، وأبتعد خطوات فحسب متناسية تلك الهنيهة التي تكون قد تحوّلت إلى ذكرى مثيرة أستعيدها كلما دخلت قبو منزل، أو سمعت كائناً حيّاً يلهث، حتّى لو كان كلباً. يخرج خالي وحده، ويسحبني من يدي، ونصعد معاً الدرج إلى المنزل. أعود بعد قليل لأقتصّ أثر الحادثة... لا شيء سوى فرشة بريئة ورائحة رجل وامرأة، رائحتها هي: هورمونات حارّة، وعرق نظيف، وكولونيا الأطفال اللطيفة التي تضعها دائماً. تحبّني ندى كثيراً! تكبرني بسبعة أعوام أو ثمانية، وكنت في البداية أتحاشاها. أخاف من المبالغة في حركاتها عندما تقف لتكلّم أحداً، إذ تقترب منه كثيراً، وتجرّه بعنف، وتمسك بالأجساد، وتعضّ على شفتيها بقوّة وهي تقرصني في خدّي، وأحياناً تضربني عليه بدلاً من أن تربّت! حين اكتشفت أنّ تلك الفوضى كلّها بسبب غياب الحاسّة صرنا أصدقاء.

أحضر أهل ندى لابنتهم مدرّسة خاصّة لتعلّمها، إذ لم يكن في المدينة مدرسة تختصّ بتعليم الصمّ والبكم، فكانت تقرأ الصحف والمجلاّت والقصص، ولديها رغبة شديدة في النميمة.

تعرف أخبار الحارة بيتاً بيتاً، وينطلق جسدها بالإشارات العنيفة، لكنّني أكتفي منها بمعرفة الحدث الرئيس الذي تخبّر عنه. حينما تسألني سؤالاً فأجيبها، أكتشف أنّني أتكلّم مثلها، وأنخرط في التمثيل واستعمال جسدي، وأشدّد على حركة شفتيّ، ويصير جسدي عنيفاً، وأستنفد طاقتي بسرعة، وأحياناً كثيرة من دون جدوى. كان أهل ندى الأكثر ثراء في الحارة، يمتلك أبوها شركة نقل للباصات الصغيرة نحو الأرياف. في العطلة المدرسيّة أذهب إلى بيتهم لأحضر معها أفلام الفيديو. لم يكن في الحي جهاز فيديو سوى الذي عندهم. تلبس جلاّبيّة قطن عليها زهور ملوّنة، بربع كمّ، وتستلقي على فرشة في غرفة الجلوس، بينما أجلس أنا على الأريكة مقابل التلفزيون. أختلس نظراتي إلى قدميها الأنيقتين، إلى منابت أظافرها، وساقيها الغليظتين مثل عارضتي خشب، ويديها الطويلتين، و(بلاك) الذهب الذي حفر عليه اسمها. نشعل المكيّف، وتبدأ بأن تضع أمامي البوظة والحلويّات العربيّة، ثمّ أراها ساهمة تتابع الفيلم. بكينا معاً على (عاصفة من الدموع) لليلى طاهر وعمر الحريري وهالة فؤاد، و(العار) لنور الشريف وحسين فهمي ونورا، وبكينا أكثر على فيلم نجلاء فتحي وفريد شوقي ومحمود عبد العزيز، الذي شاهدناه مراراً، وكنت دائماً أسألها عن لارا؟ أين هي لارا التي عنون الفيلم باسمها، فتحتار! تفكّر وتصمت حزينة لأنّها لم تسعفني بإجابة، وتعاود فتسألني، وأكون قد تعبت من التوضيح

واستسلمت. بعد سنوات عرفت أنّه لا يوجد لارا في ذلك الفيلم، وأنّني كنت أقرأ عنوان الفيلم بشكل خاطئ، إذ كنت أظنّه (حب لارا للشمس)، واعتقدت أنّ الحفيدة التي ولدت في آخر الفيلم وماتت رضيعة هي لارا، لكنّ عنوان الفيلم كان (حب لا يرى الشمس)! وفي كلّ مرة أودّ أن أخبرها بأنّني اكتشفت الحقيقة، فأخشى الشرح الطويل وصعوبة التواصل في استعادة الذكريات.

يفرّغ خالي في جسدها حرارة تموز وآب مجتمعين، ويتعامل معها مثل دمية لا تنطق، وجاهزة دائماً للعب، لكنّه كريم معها أيضاً، يأتي لها بهدايا: علبة لتضع فيها إكسسوراها، خفّ من الكتّان الأخضر، بنطلون جينز، بلوزات قطن عليها صور دببة... حينما كان يسافر للدراسة كانت تهدّد بأنها سترمي نفسها في الفرات. تأتي إلى بيت جدّتي كلّ عصر، تجلس على الأريكة وتدوّر وجهها بين الجدران، وحين تجد أحداً يمسك بسمّاعة التلفون، تسعى نحوه بلهفة، وتسأل إن كان نجيب هو الذي على الخط. تأتي خلفي إلى الداخل، أو تعرض أن تصنع القهوة. إنّها تختلس أيّة فرصة لتدخل إلى غرفة نجيب، ويحمرّ وجهها وتنزل دموعها، وأحياناً تنفعل وتضرب الجدار، وتعاود تهديداها بأنّها سترمي نفسها في الفرات، فتقول لها جدّتي وهي تشدّد على حركة شفاهها: الجوّ بارد الآن على الفرات.. انتظري حتّى الصيف! ثمّ تجلسها بين يديها، وتفكّ ضفيرها، وتجدّلها من

جديد، فتهدأ وتأوي إلى حضن جدّتي. تأخذني مكابدات ندى، وأقول في نفسي: معها حقّ! كيف تصبر على فراقه، لو كان لي رجل مثل نجيب، لسجنته في غرفتي، في قلبـــي. رجل قادم مـــن عالم الأفلام المستحيلة، ووسيم: أبيض بحلّة سوداء، عيناه بنيّتـــان وأهدابهما طويلة، ومحجراهما داكنان مثل عيون القدّيسين المؤرّقين بعذابات البشر. له أيضاً جسد رياضيّ. طويل القامة، وكتفـــاه عريضان، ومجرّد النظر إلى صفحة صدره كفيل بتحقيق أجمـــل الخيالات عن الدفء والاحتواء! خالو نجيب يعني منتهى الحنان، والمروءة، والعزم، والوسامة، أحرق برحيله قلوبنا جميعاً، وكانت ندى بمجدليّته حقّاً، لم تصبر على رحيله الأخير، فبعد أقـــلّ مـــن سنة، نفّذت تهديداتها، ورمت نفسها في الفرات.

* * *

صرت أفتقد أمّي وجدّيّ كل عصر في الأيّام الأولى لوفـــاة خالي. يمضون ويتركونني، فأعرف أنّهم في المقبرة. صارت المقبرة بيتنا الجديد! حين أخذوني معهم للمرّة الأولى كان القبر ما زال تراباً، اقتطعوا مساحة واسعة، وسيّجوها بسياج مـــن الحديـــد الأخضر المشغول بزخارف، وبنوا أحواضاً للورد. جدّي يشرف على العمل، وجدّتي تجلس على كرسي قـــش صـــغير وتعطـــي الأوامر كأنّها تجهّز غرفة عريس! لا أعرف كيف صارت المقبرة الصغيرة سريعاً حديقة لها باب وقفل ومفتاح، وعرائش وأشجار

دائمة الخضرة كي تقاوم الظروف الجويّة أو الغياب المحتمل، وصار القبر رخاميّاً بشاهدة كتب عليها: "وسيق الذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً"! كنت في غفلة عن ذلك، منهمكة في اللعب مع الأولاد الذين تقع بيوتهم حول السور. كانوا يملأون دلاء الماء لسقاية الزرع ورشّ القبر، ويأتون بالكعك الذي تقدّمه جدّتي على روح نجيب للمتسوّلين، ويأخذون مالاً مقابل ذلك. أذهب معهم لنملأ الدلاء ثانية، أو لنلعب الغميضة، ونغيب بين القبور الكبيرة والمتراصّة، فيصيح أحد ما: هذا قبر طفل صغير، ابتعدوا. أعرف أنّه لا يجوز الدعس على القبور، فالأموات سيستاؤون، ومع أنّ القبور هناك متلاصقة تقريباً، على أرض ترابيّة خربة وغير مستوية، إلاّ أنّني أتوخّى المرور بين الأحجار الفاصلة بينها، وإذا لمس مشط قدمي حافّة قبر، يقع قلبي من خشية إزعاج الميت. لكن مع الزيارات اليوميّة ازدادت خبرتي، وحفظت الطريق.

فصّلت جدّتي مقعداً خشبيّاً كمقاعد الحدائق ثابتاً في الأرض، مطليّاً بالأخضر الغامق، وأمامه طاولة بلون قشر الجوز ثابتة أيضاً، وصرنا نأتي كلّ يوم بمحافظات القهوة والشاي، وبالفاكهة، لنؤنس خالي نجيب في رقاده. نبقى إلى أذان العشاء أحياناً، فيُقبل الليل، ويبزغ القمر ونحن هناك! عشنا حياة طويلة في المقبرة، حيث تنضمّ إلينا صويحبات جدّتي أحياناً، أو أصدقاء خالي المرحوم، وربّما أحد من المعارف الذين يأتون لزيارة

موتاهم، فتدعوهم جدّتي للجلوس معنا، وتصبّ القهوة، ويقرأون لخالي الفاتحة. أمّي تقرأ القرآن، وقد تحمل معها كتاباً ما، وتتناول شطائرها، وقد تتحدّث إلى إحدى الزائرات، فتسألها عن فقيدها، وتتعرّف إليها. نغسل القبر الرخاميّ، فتجلس أمي عند الشاهدة، موضع رأس الميت، وتضع يدها عليها وكأنها تضع يدها على رأس خالي وتعبث بشعره. أنا أبقى أنظر إلى القمر الواضح حتّى أرى تضاريسه، وأغفو وأحلم بساكنيه. أتغطّى بشال أمّي الأبيض، وربّما بشال جدّتي، أو عباءة إحداهنّ. أمي لا تلبس العباءة سوى لمناسبة زيارة المقبرة. أغفو وأسمع همهماتهم، فأعتقد أنني أكلّم سكّان القمر، أو أنّ خالي نجيب صعد هناك، وراح يحادثني، فأضحك في نومي. هم يضحكون في بعض الأحيان أيضاً، جدّاي وأمّي والضيوف، لكن ما تلبث ضحكاتهم أن تتحوّل إلى بكاء، ومن ثَمّ إلى عويل يصيب زوّار المقبرة جميعهم بالعدوى، من غير أن يخطر في بال أحد منهم أو من غيرهم أنّ هذا القبر الجميل الذي يستقرّ في مقبرة نائية في الشمال الشرقيّ لسورية، هو لشاب كان قد سمّي على اسم الفنّان الشهير نجيب الريحاني. صارت فكرة الموت سهلة عليّ مع هذه المساكنة، إنّها مجرّد العبور من فوق إلى تحت، وتكون دائماً معي لعبتي، ناتاشا، أدثّرها من هواء الربيع لاسع البرودة، أو ممّا قد تحنو به علينا ليالي الصيف من نسمات. الجوّ عموماً في مقبرة حطّين أكثر اعتدالاً ممّا هو في الحارة، بارد حتّى في عزّ آب اللهّاب، وكأنّ

البرد يأتي من تسنيم، عين ماء الجنة التي وعـد الله بها عباده الصالحين، الذين يستلقون الآن ويتسامرون في حياتهم الأخرى كما كان يخيّل لي.

يذهب جدي ليتجول بين القبور كأنه ينتقي مكاناً له، وقد يستكشف قبراً لميّت منسيّ من الأقارب، ويلتقي بنساء ورجال يزورون موتاهم، الذين ما تزال قبورهم رطبة، ومحفوفة بحجارة كبيرة تعلن عن وجود جسد مازال حديث عهد بالموت، وعليها أغصان الزيزفون مقطوفة من حدائق المنازل، وقد يُسمع صوت عويل! ودائماً سنجد في المقبرة رجلاً وحيداً، أو امرأة وحيدة ملفوفة بعباءة، يجلس أحدهم للاعتبار فحسب، أو لاستفتاء الأموات بعد أن تكون قد ضاقت به دنيا الأحياء. وسيكون ثمّة ولدان حاقدان، قطعنا خلوتهما، ويودّان كلّ الودّ أن نهمّ بالخروج، إذ شاقهما انتظار أحدهما للمسات الآخر!

تقرأ العمة مارية مولد الرسول عن روح نجيب. تمسك بكتابها، وتبعده عن عينيها. لقد نسيت نظّارة القراءة، وستستعين بذاكرتها. يعلو صوتها نهاية كلّ فصل من فصول حكاية المولد: "عطّر اللهمّ قبره الكريم، بعَرف شديّ من صلاة وتسليم"، فنقف جميعاً لنصلّي على النبيّ. أحياناً أقوم من غفوتي، وأقف مضطربة خشية أن تفوتني بركة الصلاة على النبيّ، لكن حارس القبور يأتي، ويقول لها إنّ صوتها عورة، وعليها أن تخفيه، فتنسى جسدها الثقيل، وآلام ركبتيها، وتهجم عليه وتضربه بخيزرانتها،

وتشتم عورة أمّه، ويتحوّل المولد إلى معركة، في حين يهرب الحارس وهو يقول: ميّتكم شيوعي ملحد ولا تجوز عليه القراءة! حين مات جدّي وسّعنا له مكاناً قرب خالي، ثمّ وسّعنا مكاناً لجدّتي.

واظبنا على زيارة المقبرة، أمّي وأنا، كلّ جمعة، ولم نكن نتخلّف إلاّ نادراً، بسبب الأحوال الجويّة. كانت أمّي تحسّباً لغياب أطول، توصي أحد الحرّاس أن يرعى المكان، وتدسّ في يده النقود ليغسل القبور، ويسقي الزرع، ولا يسمح لأحد بالتبوّل قريباً منها.

ظلّت المقبرة متنزّهنا. حين أُقبل عليها من بعيد أركض إلى مجمّع قبورنا داخل السور الحديديّ، يحدوني الشوق للقاء عائليّ واستعادة الألفة المفقودة، وأجلس إلى قبر جدّتي أكثر الوقت، أبكي وأستسمحها في سرّي، وأؤكّد لها أنّني لم أقصد قتلها، وأنّها إن لم تغفر لي فإنّ الله لن يوفّقني في حياتي. كبرت هكذا أحثّ الخطى نحو القبور، وظلّ أهلي الذين هم تحت التراب أكثر منهم فوقه، إلى أن جاءت داعش ومنعت زيارة المقابر، ثمّ تمّ تفجيرها، وبعدها قصفها طيران التحالف، فزُلزِلت وبُعثرت، وانكشف ستر ساكنيها من غير قيامة!

* * *

كلّما نشطت الدعاية عن المواجهات الأخيرة بين قوّات سورية الديموقراطيّة (قسد) وبين عناصر الدولة الإسلاميّة (داعش)، زادت ضراوة قصف الناتو على أحياء المدينة التي صارت خرائب دامية. جثث لأشخاص نعرفهم مرميّة في الشوارع، ستأتي بعد قليل الكلاب الجائعة لتنهشها، وعائلات بأسرها تُركت تحت الأنقاض وقد غادرها أقرب الناس إليها لاستحالة انتشالها. لطالما اعتقدت أنّ كتبة التاريخ مبالغون، لكنّ الشرّ الكامن في البشريّة أعتى من أيّة مبالغة يختلقها الخيال! كنت مرعوبة لكن كنت مشمئزّة أكثر ومنهارة القوى، ولا أقدر على اتخاذ أيّ قرار أو إقناع أمّي بأيّ رأي. ليس لدينا سوى خيارين: الخروج مع احتمال الموت، بنسبة مساوية للبقاء مع احتمال الموت. جاء فوّاز ولد داعش الأرعن وأخبرنا بأنّ علينا أن نخرج من البيت، وإن لم نفعل فسيأخذنا سبيّتين! فوّاز ربي عندنا في الحارة. أمّه من جيلنا. تزوّجت باكراً، ثمّ تركت زوجها وعادت إلى بيت أمّها. لم نكن على احتكاك بهم، ورغم أنّهم كانوا ضعاف الحال لم يجعلهم جدّي أولويّة ضمن عنايته الماليّة. جدّتي كانت تعطيهم من لحم الأضاحي، وأحياناً ممّا يطرحه ثمر البستان في المواسم، وكانت جدّة فوّاز، واسمها زكيّة، تجلس أمام عتبة بيت جدّتي التي تخرج لتناولها فنجان القهوة والسيكارة من غير أن تُستقبل في الداخل، أو في الحديقة الجوّانيّة. كان جدّي ينقد ابنتها، أمّ فوّاز، خمس ليرات، فتقول لها أمّها: خذيها من عمّك

الآغا فتفرح بها البنت كثيراً، وأنا لم أكن أحبّ هذا المشهد أبداً.

لا أعرف متى كبر فوّاز وصار في الثامنة عشرة من عمره. كلّ ما أعرفه أنّه غادر المدرسة بعد الإعداديّة، وعمل في محلاّت بيع الخضرة شمال المدينة. حين رأيته أوّل مرّة بالهيئة الداعشيّة كلّمته، وكان حواري الأوّل معه بعد سني طفولته التي كنت أرسله فيها ليحضر شيئاً من الدكاكين القريبة:

- فوّاز ما الذي جرى لك!
- اسمي سيف الله، وليس عليك أن تكلّميني، ولا أن تمشي وحدك في الشارع بدون محرم.
- ماذا تعني محرم؟
- أبوك أو أخوك أو عمك أو خالك...
- فوّاز! *اهبلت يوال*، ألا تعرف أنّه ليس لي أيّ من هؤلاء...
- ادخلي إلى البيت أنت تستحقّين الرجم...

طبعاً، طار عقلي ولم أصدّق ما أسمع من هذا المفعوص إلى أن قالت لي أمّي إنّ جدّته زكيّة وأمّه التي تزوّجت برجل صار من داعش أيضاً، هما اللتان تشجّعانه على نهب بيوت أهل الحارة الذين غادروها منذ بدء إطباق الحرب فكّيها علينا من السماء والأرض.

طردته أمّي، ولم تحرّك ساكناً. قالت إنّها أيّامهم الأخيرة هنا، وقد أصابهم سعار النهب قبل الرحيل. الأخبار كلّها تشير إلى تقدّم القوّات الكرديّة نحو مدخلي المدينة الشماليّ والشرقيّ، والمواجهات

ستكون وشيكة مع غطاء جوّي لقوّات التحالف التي اعتدنا أن تقصفنا من السماء. كانت رؤية ماما صحيحة حول السعار، ففي حوالي التاسعة مساء جاء التونسيّ الذي سكن في الحارة منذ شهر تقريباً، ولم يكن يكلّم أحداً، وقد احتلّ بيت إحدى قريباتنا التي كانت قد غادرته إلى دمشق. كان يغيّر سيّارته باستمرار، مرّة جيب، ومرّة فورد، ومرّة جاء بتويوتّا عليها منصّة إطلاق لصاروخين! كان يرتدي جلاّبيّة سوداء قصيرة، وعلى رأسه قبّعة سوداء صوفيّة تخرج من تحتها خصل شعره الطويلة المبعثرة، وله شاربان متصلان بلحية سوداء كثيفة تصل مقدّمة الدرع الخاكي الذي يلبسه وفيه جعب عديدة لطلقات الكلاشنكوف، وجيوب للرمّانات اليدويّة. أوقف التونسيّ سيّارته الهونداي أمام بيتنا، فيما كانت أمّه وأخته تلهوان على شواطئ سوسة، تستمتعان بشمس الصيف وبحرها المقابل لأوربة، وتكتسبان لوناً برونزيّاً والكثير من فيتامين د الذي يقاوم هشاشة العظام والاكتئاب. قال التونسيّ لأمّ رياض، لمن هذا البيت؟

قالت للدكتور رياض.

- أين هو؟
- ذهب لمعاينة مريض، وسيعود بعد قليل.
- قولي له أن يخرج من البيت لأنّني أريد أن أسكن فيه.
- نحن نسكن هنا، هذا بيتنا، أين سنذهب؟
- تذهبون إلى الشارع...

بعد منتصف الليل سمعنا أنّ الأكراد وصلوا مشارف المدينة، على بعد خمس عشرة كيلو متراً من بيتنا، عند منطقة المقصّ حيث يتفرّع طريق القادمين من حلب إلى طريقي الرقّة ودير الزور. جاء أحد عناصر قسد الذين في الداخل إلى الحارة، وطلب إلينا جميعاً الخروج منها، فالمواجهة باتت وشيكة بين داعش وقسد والتحالف، وهي لن تبقي ولن تذر. ستترك المكان أرضاً محروقة ولن تبالي بالمدنيين، وقد تستغرق شهراً، بعدها ستتمّ عودة الأهالي تدريجيّاً. أكّد ذلك، أمّا من سيبقى فسيكون ذلك على مسؤوليّته الشخصيّة، لكن احتمال نجاته ضعيف جدّاً!

تجمّعنا في بيت العمّة مارية حوالي ثلاثين امرأة، وعشرين طفلاً، وتجمّع ثلاثة وعشرون رجلاً في قبو بيت جدّتي. كانت النساء تطبخ بشكل دوريّ، عصيدة من قمح وخضار، أو معكرونة، أو برغل ممّا تبقّى في أقبية البيوت. تذهب الحصّة الكبرى إلى الرجال. حين شارف الأسبوع على الانتهاء كانت المؤن قد نفدت وأطبق الخناق على المدينة من تقدّم قسد، وقصف مواقع داعش التي هي مؤسّسات حكوميّة، وما تبقّى من مدارس، ومستشفيين خارجين من الخدمة تقريباً. كنّا نسمع صوت تبادل زخّات رصاص قريب جدّاً، وفي الأحياء البعيدة على الأطراف كان هناك صوت انفجارات مخيفة مترافقة مع سطوع أضواء وأدخنة، لكن بلا صواريخ أو طائرات تمطر قذائف.

في الصباح أقبل الدكتور رياض، رأيناه يمشي من أوّل الشارع حيث كنّا مكدّسين في حوش بيته، وعيوننا على الباب المفتوح نراقب منه الطريق. اقترب من أمّه وإلى جانبها أمّي، وأشار إلينا أن ندخل إلى غرفة النوم الخاصّة به، التي جهزها منذ عشرين سنة لعروسه التي لم يتزوّجها. كانت الغرفة نظيفة ومرتّبة وكان خشبها لامعاً، وليس فيها مقتنيات كثيرة، كأنّها غرفة عريس حقّاً. أخرج من جيب (فيست) الصيد الذي يرتديه فوق جلاّبيته تفّاحة. تفّاحة صفراء لامعة، لها خدّ عليه نقط حمراء، أخرجها بهدوء مثل جوهرة، وطلب إلي أن أجلب سكيناً. منذ شهرين لم نر فاكهة أو نضع قطعة منها في أفواهنا. حين رأيتها لم تستثر فيّ أيّة حاسّة. لم أعد أحبّ الفاكهة. لم يعد أحد يحبّ أيّ شيء سوى ما هو في المتناول. لقد تنازلنا عن رغباتنا كلّها، مع ذلك قمت وأحضرت سكيناً كما طلب، إذ لم أكن أريد أن أقتل فرحته بهذا الصيد. قسمها أربعة وأعطى كلاً منا قطعة. جلسنا هو وأمه وأنا وأمي، كلّ زوج منّا على حافة من حافّتي السرير المغطّى بشرشف أزرق قطنيّ، يقضم ربع تفّاحته بصمت. لم نسمع أصوات القضم منذ وقت بعيد. لم نقل شكراً أو أيّ شيء. بعدما غادر الدكتور رياض وقفت أمي وأعلنت أنّنا سنخرج من الرقّة الليلة. ظننتها تمزح، لكنّ قرارها كان حاسماً.

قلت: لا نستطيع الخروج وحدنا، الألغام على طرف المدينة!

كانت داعش قد لغّمت حدود المدينة إلى الجسر، بحيث لن يتمكّن الناس من الخروج من المدينة، فيكونون دروعا بشريّة ضدّ قسد والتحالف. كما أنّ قنّاصتها منتشرون عند مركز البريد والإطفائيّة. هو طريق الموت لا شكّ. لم نسمع أخبار الذين خرجوا، لكن علمت فيما بعد أنّ كثراً منهم ماتوا بالقنص أو بالألغام.

قالت أمي: من له عمر لا تقتله شدّة.

جاء نذير كرديّ أخير من قسد حوالي منتصف الليل، وقال إنّ القوّات الكرديّة وصلت ساحة الساعة أي على بعد كيلو متر واحد من بيتنا، عند الشارع الذي تجتمع فيه قنّاصة داعش، والمفضي إلى طريق الخروج من الرقّة غرباً إلى مدينة حلب، وهذا كان بمنزلة النداء الأخير للخروج. أُسقط في يد الدكتور رياض وكمال وكلّ من كنّا نعتمد على رأيه. قال الدكتور رياض: سنخرج بهدوء، كلّ على مسؤوليّته الشخصيّة، ومن سيبقى سيكون ذلك على مسؤوليّته أيضاً. تنتظرنا قوارب وممرات آمنه مع الأكراد، لكنّ الخروج الفرديّ أخطر: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"!

كان الدكتور رياض قد التقى بأحد عناصر قسد من أهل الحلّ والعقد، واتفق معه على خروج آمن بنسبة كبيرة، كيف! لا أحد يعرف حتّى هو، لكن كما أشار هي كلّها تواطؤات، ومن هذا اللقاء جاء بالتفاحة.

كان لدي رغبة عميقة بالخلاص من ذلك كله. أموت، أو أعيش... المهم أن يتغيّر هذا الحال الواقف. أتفرّس في وجوه الجمع من حولي، وجوه خائفة وقلقة ومنهكة، لكن لا أحد يبكي. مضت مرحلة البكاء، والكلّ يترقب صامتاً، فأقول لأمّي: لن نكون أرحم بنا من ربّنا! تهزّ رأسها موافقة.

اجتمع خلق كثير في الحارة، ناس نعرفهم وناس لا نعرفهم. يخيّل إلي أنّ كلّ من بقي في الرقّة حتّى الآن جاء إلى هنا ليخرج معنا، كأننا ملحمة سبي بابليّة. تمنيت ألاّ يزعجني قصف أو يرهبني سلاح، لأجلس وأبكي، وأرسم، وأغنّي وحدي في هذه الخرابة الكبيرة. شعرت بألفة مع الجثث، فمعظمهم أحبتي وأهلي وزملائي في المدرسة. لا تضايقني هنا أيّة أجساد غريبة. كانت الرقّة مدينة سوداء، والقمر في سمائها ورديّ يكاد يداني الأرض! خرجنا في رتل طويل، واحداً وراء واحد. العمّة أم رياض التي تعاني داء مزمناً في ركبتيها كانت على موتور القائد كمال، موتور مطفأ بلا صوت، يمشي كدرّاجة هوائيّة. ليس معنا سوى أكياس عتيقة من زمن التسوق. لم نأخذ شيئاً، أخذنا معنا نقودنا وما تبقى من ذهب فحسب. قبل أن نغادر بيتنا وجدت قميصاً وتنورة لأمي معلّقين على المشجب، تناولتهما مع غيارات داخليّة قليلة، والحذاءين اللذين في قدمينا. تركنا كل شيء، فكرت أن آخذ كولونيا صغيرة كيلا نعاني من رائحة عرقنا، ثمّ عدلت عن ذلك، نخرج الآن ويدبّرنا الله. الأطفال ليس معهم متاع أيضاً،

لعبة سيّارة بيد طفل، ودبّ بيد طفلة وعروسة بيد أخرى... حتى الأطفال صمتوا، ولم نسمع لهم بكاءً. اصطفّ الرتل المكوّن من سبعين شخصاً، رأسه في أول الحارة من عند شارع القوتلي، الشارع الذي شهد مسيرة تاريخيّة عظيمة في العام 1977 عند توقيع كامب ديفيد، حيث أحرق المتظاهرون مجسماً لأنور السادات، ونهاية الرتل أمام بيت العمّة فاطمة في قلب الحارة. كنّا في ثلثه الأخير، أمّي أمامي، وأمامها أم رياض على الموتور، وورائي مباشرة الحاج علي الذي قاوم الخروج حتّى خارت قواه. قال سيبقى ولو ظلّ منفرداً في المدينة، لكن تحتّم عليه الخروج الآن كما تحتّم علينا.

أتذكّر تماماً كيف ودّعنا الحاج عليّ، قبل أن يصير حاجّاً، حين استدعي جنديّاً احتياطيّاً في الجيش السوريّ الذي يحارب في لبنان أيّام عدوان إسرائيل في العام 1982. كانت زوجته تبكي، وابنته التي في عمرنا تقريباً كانت تنشد في الحارة كلّ يوم:

ثوروا يا نسور.. عالدّاير عالدّاير، وعلّوا يا نسور واحموا هالعساكر... وكأنّها تبتهل لعودة أبيها. وحين عاد ذبحوا خرافاً وطبخوا المناسف في الحارة، ورششنا السكاكر على رأسه، وأهدتهم جدّتي طقم سفرة تركي من ستّ وثلاثين قطعة. ويوم استشهد ولده مضر في لبنان في حرب تموز العام 2006 لم يبك. بعد الجنازة سألني: كيف حالك يا لولو! قلت له العمر إلك عمّو. قال شكراً شكراً وصار يضحك، وكان يحمل الأولاد

الصغار ويلاعبهم وكأن الذي مات ليس بولده! صار يبكي الآن من ورائي، ويمسح عينيه اللتين تجمّع فيهما القذى بطرف كمّه، ولحيته مثل ساق صبّارة لم تر قطرات الماء منذ زمـــن، طويلـــة وملتفّة وبيضاء...

مشى الرتل، بهدوء. رؤوس مطأطئة مثل قطيع خيول باكيـــة، لكن لا تسمع لها صوت حمحمة، ولا وقع حوافر. لا أحد يســـأل أحداً شيئاً، و لم يودّع أحد المدينة أو يلقي نظرة أخيرة على جثمانها المتهالك. لا أحد يريد أن يتذكّر شيئاً، أو يتألّم، أو يحزن، أو يفكّر! نريد أن نصل الجسر، وبعدها هناك وقت طويل لدموعنا وأحزاننا. حين وصلنا موقع الساعة حيث يفترض أن ينتشر القنّاصـــة، بـــدأ قلبـــي يطرق بشدّة وخارت قواي تماماً، وتساءلت عن احتمال أن تصيبني رصاصة القنّاص أو تصيب أمّي: اثنان من سبعين! لو جاءت في العمّة مارية!؟ عمرها عمر النسر، شبعت من الحياة علـــى مـــا أعتقد. أردت أن أسأل عن أدبيّات القنص، هل هو قنّاص واحـــد؟ هل يقنصّ فرداً واحداً أم يطلق أكثر من طلقة؟ لكن لا يمكـــنني أن ألتفت أو أكلّم أحداً... نسائم الهواء التي باغتتنا كانت نديّة عابقـــة برائحة الموت، والبارود، والجيف، والخوف، والتراب، وفاحت من الماضيّ رائحة القهوة، ففي هذا الموقع بالتحديد، والقريـــب مـــن الكراجات كانت تفوح رائحة القهوة من الكافيتريات الصغيرة التي تعدّها للمسافرين، وحين كنت أسافر في هذا الوقت من الليـــل إلى الدراسة في حلب كانت ماما تحمّلني القهوة لأستأنس بها خـــلال

طريق السفر في ثيرموس صغير قديم لونه فستقيّ وعليه من الأعلى ثلاثة خطوط زرقاء. اقتنته بعد ولادتي بأشهر لتعدّ لي الحليب أو وجبة السيرلاك.

عند ساحة الساعة وقفت مصفّحات ثلاث، كل منّا تجاهل النظر إليها. أنا كنت أنظر أمامي فأرى سديماً رغم وضوح المدى، فالرؤية أيضاً أفكار، وحينما لا تفكّر بشيء فإنك لن ترى شيئاً. أردت أن أقطع هذه الأمتار الخمسين بأيّ ثمن على ألاّ يكون حياتي أو حياة أمّي. في هذه اللحظة فقدت ثقتي بالعالم، وسألت: يا الله لماذا تفعل بنا ذلك! خفت حقّاً من الفراغ، ومن فكرة أنّ الله غادر هذا المكان، ولم يعد يعبأ بنا، وصرت أصرخ في قلبي، وأغمض عينيّ بشدّة:

يا رب.. يا رب.. يا رب.. يا رب.. يا ربّ.. يا رب.. يا رب...

حين فتحت عينيّ كناّ على الطريق المعبّدة الواسعة عند المركز الثقافيّ والتي امتلأت بالحفر، والردم، وبأشجار مقطوعة وملقاة على الجانبين. البلد مثل عرش تهاوى، بل مثلما وصفت الكتب إرم ذات العماد بعد الصرخة، ومثلما كتب عن ديار سدوم وعامورة بعد أن جاءهم الصبح. لم أعرف الرقة ولم يخطر في بالي يوماً أنها ستؤول إلى هذا الخراب!

تجاوزنا منطقة القنص. تنفسنا الصعداء، وفكّرت بآخر الرتل، ودعوت الله أن ينجيهم كما أنجانا! حين وصلنا مدخل

الجسر الجديد دبّ فيّ شيء من الطمأنينة، وقدّرت أنّ آخر الرتل تجاوز منطقة القنص أيضاً، فأصابني مرح من ارتدّت إليه الروح، ألقيت ذراعيّ حول رقبة أمي وغمرتها، التفتت إليّ ضاحكة من قلبها ضحكة نادرة! أول مرة أرى وجهها منذ أن خرجنا. كان يلمع مثل الشمس، وشعرت بأمان لا مثيل له، كأننا لسنا بين فكّي الموت! أمان كالذي كنت أشعر به حين كنّا نمشي معاً في حقول عبّاد الشمس. قطعنا المسافة في ساعتين. بدأت الظلمة الحالكة تتحلحل لتترك مكاناً لخيط الضوء، الذي أبان الجسر طللاً خرباً كأنّه من جثث آلهة قديمة سقطت فوق بعضها البعض، لكنّها بقيت مقدّسة. مازال لدينا خطر الألغام، لكنهم قالوا لنا مادمنا في الرتل، سنكون آمنين، فالذين في المقدّمة هم أدلاّء من قسد ويعرفون الطريق جيّداً. توقّف الرتل، ويبدو أنّ الجماعة في المقدّمة بدأوا يصعدون في المراكب. شبحان خرجا من ورائي، وذهبا باتجاه الطريق إلى اليمين. كانت هناك أشجار الصفصاف القديمة التي أعرفها جيّداً عند مدخل الرقّة، أربعون سنة وهي تودّعنا مسافرين وتستقبلنا عائدين، وكنت أعدّها وأنا صغيرة: واحد، اثنان، ثلاثة، بعد الرقم خمسة وثلاثين تنقطع ونكون قد دخلنا ساحة المدينة...

أضاءت الأرض من حولنا، وتأرجحت في مكاني ثمّ انبطحت وبدأت أتلمّس أعضائي. شعرت فوراً بأنفاس أمّي، وجاء صوتها: يا الله، لولوا! أنا حيّة إذن، هي حيّة! صياح

مذعور، ثمّ تحوّل الكلام إلى تمتمات: ما بـي شي، مـا بـــي شي... شظايا دخلت في بعض الأجساد. التقطنا أنفاسنا وتــابع الرتل مسيرته. على بعد ثلاثة أمتار أمامي، وجدت جثّة غادة. لم تكن مشوّهة، لكنّ عباءتها السوداء محترقة. كان لها شعر أجعــد وفخذان كبيران محشوران دائماً في بنطلونها الجينز. غادة أكــبر منّي، وأخوها عبد اللطيف في صفّي. خرجت معنا هي وأمّهـــا. ذهبتا لقضاء حاجة بعد أن اطمأنّنا لتجاوزنا منطقة القـــنص. لم أجد أمها. هززتها بيدي: غادة، غادة، كانت ميتة، فتركتها، إذ سحبتني أمّي من معصمي، ومشينا. حمدت الله أننا نجونا واقتربنا من الجسر. كل عشرة يركبون قارباً من خمسة قوارب كانـــت تنقلنا، إذن سيأتي دورنا بعد عشرتين تقريباً. تكتّفت وأنا أفكّـــر ثمّ احتضنت أمي. كان جسدها صغيراً ورخواً و لم تعد تلك الجثة المشدودة المليئة بالأوامر، والعزم، والشحم الأنيق المرصوص. قلت لنفسي: دقائق ونعبر إلى الحياة ونترك هذا الجحيم.

أريد أن أمسك فقط بأطراف القارب، أن أمسك يد السفان ويد أمي ونصعد. حان دورنا في الركوب وبدأت قواي تخـــور مستسلمة للنجاة، وللآخرين القادمين من الضفة الأخرى، مـــن الحياة. لا تزاحم، الجميع مستسلم للدور كاستسلامه للقضـــاء. بدأنا نتوزّع على القوارب، ويدي بيد أمـــي، متناســـية غـــادة وجثتها، التي لم يدفنها أحد: يا رب سخّر أحداً ليدفنها يا رب! يا ربّ تحنّن عليها وحش البريّة يا رب! جاءت عائلة معها أطفال

وبدأوا يصعدون، ونحن وراءهم. غمر الماء أرجل الرجل أمامي، صاح السفّان: النساء في جهة، والرجال في جهة. أراد الرجل أن يساعد أطفاله فاصطدم بـي، أوقع ابنه شيئاً قربـي، انحنيت لتناوله كان حصاناً بلاستيكيّاً صغيراً جميلاً، داكناً، لعلّه أسود أو بنيّ لم أتبيّنه في هذا الضوء الشحيح. شعرت أنني أخذت وقتاً أكثر من اللازم في تأمّله. أردت أن أمدّ يدي لأعطيه له، فرأيته يبتسم في وجهي، كانت ابتسامة عذبة، وأضاء العالم من حولي، وقذفنا الصوت بعيداً، وصار الفضاء حارّاً، واعتقدت أنني متّ! حين استعدت وعيي كنت متكوّمة على نفسي، و لم أجد أمّي: مام! مام وينك مام؟! عرفت أنني فقدتها.

اجتمع البعض حولي ممن تبقّى، إذ غادر أكثرهم. جرّوني من زنديّ وأنا راكعة على تراب الشاطئ أصرخ، وأهزّ جسدي إلى الأمام والخلف مثل درويش دخل نوبته، ويداي بلا وعي ممسكتان بشعري، مربوطتان، لم يستطع أحد فصلهما. قالوا قد ينفجر بنا لغم آخر، مع أنّ الدليل أكّد على أنّ المنطقة هنا خالية من الألغام. لم أردّ، قمت وسرت قليلاً باتجاه الماء وأنا أصيح: مام، مام، يا الله، يا الله... وما يزال لدي أمل بمعجزة أن تكون أمي حيّة!

تحت شجيرات الصفصاف الشابّة وجدت ماما ملقاة، ميتة، مقطوعة الساقين، ساق من عند الركبة، وساق من أعلاها. عجزت عن تحديد اليمين من اليسار، و لم أمعن في رسم الصورة

في عقلي. وجهها ليس وجهها، ولحمها مندلق من ملابسها المحروقة ومدمّى، وحارّ! انكببت عليها، ولا أعرف كيف كان شكلي، وملامحي، وصوتي، لكن لسنا نحن. أنا خارج ذاتي، وأراقب شخصين غيرنا أنا وأمّي. ناداني السفّان، ثمّ صاح بالناس: لا أحد يقترب. قلت لهم: أمي، وجدتها، ميتة... فلم يأت أحد. قلت: لن أتركها. جاء السفان في النهر إلى أقرب نقطة مني:

- خلص ماتت. تريدين أن تموتي. لا وقت معنا. الآن يطلع الضوء ويأتي الدواعش...

- سأدفنها...
- لا مجال.

لن أترك جسدها عارياً. فكرت أن أعطيها قميصي، وكيف سأبقى بلا قميص، الكيس ظلّ هناك عند الشاطئ.

- سنحملها معنا في السفينة.
- حرام عليكِ ستأخذ محل راكب حيّ. لا تخافي سيأتي ابن حلال ويدفنها.

كنت أهزّ رأسي بغضب وبحركة عصابية: لا ماما، ماما لن أتركك...

قلت له أن ينقلع إذا لم يساعدني، فتَرَكَني ومضى...

صرت وحدي والعالم كله اجتمع عليّ وكان ثقيلاً على قلبي. احتضنت أمّي. أنا الآن مسؤولة عنها مسؤوليّة كاملة،

عن جسدها الذي حملني، عن ساقيها المقطوعتين اللتين علّمتاني المشي، عن وجودها كله... الشيء الوحيد الذي سأفعله لها الآن هو أن أستر جسدها في التراب. أعطيت لآلامي خمس دقائق، ولأفكاري خمساً أخرى، وقررت أن أمشي إلى بيت عنتر، سائس الخيل الذي كان ينام مع الكدش. جاءني يقين بأنّه لن ينفجر لغم آخر. وجدت بيته كما هو، غرفة مبنيّة على الشاطئ وإلى جانبها زريبة مسوّرة بأعواد الزلّ تفوح منها روائح الروث وأنفاس الأحصنة. ناديت عليه، فخرج مذعوراً. كان مثل شيطان بقامته المقزّمة، ولحيته الحمراء وبشورت شرعي، وفوقه جلباب قصير يشير إلى أنّه صار من جماعة داعش. فوجئ بي. ذكّرته بنفسي، فتذكّرني رغم العباءة وغطاء الرأس اللذين أضعهما كفرض داعشيّ. عدنا زميلَيْ نادي الفروسيّة الذي غادرناه منذ خمس وعشرين سنة. قلت له تعال معي، فجاء مثل خادم المصباح. أَسرجَ حصاناً سبّاحاً، وأركبني، ولففنا أمي بشرشف من عنده. كانت خفيفة في حضني! سبحت بي الفرس إلى الضفة الأخرى القريبة جدّاً، تقدّمني عنتر على فرس أخرى.

حين خضت في الماء بين الظلمة والنور، وخلّفت ورائي الرقّة وساقي أمي، وجدت نفسي غريبة لأوّل مرّة في الفرات، وصرت أبكي.. أبكي... وأعتب على الدنيا وأهلها وحكّامها وظلّامها... وحيدةً في هذا الكون لا أعرف من أين جئت، أو أنّني انقذفت هكذا إلى الدنيا بلا سلالة، بلا أسلاف، وسقطت

من مكان ما إلى هذه البقعة التي أنا فيها، وهي ليست بيابسة ولا بماء، وبمجرّد أن أضع الأشلاء التي بين يديّ في مكان آمن، سأكون حرّة وقد تصافيت مع كلّ شيء وسدّدت أيّ ديون لي مع العالم. شعرت بدموعي تجرح خدي كبلورات ملح حادّة، وأمي مرتخية لا حول لها ولا قوة! قلت لها: لماذا فعلت ذلك بي؟ قومي، لمن ستتركينني في هذه الحياة! إنها لا تردّ، لا تأبه لي، لكن حين نصل الشاطئ سيكون لدينا الوقت لعتاب طويل... ندمت لأنني لم آتِ بساقيها، كيف تركت أعضاء من جسدها و لم أبحث عنها! كان عليّ أن أجدهما فأضعهما في قلبي وأغلق عليها إلى الأبد... أقرّب جثّتها المحمولة على السرج أمامي، فأجدها خرقة.. نعم خرقة لا تعرفني ولا أعرفها!

من مطرح قريب هبّت رائحة خبز، خبز حنطة! لم نأكل منذ زمن خبزاً طازجاً ما زالت رائحة النار عالقة به. بكيت أكثر لأنّني لم أفكّر يوماً في أن أصنع فطوراً لأمّي، هي دائماً كانت تفعل! ومن بين طيّات عقلي الذي بدأ يفقد صموده بسبب هذه الفانتازيا قفزت عبارة عالم النبات أوليفييه: "لولا سهول الفرات ما عرف العالم الحنطة والشعير والذرة...".

ساعدنا عنتر في النزول، واستلمني أناس لم أحفظ ملامحهم. صلّوا عليها وأنا جالسة عند أرجلهم في ذهول. دفنّاها في منطقة (الكسرة) في المقبرة التي كنّا نصل إلى حدودها حينما كنّا نعبر الجسر في مشياتنا الصباحيّة، و لم يخطر لي يوماً أنّها ستكون مثوى

إحدانا! ظلّ في نفسي أنها ماتت منقوصة الأعضاء، وأنّني لم أنقذ ساقيها اللتين بقيتا صلبتين مثلما كانتا وقت كنت رضيعة، تضع عليهما مخدّة، وتلقيني فوقهما، وتهزّني حتّى أنام. لكن عرفت أنّ الله فعل بـــي مثلما فعلت بها.. حرمتها من أمها، فحرمني منها!

رجال كارمن الثلاثة

استيقظتُ في السابعة، وأخذت حمّاماً. الأشياء كلّها مرتّبة وفي المتناول في حمّام كارمن الصغير: خزانة المناشف البيضاء، علبتان من شامبو (بانتين)، علبة أخرى من (دوف) للرجال، و(شاور جيل) من (ديتول)، وعلب لمعاجين الأسنان من (كريست) و(كولجيب) وأخرى من ماركات غير مألوفة بالنسبة لي. فرشاتا أسنان من (براون) بشواحن كهربائيّة. ثمة رجل يتردّد على البيت، هذا واضح من قوارير (الآفتر شيف). أنهيت حماماً لذيذاً، بماء متدفّق بغزارة وساخن! لن تعوّضني حتّى حمّامات السلاطين عن الشحّ والتعذيب الذي وسم سنواتي الثلاث الأخيرة في الرقّة، حيث يمرّ شهر بلا ماء، وإذا ما وجد، فإنّنا نشتريه من الصهاريج التي تعبّأ من الفرات، وقد تنازلنا جميعاً عن أغلب شروط الشرب والنظافة والإصحاح التي هي حقّ طبيعيّ لكل إنسان، واكتفينا بما يبقينا بعيدين عن الجرب والجفاف والتسميط. من يصدّق أنّنا فعلنا ذلك في القرن الحادي والعشرين، في بلاد هائلة الثروات، عرفت الحمّامات الرومانيّة، والمياه المعدنيّة التي تعيد الشيخ شابّاً منذ الألف العاشر قبل الميلاد! حضّرت القهوة في الماكينة الكهربائيّة. كلّ شيء سهل وفي المتناول، أحتاج فقط إلى دقيقتين أو ثلاث في كلّ مرّة لأكتشف

ميكانيك الأشياء في بيتها، ومن ثمّ يكون لي ما أريد. حياة في منتهى السهولة والعصريّة، تشبه على نحو ما حياتنا في سورية قبل الحرب.

شربت قهوتي بتلذّذ. كبست الزرّ في الجدار، فانفتح اللوح الزجاجيّ الذي يشكّل السقف، وأشرعت الغرفة على الفضاء، فأقبلت نسمات الهواء الرطبة من مطر الليل، وانطلق شعاع من الشمس دافئ وحيي نحو الغرفة. البيت صغير بسقف مائل يشكّل سطح البناء، وهذا الميلان أشدّ ما يكون في غرفة نومها الصغيرة فوق السرير الأبيض. سرير يتّسع لجسدين كما بدا لي. ملابسها مكوّمة على (فوتيه) أمام السرير، وثمّة تواليت صغير بمرآة عليه بارفاناتها وكريمات العناية بالبشرة. أقلام الحمرة موزّعة في كلّ مكان، وعدد منها مكوّم في صحن كريستال على طاولة بيضاء صغيرة. مددت يدي وفتحت بضعة منها، كلّها بألوان هادئة، بيج ومشمشي ووردي. قالت كارمن: جربيها إنّها من مواد طبيعيّة وصحيّة للبشرة. فتحت واحداً، ففاحت رائحة الزبدة مطيّبة برائحة الأنوثة! لم أضع أحمر شفاه منذ سنوات، ثلاث ربّما، حتى إنني حين استجبت لدعوة كارمن، أخطأت مسار شفتيّ، وخرج اللون إلى أعلى فمي، فمع سلطة داعش، وضيق الحياة التي فرضها التنظيم، دخل الناس حالة زهد تلقائيّة، فمن سيرى أحمر شفاهك وأنت ترتدين الأسود، وتخرجين من غير أن يميز شخصك رجل أو امرأة.

البضائع أيضاً محدودة، والبائعون لا يبيعون النساء اللواتي يذهبن إلى التسوّق بلا محرم، لأنّ التنظيم يمنعهم من ذلك. أصلاً الخروج بلا محرم مغامرة وخيمة العاقبة، تستدعي الحسبة والغرامة، وبما أننا أنا وأمي بلا ذلك المحرم، فمكاننا الوحيد هو البيت، الذي لم نخرج منه لأربعة أشهر متواصلة. كان (سائد) أحد أبناء عمومة أمي هو الذي يرعى شؤوننا على مسؤوليّته. يزوّدنا بالطعام والشراب والاحتياجات الأساسيّة، كتعبئة مولّد الكهرباء بالبنزين، أو تعبئة خزان الماء، وطبعاً ندفع له تكاليف ذلك. عموماً حاجاتنا كانت بدائيّة، لكنّنا عرفنا في النهاية أن الإنسان لا يحتاج الكثير ليعيش. يحتاج فقط أن يتنفّس، وأن ينعم بعدم الاعتداء على جسده أو بيته، وأن يمدّ ذاته بغذاء يبقيه على قيد الحياة.

أمام سرير كارمن نافذة فرنسيّة الطراز، محفورة في الجدار، وتطلّ على الشارع. على مصطبتها بضعة كتب مطبّقة فوق بعضها البعض. عُلّقت فوق السرير على الجدار الجانبيّ لوحة لامرأة عارية، نرى ظهرها، وقد أدارت رأسها وأسندته إلى كتفها، فبدا بروفايل للوجه والنهد، وقد ألقت عليه باقة صغيرة من البنفسج. لو أنّ أحداً من عناصر داعش رأى هذه اللوحة في الرقة، لقاموا بإعدام كارمن فوراً!

إلى جانب غرفة النوم غرفة أكبر للملابس، فيها حمّالة كبيرة مثل تلك التي نجدها في كواليس عروض الأزياء، ورفوف لأحذية كثيرة، وحقائب، وخزانة بيضاء بأدراج. يرتفع سقف غرفة

الجلوس ويستوي، بعيداً عن ميلان سطح البناء. فيها أريكة من الجلد بلون بيج، وسجّادة ذات وبر طويل بلون أزرق فاتح، وطاولة بيضاويّة الشكل من الخشب الأبيض، عليها صحن كريستال فيه شوكولا بيض الفصح. خطر لي أنّها فاسدة أو عتيقة، فقد مضى على الفصح أربعة أشهر! وثمّة حاملات الشموع الصغيرة الكريستاليّة، ومكتبة بيضاء أيضاً، مليئة برفوف الكتب. تنفتح الغرفة على مقصورة صغيرة وضعت فيها طاولة أخرى صغيرة عليها لاب توب، تُشعر بالعزلة والسكينة لا تلفزيون، أو مشغّل أقراص. يوجد لوحة واحدة على الجدار، كبيرة ومستطيلة لمرفأ وسفن يطغى عليها الأزرق، وحامل صور فيه صور للعائلة تجتمع في عرس، وفيها صور لابنتها سارة طفلة، وصبيّة، وخريجة جامعيّة. سارة أشبه ما تكون بكارمن حين زارتنا في الرقّة في الثمانينيّات، الملامح والألوان ذاتها. أخبرتني كارمن بأنّها تعدّ للدكتوراه في علم النفس السلوكيّ للكلاب، وتقيم في مدينة بون. بحثت عن صورة نيكولاس، فلم أجد ما يوحي بأنّه هو. كنت قد سألتها عن صورة له، أجابت بأنها لا تحمل صوره. كانت في الموبايل القديم الذي جددته منذ أيّام. لكنّها وصفته لي على أنّه صار عجوزاً قبيحاً!

تنفتح غرفة الجلوس على مطبخ صغير، بينهما قاطع من الحجر بمصطبة من الغرانيت. وقفتُ من جهة غرفة الجلوس، ووقفتْ هي من جهة المطبخ، مستندتين إلى المصطبة ومتواجهتين.

لن تخطفك كارمن من اللقاء الأوّل، هي من ذلك النـــوع الذي يكشف لك عن جماله رويداً رويداً. كلّما مـــرّ الوقـــت ومضى اللقاء أسفرت عن شيء جديد لم تكن قد التفتُّ إليه من قبل. جمالها يتكوّن وينمو مع التفاعل أو مع الوقـــت. أردت أن أساعدها في تجهيز الفطور، فأشارت إليّ أن أبتعد وأكمل قهوتي. حاولت أن أتسلل إلى مطبخها حيث تقف، فرجتني بصرامة:

- إنّه مطبخي، كوني بعيدة.

امتثلت، وأنا أصفها بيني وبين نفسي بالتعـــالي! مطبخهـــا صفّ من الخزائن باللون الرماديّ، وحوض لغسيل الصـــحون، وغسّالة، وفرن صغير. وضعت على سطح القاطع الذي يستعمل كطاولة طعام قطعة من خبز الـــ (لوف) الطازج، أحضرها عامل المخبز، وقشّرت حبّة أفوكادو، وعصرت برتقالاً، ووضـــعت في صحن شرائح سلمون، وجبنة لاندانا بالكمأة، كما هو مكتوب على غلاف المنتج، وإلى جانبنا كان إبريق القهـــوة الكهربـــائيّ الصغير يبقيها ساخنة في انتظارنا. كانت تلك الجنّة بالنســـبة إلى الحرمان الطويل الذي عشته. تناولنا فطورنـــا جالســـتين علـــى كرسيين عاليين ككراسي البارات، هي في المطبخ وأنا في غرفـــة الجلوس، وأخذَنا الكلام على رحلتي، لكن يبقى أسرع حـــديث يمدّ جسور الألفة بين امراتين هو حديث الحبّ!

كارمن أصغر من الإطار الذي يضعها فيه شعرها الرمـــاديّ المتروك بلا صبغة. قالت إنّها اتخذت قراراً بأن تتخلّص من لون

شعرها البنيّ المحمرّ، وتترك الزمن يضع بصماته بلا تدخّل بشريّ. لقد اكتشفت عُقَداً في صدرها، ولا تريد أن تحوّلها باستخدام المنتجات الكيميائيّة إلى سرطانات. لون الشعر الرماديّ يضيف شيئاً. يُشعر بأنّ صاحبته حقيقيّة، وشجاعة، ومتصالحة مع ذاتها. ما زالت شديدة البياض مع طيف زهريّ، وعيناها زرقاوان واسعتان مدوّرتان، ليستا جميلتين بالمقياس العامّ، لكنّ بقيّة ملامحها حلوة، صفحة خدّها مشدودة ولامعة كما رأيتها أوّل مرّة، حتّى أنني اشتهيت أن أمدّ أصابعي لأتحسّسها وأتابع مسار عظمة الوجنة البارزة. ليست طويلة كما يتوقّع من ألمانيّة، لكنّها ممشوقة، وجسدها ثقيل ومكتنز. لم تكلّمني كارمن على دار النشر التي تعمل فيها، وتملك نصفها مع شريك آخر، لكن عندما بحثت عنها في الإنترنت، فوجئت بأنّها روائية معروفة، من أصحاب الروايات الأكثر مبيعاً. لها ستّ روايات، وكتب في فنّ الكتابة، وأعمالها مترجمة إلى لغات عدّة.

بدت كارمن مثقلة بخيبة ما، هكذا خُيّل لي، فهي نادراً ما تضحك، وتتناول الموضوعات بكسل وتهكّم! قد أكون واهمة، فأنا ما زلت لا أستطيع التمييز بين نمط الشخصيّة الألمانيّة الموسومة بالجديّة حسب ما هو شائع، وبين التحوّلات الطارئة التي تعتري الناس بسبب عارض ما، كالحبّ أو الفقد أو الفشل! لكن يمكنني أن أقول إنّ خيبات الحبّ لا تخفى على أحد، تظهر في لون البشرة، وطريقة الكلام، وفي شكل نظرة العين، مثلما يبدو وهج

الحبّ حين نتورّط فيه واضحاً، إذ يمنح لون الصبا، فيتسلّل إلى ابتساماتنا العشوائيّة ومخارج حروفنا. حدّثتها عن الحرب والفقد، وغدر الزمان، وحدّثتني عن تاريخ أسرتها. عن أصول أمّها البولنديّة، ووالدها النازيّ، ومحبته لشقيقاتها دونها. حدّثتني عن إخوتها السبعة، وعن أمّها الشاعرة الشهيرة، وأنا صدمت لأنني لم أعرف من قبل شاعرة بسبعة أولاد يمكنهم أن يتركوا لها وقتاً ومزاجاً لقول الشعر! كنت أظنّهما وحيدين هي ونيكولاس. عموماً ماتت أمّها بـ (ألزهايمر). حدّثتني أيضاً عن بسّام زوجها الفلسطينيّ السوريّ الذي تعرّفت إليه في جامعة دمشق، وعن (سارة)، وعمّا قاله أبوها الذي عارض زواجها بفلسطينيّ حتّى آخر أيّام حياته. قالت إنّها حين وضعت ابنتها، تأمّل في وجه الرضيعة، وأشار: سمول (small) ياسر عرفات! قاطعها لسنوات طويلة، وحين وقع أسير مرض الموت، كانت الصغيرة سارة هي التي تعتني به في غياب كارمن، وكان بسّام قد استضافه في بيته، وجهّز له غرفة خاصّة بمستلزماتها، حتى أسلم الروح!

أسهبنا في الحديث حتّى وصل إلى الرجل الآخر الذي رأيت ملامحه تتساقط من عينيها، وأصابعه تمسك بنبرة صوتها. هكذا صدق حدسي في أنّ كارمن تعيش قصّة حبّ مرهقة، وكانت فعلاً في فصولها الأخيرة.

* * *

جاءت كارمن مع نيكولاس إلى سورية، لكنّها أقامت في دمشق، وزارتنا عدّة مرّات في الرقّة في أثناء إقامته وبحثه فيها. درست اللغة العربيّة لغير الناطقين بها في جامعة دمشق، استكمالاً لما درسته هنا في كولونيا من الأدب الشرقيّ. قضت بيننا أسبوعاً في الرقّة قبل عودتها إلى ألمانيا، وذلك بعد أن أنهت فصلها الدراسيّ. حين وصلت، قادت بنا ماما سيّارة جدّي المرسيدس لاستقبالها، أنا وعبّود ونيكولاس. كانت صبيّة عشرينيّة فاتنة: قوام متماسك، وشعر أحمر، وتنّورة صيفيّة زرقاء واسعة، وبلوزة بيضاء بلا أكمام تظهر زنديها العاريين المحمرّين المنمّشين، وفتحة صدرها، وعقد الخرز الأزرق في جيدها. أولمنا لها عند الوصول في بيت جدّتي. أعددنا محشي الباذنجان والكوسا والفليفلة الحمراء، وطبق الأرضي شوكي بلحم الضأن وصلصة الخردل. كان تمّوز ينفخ علينا لهباً، ودرجة الحرارة في حدود الخمس والأربعين، وما أن وصلنا بكارمن إلى شاطئ النهر حتّى خلعت ملابسها وبقيت في ثوب سباحة أسود، ونزلت في الماء، فاجتمع حولها الصيّادون، والمتنزّهون، وعمّال المقاهي ليتفرّجوا على هذا المشهد النادر، فالنساء في الرقّة لا يتعرّين ليسبحن في النهر عادة! وبدأ الواقفون على الجسر يصفّرون، ويهتفون، ويصفّقون. كانت أمّي تنظر إليها بتوجّس في البداية، لكن بعد أوّل ساعة صارتا صديقتين. جدّتي أيضاً أحبّتها كثيراً وأطرت جمالها. كانت كارمن لطيفة مع الجميع بلا تصنّع، وفي عينيها طيبة بادية. حين

دخلت إلى حمّام بيت جدّتي لتقضي حاجتها، وقفنا أنا وعبّود خلف الباب منتظرين سماع صراخها. لقد كان المقعد البلاستيكيّ الداخليّ للتواليت الذي نجلس عليه مكسوراً إلى شقّين، ويمكن لمن لا يعرف ذلك أن يقرض لحم مؤخّرته إذا لم يتوخّ الحذر في الجلوس. لم نخبر كارمن طبعاً، وأوقعناها في الفخّ. قامت، فسمعنا صرخة حادّة كتمتها فوراً وراحت تكلّم نفسها. ربّما كانت تشتم بالألمانيّة! غرقنا أنا وعبّود بالضحك. سمعنا صوت السيفون ثمّ هربنا. خرجت كارمن محمرّة الوجه، وكنّا كلّما نظرنا إليها كتمنا ضحكة كادت تقتلنا. اصطحبناها في يوم من أيّام زيارتها إلى عرس إحدى بنات الحارة. كانت في غاية الغبطة وهي تراقب الطقوس الحيّة التي قرأت عنها كثيراً في الكتب. جلسنا أنا وعبّود عن يمينها وعن يسارها. بعد قليل جاؤوا بالحنّة السوداء مفرودة في طبق واسع ومزيّنة بالشموع المضيئة، وراحت الصبايا ترقص بالطبق وتتبادلن حمله، واقتربن من كارمن لترينها ما تحملن، فما كان منها إلاّ أن مدّت إصبعها في الطبق وتناولت شيئاً من محتوياته ووضعته في فمها. لم ننهها طبعاً وانتظرنا أنا وعبّود رأيها في المذاق المقرف للحنّة. صاحت، وبصقت، وضحك الجميع وهم يشيرون إلى أنّ الأجانب يأكلون الأخضر واليابس ولا يوفّرون شيئاً، ومع ذلك يحافظون على رشاقتهم. جئت لها سريعاً بكأس ماء، وظلّت مرارة الحنّة عالقة في حلقها إلى يوم سفرها. في الليل أصيبت بمغص معويّ، وقالت إنّه بسبب السمّ الذي

تناولته. لكنّ جدّتي قالت لها إنّ لحسة من الحنّة لا تفعل شيئاً، وإنّ المغص بسبب الكباب الذي تأكله كلّ يوم بلا رحمة!

في دمشق تعرّفت كارمن إلى بسّام الفلسطينيّ- السوريّ، والذي يعمل معيداً في قسم اللغة العربيّة، وقعا في الحبّ وتزوّجا، ثمّ غادرا بعد أن حصل على منحة للدراسة في ألمانيا، وأنجبا سارة. لكن يبدو أنّه لم ينج من أزمة منتصف العمر، فقد اكتشفت كارمن أنّه على علاقة بطالبته السوريّة التي جاءت مؤخّراً لاجئة، فساعدها للدراسة في ألمانيا، وبعد أن تواجها حول هذا الموضوع، اختارت كارمن أن تترك بسّام، وتستقلّ في بيتها، وتستمتع بما تبقّى من وقت على طريقتها. في الحقيقة، شعرت لوهلة بالحرج ممّا فعله بسّام، بوصفنا من الأرومة ذاتها، وزاد امتناني لها على استقبالها لي، على الرغم ممّا فعله بها مواطني! ثم نفضت عن رأسي فكرتي السخيفة النابعة من مرتكزات قوميّة مبالغ فيها، فما علاقتي أنا بزواج الآخرين وطلاقهم، ولَمَ أحمّل نفسي مسؤوليّة فشلهم أو سعادتهم؟!

قالت كارمن: سنحكي من البداية، من الخيانة التي صرت أعرف كيف أتكلّم عليها، وأكتب عنها إذا اضطرّ الأمر. الخيانة تشوّهنا. الخيانة معرفة، والمعرفة تشوّه البراءة، وتحملنا إلى نفق الأسئلة الصعبة: لماذا؟ ما هو خطئي؟ ماذا ينقصني؟ من هو البديل؟ ما هي مميّزاته! يعقب ذلك استسلام، وكآبة، وصمت. الخيانة تعبث بعقولنا، وتوصلنا كلّ يوم إلى حافّة الجنون!

رحت أستمع إلى تحليلات كارمن المعقّدة حول الخيانة وكأنّي لست ربيبة هذا المعنى الموجع، الذي اقتات على دموعي وانفطار قلبي! مفرداتها منتقاة، كأنّها درست جيّداً المعجم العربيّ فيما يختصّ بهذا الباب. أصحّح لها أحياناً، أو أردفها، فتعيد كلمتي، وتقول وراءها: نعم! أقول لها: الإرهاق، فتقول: الإرهاق، نعم... وحينما تعجزها المفردة، تذهب إلى الإنكليزيّة، حلاًّ أخيراً. أتذكّر بدوري العمّة مارية، ثمّ أمّي، ونساء كثيرات عرفتهنّ في الرقّة، فأراجع طريقة كلامهنّ على الجوهر ذاته، لكنني لم أسمع من أيّ منهنّ مفردة (الخيانة)، وكأنّ المفردات هي التي تمنح المعاني قسوتها أو لطفها، ولعلّ انتقاءهنّ للمفردات ساعدهنّ على تقبّل الفعل، فلم يجازفن بالخوض في لعبة التسميات. الاسم حقّاً أقسى من الفعل، هكذا مثلاً يتساهل بعض الناس في العلاقات الجسديّة بدافع الحبّ، لكن حين تُحدَّد تحت اسم الزنا، يجفلون! ترى، هل تحوّلت العمّة مارية حقيقة بعد خيانة زوجها أو بعد علاقته الجسديّة مع المطربة المعروفة، إلى امرأة مختلفة؟ مطعونة؟ فخورة؟ أفضل، أسوأ؟! ليس لديّ تصوّر واضح عن ذلك، سوى أنّها احتفظت بمرحها وجمالها إلى آخر مرّة رأيتها فيها، أمّا أمّي فأعرف أنّها مضت مصطحبة وجع الطعنة إلى القبر.

لا تكفّ كارمن عن الاسترسال في هذا الموضوع بمجرّد أن تمسك بطرف خيطه، بل تجرّنا إلى الحديث عنه دائماً، حتى ليبدو

لي أنّها لم تشف منه قيد أنملة كما تدّعي! أنا أتركها تحكي، وأستمتع بعربيّتها الرنّانة، وبمخارج حروفها المصطنعة، وأحاول أن أكسب ثقتها، فهي ستكون معينتي الوحيدة، ولوقت طويل:

- سنخاف على أنفسنا أكثر من ذي قبل، بل سنصير جبناء، لا نجرؤ على أن نخطو خارج ذواتنا، لأنّنا فقدنا صلابة الأرض التي تحتنا، والتي كنّا مطمئنين لها لزمن طويل. بعد الزلزال، لا يمكن أن نثق بالأرض كمساحة جيولوجيّة، وكذلك الأمر بعد الخيانة. سنفقد ثقتنا بالجنس البشري، ولعلّ الأقسى في الأمر هو أن نفقد الثقة بذواتنا. هل كسرتِ ساقك مرّة؟!

- لا.

لا تعرف كارمن كم يؤلمني الحديث عن السيقان المصابة!

- حين تنكسر ساقك، تحتاج فترة للترميم. بعدها ستخافين المشي، غير واثقة بعضوك المكسور، فهو مؤلم. ستحتاجين إلى من يدفعك للمشي، وبالتدريج ستتمرّنين، وستقولين لنفسك: كل هؤلاء البشر الذين كسرت سيقانهم عادوا للمشي، ورجعوا إلى حياتهم الطبيعيّة... بذلك يمكنك تشجيع نفسك. الذين مرّوا بهذه التجربة أيضاً، الخيانة، ستكون الحلقة الأولى في شفائهم هو أن يستمعوا إلى مفردات من قبل: عادي، وطبيعي، وكلّ الناس تخون...

حاولت أن أكون حكيمة، وناضجة، وأن أمتلك قـولاً في القضيّة:

- اعتبريها تجربة يا كارمن، نحن نقول: التجربة الـتي لا تقتلك تقوّيك!

- التجربة ليست معلّماً بالضرورة، قد تكون القاتل الذي يتربّص بنا، الأفعى التي تنام في قلوبنا، وفجأة تستيقظ، تقرصنا، وتغيب مجدّداً...

- الغفران شيء جميل...

- يمرّ وقت طويل من المصالحة والغفران، لكن فجأة أتذكّر أنّه خرج إلى أرض أخرى، وعـرف جسـداً آخـر، وتفاصيل، ومزاجاً آخر. سيقارن بين الأرض الجديـدة والأرض القديمة، سيعجبه التغيير حتى لو كان نحو الأقل والأسوأ، وسيحبّ المتعة التي تمنحها فكرة الاكتشاف، وأنّ أحداً غيري وقع في حبّه، والرجـال، انتبـهي، لا يسيطرون على غرورهم السخيف، سيحبّ المغامرة.

- إذن، ما هو مستوى الخيانة التي تعرّضتِ لها؟ كـلام؟ جسد؟...

- سألته عن ذلك، بل كنت أسأله كلّ يوم، وكلّ ساعة، فيكذب أحياناً، ويتوقّف أحياناً أخرى عن الخـوض في التفاصيل. يعتقد أنّه بذلك يحدّ من الأذى. توقّفت عن الأسئلة، لكنني لم أسأل السؤال الحقيقيّ الذي يجب أن

يُسأل! نحن نتكلّم كثيراً، ولا نقول الكلام الجوهريّ الذي نريد أن نقوله حقّاً، والسؤال الذي نريد عنه إجابة حاسمة لا نسأله أبداً.

جازفت في القول لأؤكد لها أنّني معها، وأشاركها، ولديّ من الخبرة العاطفيّة ما يشير إلى أنّني أعرف، وبدوت بتعليقاتي، صراحة، تافهة، فهي لم تكن تريد مشاركة من أحد. كان لديها قولها، تريد فقط أن تفرغ جرابها، وتحكي، علّها تطوي هذا الملفّ الذي يبدو أنّه أرهقها طويلاً. تحتاج كارمن من يستمع إليها، ويهزّ رأسه فحسب:

- قد يكون السؤال بحدّ ذاته مؤذياً للسائل، أو طعنة لكرامته!

- لأنّنا نعرف أنّنا لن نتلقى الإجابة الشافية التي نريدها، الإجابة التي في صالحنا. لكن بعدها كلّما رأيته يبتسم، أو يقلب موبايله، أو يسمع موسيقى، أقول: لها، من أجلها... وحين ينام أنظر إلى وجهه، وإلى عينيه، فأراها معلّقة بين جفنيه المطبقين بسلام. ليحلم بها لكن خارج سريري، وغرفتي، وبيتي، وحياتي. في البداية بذلت جهدي لأحصّل متعتي معه، لعلّها تكون مفتاح العودة، لكنّ جسدها جثم بيني وبينه. لم أحتمل تلك الازدواجيّة، ولم أعد أنام، ولم أعد آكل، ولم أعد أكتب، كنت ملقاة على السرير مثل لعبة مكسورة،

كلّ ما تفعله هو أنّها ستأخذ بعد قليل حيّزاً في الصندوق. لم أعد أريد بسّام، ولم أعد أنتمي إليه وينتمي إليّ. هو استغناء لا غضب، فأنا أميّز جيّداً بين المشاعر. لم أعد أريده لأنّه هزّ ثقتي بنفسي، ليس كامرأة فحسب، بل ككاتبة ناجحة. لم يقدّر استثنائيّتي، وعقلي وشخصيّتي التي ظننتها ستجعل رجلي يكتفي بها عن الأخريات العاديّات، فأنا أحرّر الأفكار، وأخترعها، ويمكن لعقلي أن يفعل كلّ شيء، ومرّة قال لي أستاذي: لا يملّ الرجل من امرأة تملك عقلها. عرفت أنّني لن أتصافى معه، وأنّه لا بدّ من حلّ نهائيّ. يجب أن يكون بيتي في الداخل نظيفاً آمناً حتّى أتفرّغ لمعاركي الأخرى مع الحياة والكتابة...

- وهو، ماذا فعل؟ أراد العودة، أم الانفصال؟!

- اقترح أن نكمل، وأن نتسامح، فنعود إلى اللحظة السابقة للزلزال، وأقسم على أنّ أمره معها انتهى، وأنّها مجرّد علاقة عابرة، ثمّ غيّر أقواله مدّعياً أنّني واهمة، وأنّ ما بينهما لا شيء، وأنّ عليّ أن أفكّر، وأراعي عشرين سنة من حياتنا المشتركة، وحبّنا الذي ما زال حيّاً، وأنّني مريضة نفسيّاً! وأنا فكّرت، لكن لم أستغرق الكثير من الوقت، لديّ عمل ولابدّ من أن أنهي كلّ شيء، وأصفو. أنا أيضاً لا أحبّ أن أعذّب نفسي

بالتفاصيل، ولا أحبّ أن أعذّب الآخرين. ومادام قــد وجد سعادة خارج عالمي، فليذهب، لماذا أحرمه منها! كانت أمّي تقول: البكاء على اللبن المسكوب جهــد ضائع، سنحلب البقرات، ونحصل على لبن أجود...

- هههههه...

- هههه.... تعلمين يا لولو، لقد اكتفيت بلحظــة رائعــة، بشعور عظيم تعرّفت إليه أثناء هــذه التجربــة، شــعور الكشف، وذلك حين استيقظت صباحاً فوجدت قناعاً قد سقط عن وجه الرجل الذي ظــلّ ينــام إلى جانبــي لعشرين سنة. أعجبتني أنا أيضاً لحظة التحرّر! لا أعبــاء، ولا مسؤوليّات، ولا قسمة في الوقت والأخطاء والنجاح والدخل! سأنشغل بنفسي فحسب، ما دمت لن أعود إلى ما قبل الجرح، إلى ما قبل الخوف، وما دام لن يستطيع أن يعيد إليّ ضحكتي البريئة التي تمنحني القوّة لأتحدّى العالم، ولن يعيد إليّ الشباب! حين يقولون إنّ الشيخوخة ليست بيولوجيّة، فهذا حقيقيّ. الشــيخوخة صــناعة الجــرح. المشكلة الأكبر التي تنتج عن الخيانة، ليست فقدان الثقــة بالآخر، بل إنّها تفقدنا ثقتنا بأنفسنا، وإذا تركنا ذواتنــا لردود الفعل، فإنّها ستكون خطيرة. لن أبقى مع شخص يشعرني وجوده طيلة الوقت بأنّني كنت في لحظة ما غــير مرغوبة، أو أقلّ، أو مخدوعة أو غبيّة أو ناقصة..

قالت كارمن مفردات كثيرة، واستخدمت الألمانيّة، لقد كانت مضطربة، ووردت إلى خاطري عبارة أمّي، فقاطعتها: كانت ماما تقول أريد رجلاً ليس همّه أن يلقّني كلّما استطاع درساً.

رددتها، كأنها وجدت ضالتها:

- يلقني درساً... نعم!

شعرت هنا بالفخر، إذ منحتها شيئاً.

- هل بحثت عن رجل آخر؟!

- خلدت إلى الراحة. علينا أن نريح العضو المكسور، لا أن نضغط عليه، ونرهقه! طبعاً الساق المكسورة تصير أضعف. لا تصدّقي أنّ المرأة بعد الخيانة تصير أقوى! هي تفقد مرونتها، فتبدو صلبة، لكنّ الصلابة شيء غير مستحبّ، الصلابة غير القوّة، القوّة في المرونة. قالت لي صديقة: لا تدعيه يكسرك، أنت قويّة، وناجحة، ومشهورة، وجميلة، ومازلت شابّة، المرأة في الخمسين شابّة، أنت أفضل منه... أحزنتني ملاحظتها، فماذا لو لم أكن جميلة وشابّة، وكلّ ذلك...! أنا لن أعنيه، ما يعنيه هو أن أذهب إلى رجل آخر، رجل سيحبّني أكثر منه، وسيعتني بي أكثر منه. بسّام ليس حريصاً عليّ، بل حريص على ألا أعرف الآخر، الأفضل.

- هل هي جميلة؟!

- ليس لديّ فكرة، لكن لا بدّ من أنّ نهديها مازالا مشدودين، وأنا مهما لبست حمّالات من (تريانف) أو (فيكتوريا سيكرت)، فلن أضارع رواء الشباب. لو فكّر الرجال فقط أنّ أعضاءهم تشيخ أيضاً وتتقلّص، ولو فكّرت كلّ امرأة مغرورة بشبابها أنّ ثدييها سيناما يوماً كتفاحتين مجعّدتين على صدرها، لصارت الحياة أكثر أماناً!

حكيت لها عن العمّة مارية، عن عدم مبالاتها، وسخريّتها، وغفرانها، وعن جلستها الألوهيّة...

قالت:

- قلت هي إلهة!

في كلّ مرّة نحكي كنت أتمنّى أن تخلي كارمن وفاضها، وتغلق ملفّ الخيانة نهائيّاً. إنّها تعيدني إلى هناك، إلى منطقتي المعتمة التي أخاف الاقتراب منها. أنا لست مثلها. لست كاتبة، لكنّ لديّ منطقتي المعتمة أيضاً. تقول إنّها تستفيد من حوارنا في الكتابة، وأنا لا أعرف ما الذي يمكن لامرأة مثلي مع كلّ ما تحمله من الفوضى والضياع أن تمنح كاتبة مثلها!

تقول:

- هل تعرفين يا لولو أول ما تفعله المرأة بعد الخيانة؟ تغيّر في جسدها، لأنّها ستكتشف أنّه ملكيتها الوحيدة. تتّبع حمية، تقصّ شعرها، تهتمّ ببشرتها، تضع الكحل... لا

دواء يشفي من الخيانة، هنـــاك علاجـــات تلطيفيّـــة فحسب، وأنا أتّبعها: أوّلها نسف الجسور كلّهــا مــع الشريك الخائن، وهذا إجراء فوريّ، فإذا عــدنا إليــه سننكأ جرحنا كلّ لحظة، وثانيها النجاح وهو إجــراء طويل الأمد.

فكّرت وحدي قليلاً بعيداً عن كارمن: هل تتّبع نساء الرقّة العلاجات ذاتها، أم لديهنّ تقنيّات أخرى لمواجهة هذا الحــدث! أعتقد أنّهنّ يتمتّعن بقدرة أكبر على الصفح أو على النســيان، ولعلّ الأمر لا يتخذ لديهنّ هذه الفداحة، فهو من صميم الحياة. حدث عاديّ، واجهته الأمّهات والجدّات من قبل. النساء عندنا أقوى، وأكثر اتصالاً مع العمق، مع الجوهر، فالناس يخونــون، لكنّهم يصفحون أيضاً. لم تبك امرأة أمامي من الخيانة. أمّــي لم تبك أمامي، لكنّها تحوّلت إلى امرأة عنيفة وكارهة، إلى أن غادر أبــي، أو إلى أن مرّ الوقت، أو إلى أن عرفت نيكــولاس! قــد تكون المشكلة في اللواتي يضطررن للبقاء مع الشــريك الخـــائن لسبب ما، إنّهن يفشلن في النسيان، ولا يغفرن أبداً، من هنا يولد شقاؤهنّ.

وهكذا لم أنم ليلتها إذ جاءت العمّة مارية، وجــاء مجلــس جدّتي، وأوّل من سيقذفه عقلي إلى الواجهة هو أمّي التي ظلّــت معي طوال الليل في السرير. تحتلّ أمي مقعداً في عقلي، مقعــد المراقب، وكلّما مررت بتجربة، انتصبت واقفة، وأملْــت علــيّ

الحلّ، ودلّتني على الطريق، طريقها هي، طريق الخسارة الدائمة. أنا لا أريد أن أمشي في طريق أمّي، ولا أعتقد أنّ أحداً يريد أن يمشي في طريق أمّه!

منعتني كارمن من مساعدتها في لمّ الفطور، وقالت اذهبي لتشربي القهوة، وحينما أزورك في بيتك قريباً لن أساعدك أنا أيضاً في لمّ الفطور. كانت تبدي لي ودّاً صادقاً، وبدا لي أنّها سعيدة من قلبها برفقتي، وأنّها بعد أن حكت استراحت وصارت أكثر مرحاً:

- كارمن! هل يفكر الناس هنا بالحب؟ أولئك المشغولون بالاهتمام بحربنا وباللاجئين؟ أو أولئك الناس المشغولون بقوْتهم اليوميّ؟ الألمان الذين كانوا معي بالطائرة، الذين يدسّون رؤوسهم في كتب، أو عناصر الشرطة الذين قابلتهم في المطار؟ السيّدات اللواتي رأيتهنّ في شوارع فرانكفورت يسارعن إلى البنوك وشركات الاتصالات؟

- أوه، قد يفكّرون! حكّي القشرة سيظهر الحُبّ، وإذا لم نقترب منهم، لن نعرف ذلك! لكن كلّ من أعرفهم تقريباً إمّا قد خرجوا من علاقة، أو دخلوا في علاقة، أو بينهما!

حدّثتُ نفسي بأنّ هؤلاء الذين تشير إليهم لديهم متّسع في الحياة. لم يخرجوا من حرب، ولم يحتلّ متطرّفون بيوتهم، ولم يروا

أهلهم معلّقين على المشانق في ساحات الموت التي كانت قبل أشهر للنزهات وتبادل الغرام. أنا مثلاً ليس لديّ أفكار واضحة عن الحب، ولم أحظ به في صدر شبابي لانشغالي بأمّي التي لم ألتزم بدراستي الجامعيّة من أجلها أيضاً. كان عليّ من أجل الدراسة أن أعيش في مدينة أخرى، في حلب أو دمشق بسبب عدم وجود جامعة في الرقّة، ولم يكن من الممكن أن تترك ماما عملها لمرافقتي طيلة ذلك الوقت. فكنت أدرس في البيت وأذهب لحضور المحاضرات الأخيرة قبل نهاية الفصل، ثمّ أقدّم امتحاني حيث ترافقني إلى حلب، فنقيم معاً في الشقّة القديمة التي ورثتها ماما عن جدّيّ، لتستعيد فيها ذكرياتها النديّة. لا يمكن أن أقتل أمّها ثمّ أتركها وحيدة لأدرس أو لأعيش مع رجل!

تنهي كارمن منذ الأمس أحاديثها بـ ممكن، ولا أعرف بالتحديد... ليس لديها حتميّات إلى الآن، وتؤكّد دائماً على كلمة سوبررررر، تلفظها هكذا: (زوبر)، فتضحكني. كانت قد جلست على الأريكة ومدّدت قدميها على الطاولة أمامها. رأيت إصبع قدمها الثاني راكباً على الأوّل، ولا يعطيه مجالاً لكي يظهر بجلاء. صارت تنظر إلى الإصبعين تحاول فصلهما، تحملق في قدميها كأنّها فوجئت بهما! قلت لها إنّ أمّي حين اكتشفت خيانة أبي الأولى، قالت إنّه قد عضّ مشيمتها!

- ماذا؟

طلبت أن أكرّر العبارة:

- عضّ مشيمتها. المشيمة، الحبل الذي يربط بين الأمّ والجنين في الرحم، وعبره يمرّ الغذاء إليه.

- هه!

شهقت، وهي تضع كفّها على بطنها، وتمتمت كأنّها تقلّب العبارة بلغتها، وبعدها ظلّت صامتة. عيناها متحجّرتان تحدّقان في النافذة البعيدة المفتوحة على أشجار الدلب... نزل مطر خفيف، وصار هواء الصباح بارداً. قدّمت لها كوب قهوة، فتناولته، وبقيت في جلستها إلى موعد الغداء.

* * *

في المساء، استعدّت كارمن لحضور البثّ المباشر من البرازيل لمباراة ألمانيا والبرتغال في إطار كأس العالم. قالت إنّه ليس عليّ أن أتابع المباراة معها إن لم يكن لي اهتمام بكرة القدم. لكنّني بالفعل أحببت كرة القدم منذ الثمانينيّات، سنوات تألّق منتخبنا الوطنيّ. كنّا نتابع مبارياته بشغف في دورة المتوسّط، وكأس آسيا، والتصفيات نحو كأس العالم. كانت تلك المتابعة الرياضيّة مزاجاً عامّاً في البلد، وجزءاً من الروح الجماعيّة التي أضرّ بها الستالايت وقنوات احتكار البثّ. كانت مباريات كأس العالم حدثاً احتفاليّاً منذ ذلك الوقت: ماما تشجّع هولندا معجبة بكابتن فريقها (رود خولييت) الأسمر، صاحب تسريحة الضفائر العجيبة، وبابا يشجّع الجميع، وأنا أحبّ (مالك شكوحي)

حارس المنتخب السوريّ، وقد وضعت صورة له وهـو يصدّ ضربة صاروخيّة على باب خزانتي من الداخل، فقرّعني بابا بحجّة أنّني أخرّب خشب الورد الثمينن وطلب إليّ أن أنزعها!

جلست كارمن على الأريكة أمام التلفزيون، ومدّت ساقيها على مسند واطئ ووضعت إلى جانبها كأس بيرة، وبدأت تتابع صامتة. أوّل مرّة أرى أحداً يتابع مباراة كرة قدم بهذا الهدوء، بلا انفعال أو تشجيع! لا حماس أو تهليل لهجمات فريقها، ولا صيحة إشفاق من هجوم الخصم. وخطر لي أنّني متحمّسة أكثر منها بكثير. جلست على الكرسيّ المحاذي أتسلّى بحبّات التوت البريّ، وكنت أقفز مع اللعب الجميل لـ (هاملز) الألمانيّ الذي سجّل هدفاً لفريقه بعد الهدف الأوّل الذي جاء من ركلة جزاء، ولـ (مولر) الذي أحرز هدفين متتاليين، وأشفقت على حارس مرمى البرتغال (باتريسيو) الذي كانت المباراة في جلّها تجري أمام مرماه. انتهت المباراة بفوز ألمانيا بأربعة أهداف نظيفة، وعند صافرة النهاية أعربت كارمن عن ارتياحها بأن قالت بصوت عالٍ: هيه.. سوبر! وذلك كان انفعالها الأكثر وضوحاً. لو كان منتخب بلادي هو الذي فاز لكنت ملأت الدنيا صياحاً، في حين تعاملت هي مع المباراة كلّها كأنّها تذهب إلى العمل أو تتابع برنامجاً وثائقيّاً، أو نشرة أخبار، لكن قالت إنّنا سنذهب لنتناول عشاءنا في مطعم قريب احتفالاً بالمناسبة، وهناك أسرّت لي أنّها تابعت المباراة محبّة بمدرّب الفريق يواكيم لوف، وإنّها تحبّ

حركاته العصابيّة التي تلتقطها الكاميرا، حين يحكّ أجـزاء مـن جسده ويشمّ رائحتها. هي لا تشمئزّ منه مطلقاً، ولا تعني لها شيئاً أمام شعره الأسود الكثيف والطيّتين العجيبتين لجفنيه السفليّين اللتين تكشفان عن طبع ناريّ، وقالت إنّها تتابع حسابه على تويتر وتكتب له عبارات إطراء!

كان المطعم قريباً فعلاً على بعد شارعين. ذهبنا بالسيّارة، وكان الناس قد نزلوا إلى الشوارع ابتهاجاً، على الرغم من تأخّر الوقت. تقاسمنا طبق الفوتوتشيني وسلطة الهليون. لم نكن جائعتين، لكنّني كنت مرتبكة. لم أجلس إلى أحد في مطعم منذ سنوات، منذ بدء الحرب في سورية، حتّى إنّني ارتبكت في استعمال الشوكة والسكّين، إلى أن نظرت إليهما في يدي كارمن، فتذكّرت. عيشتنا كانت مؤسفة في حين أنّ الحياة جميلة! فالعالم يتمتّع بكلّ هذا الدفق من البساطة والأمان، ونحن في الرقّة ممنوعون من الخروج من البيت!

- كرة القدم ستساعدك على الاندماج، مثلها مثل الالتزام بالجامعة. حاولي أن تتناسي فكرة اللجوء. أمي التي جاءت من بولندة لم تنس، لأنها لم تتعلم هنا، ولم تشجّع فريقاً محليّاً لكرة القدم. عاشت هناك، بتوقيتها وبإيقاعها. وقعت في أسر الحنين ولم تتمكّن من تحويله إلى قوّة فنيّة رائجة. كانت صادقة أكثر ممّا ينبغي للشعراء الذين ركبوا موجة الشتات واللجوء، فأبقاها

ذلك شاعرة من الدرجة الثالثة. نصوصها في وطنها مثل بكائها كلما قشّرت البطاطا، أو سمعت موسيقى الـ (مازوركا). لا تقعي في خطئها. فكّري أنّ أولادك سينسون أنّك لاجئة. لو كنت مكانك لما فعلت ما فعلته أمّي.

- ماذا حدث بعد انفصالك عن بسّام؟
- أوه! خضعت لجلسات علاج نفسيّ لأتخلّص من كآبتي، ولأعود إلى نشاطي السابق، إلى العمل والكتابة. كنت أخمّر التجربة في معملي، لكن خشيت من أن أستسلم للراحة التي منحتني إياها فكرة الضحيّة. الضحيّة عليها أن تأخذ وقتها للشفاء، لكنّ الشفاء لا ينزل من السماء، يجب أن نقوم من على الأريكة ونبحث عنه قبل أن نتلاشى.

مسحت فمها بمنديل السفرة الذي طبع عليه لوغو المطعم، وهو صورة للمخرج السينمائيّ الإيطاليّ فلليني، معلنة عن إنهاء طعامها، وعدّلت جلستها وهي تملأ كوب الماء. لاحظت تجاعيد صفحة صدرها المحمرّة البادية من خلال الفتحة الواسعة لبلوزتها البيضاء! تابعت:

وصلت هايدلبرج ظهراً. كان يوماً مشمساً من أيّام تمّوز، عدّهُ الناس يوماً صيفيّاً خالصاً. تخففوا من ملابسهم، ووضعوا قبّعات القش، وذهبوا للنزهة في الحديقة المفتوحة عند نهر نيكار

باتجاه الجسر القديم، أو لتناول طعامهم على مطاعم الأرصفة في المدينة القديمة. وجدت المجموعة التي تطوّعت معها تنتظـــرني في فندق (Auerstein Dependance). رجل من أصـــول ســـوريّة وزوجته الألمانيّة، نادر وأولغا. لديهما مشروع لدعم اللاجــئين السوريين وإدماجهم في المجتمع بالتعاون مع مؤسسة المهـــاجرين المدعومة من قبل بلديّة هايدلبرج. نحن في دار النشر تبرّعنا بطباعة قصصهم ونشرها، وجعلنا ريعها للمشروع. كان المقرّر أن تُعقد في اليوم التالي أمسية قصصية - موسيقية في مقرّ البلديّة للاحتفال بإطلاق الكتب. نادر مهندس ميكانيك، درس في بـــرلين منـــذ أواخر سبعينيّات القرن العشرين، يحمل الجنسيّة الألمانيّة، وأولغـــا هي زوجته الثانية، وقد عملت وقتاً طويلاً مع المنظّمات الدوليّة لإغاثة الثقافة في مدن الحرب. دعـــواني إلى الغـــداء في بيتـــهما القريب من الفندق في منطقة (هاندشوسايم). مشينا على أرصفة هايدلبرج الواسعة لنصل إلى مقرّهم، وهو صالة واسعة يعرضون فيها الأعمال الفنيّة للفنّانين الذين يستضيفوهم من حول العالم، ويقيمون فيها أمسيات ثقافيّة وموسيقيّة، وفوق الصالة يقع بيتهما الصغير، الذي يشبه متحفاً أيضاً. كان الرجل قد طبخ لنا دجاجاً بالخضار، وحضّر سلطة خضراء بالبندورة، وصفّ أمامي علـــى طاولة الطعام في المطبخ قواير من البهارات، جـــاءا بهـــا مـــن مدغشقر، وملاوي، ووادي الذهب... الموســـيقى في بيتـــهما أخذتني إلى عالم مجهول، موسيقى من أعالي جبال كازاخستان،

ومن كثبان الرمل في الصحراء الكبرى، تحمل روح الصبر الأمازيغيّ على مقامات عربيّة مهجّنة بموسيقى الميتال، ويحكي أكثرها حكاية المهاجرين من بلادهم، والخارجين على سلطاتهم، الذين جاؤوا إلى أوربة بحثاً عن الحرّيّة، وعن الرعاية والتعافي. يحوّلون آلامهم إلى معارض للتذكارات، وتصير أوطانهم صناديق تبرّعات، وقبّعات للتسوّل، يضع فيها المتبرّعون يوروياتهم، مقابل الدبكة والفلافل والشاورما والحلويات المحليّة... طلبت إلى نادر أن يسجّل لي ما يتوافر لديه من تلك الموسيقى على (فلاش)، فأعطاني إيّاها مساء اليوم التالي.

كان معنا رجل صامت طيلة الوقت. عرّفاني إليه بصفة صديق. اكتشفت لاحقاً أنّه الزوج السابق للسيّدة أولغا، التي لم تلد منه أبناء. خمّنت أنّ غونتر، وهو طبيب نفسيّ، يعمل معهما في الجمعيّة، أي يساعدهما في تقديم الدعم النفسيّ للاجئين مثلاً. نفى غونتر ذلك، وقال إنّه صديق مقرّب يشاركهما نشاطاتهما الثقافيّة، وهو متخصّص في علاج الأزواج المنفصلين! بالنسبة لي، ليس غريباً أن تأتي الأشياء المناسبة وقت الحاجة إليها، وعلى غير ترتيب، فالصدفة صنعت العالم.

بدا غونتر رجلاً كئيباً. عيناه محمرّتان من الإرهاق أو الأرق، وشعره داكن كثيف، مفروق إلى الجانب. أبيض البشرة. هيكله ضخم، لكن يبدو أنّه فقد وزناً، فتهدّلت أكتافه. يراقب زوجته السابقة وزوجها باهتمام. يجلس على الأريكة وهو متكتّف.

تساءلت بيني وبين نفسي عن موقفه من زواج زوجته، وإذا ما كان يشعر تجاهها بالحبّ أو بالغيرة، وبدا لي أنّه ليس مهتمّاً بهذا الموضوع. بقيت أتفحّص أولغا التي تضع إكسسوارات من الشرق: قرطاً كبيراً من الفضّة على شكل حلقة، وسواراً عريضاً مرصّعاً بالفيروز. أشياء لم يعد المرء يشعر بأنّها محطّ إعجاب، بقدر ما هي إشارة إلى عالم ضعيف ومنتهك!

حزّت في نفسي عبارت كارمن المتعلّقة بنا! كيف تجرّأت على قولها، من غير أن تحسب حساباً لمشاعري! وشعرت بالإهانة، واختنقت بعبراتي، وأردت أن أمضي... لكن بما أنّه لاخيار لي، فيجب أن أخترع مسوّغاتي: إنّ كارمن تتكلّم بموضوعيّة، وتكاشفني بدواخلها، ولم تقصد إهانتي. إنّها طيّبة ومعذّبة، والأهمّ أنّها صديقة قديمة، زارت بيتنا، وعرفت أمّي وجدّتي و(عبّود). لا أحد في جغرافيا الراين كلّها عَرَفَ عائلتي سواهما هي ونيكولاس!

تابعت كارمن:

عرفت أنّ غونتر ونادر صديقان من قبل أن يتزوّج الأخير أولغا، وأنه مطمئن عليها مادامت مع صديقه! أنا أفهم ذلك، لكنني أعجز عن أكون طرفاً في مثل هذه العلاقات. يقال إنّ النساء بعد خروجهنّ من العلاقة، لا يأبهن لأزواجهنّ السابقين بل يلمن أنفسهنّ على سوء الاختيار، وبمجرّد أن تستعيد المرأة حريّتها تمضي وتمحو من خلفها آثار الطريق. في حين تحلو بعين

الرجل حينما تنتقل إلى آخـــر، فيســـعى وراءهـــا، ويحـــاول استرجاعها. هربت الفريسة بالنسبة إلى الصيّاد! لقـــد وجـــدت ذلك حريّاً بالحقيقة، ما رأيك أنتِ يا لولو؟

- لا أعرف.

هكذا أجبتها، لأنّي فعلاً لا أعرف. كنت ســـعيدة برفقـــة كارمن! الاستماع إليها أشبه بالدخول إلى طنجرة ضغط، تجعلك تنضج تماماً، وفي وقت قصير جدّاً، وأنا أحوج ما أكون إلى جسر الخبرات لينقلني إلى مرحلتي القادمة. إنّها الآن معلّمتي.

تابعت كارمن حديثها بعد أن طلبت بعد الوجبة نبيذاً أحمر مع مثلّث من جبن الماعز وقطعة خبز، واكتفيت أنا بفنجان من الشاي، لكنّ يدي بدأت تتسلّل إلى خبزها وجبنها. لقد فتحت شهيّتي على الطعام، تأكل وتتكلّم، وقد تلعق أصابعها! تقزّزت حين لاحظـــت ذلك، ثمّ تغاضيت. لابدّ من أنّه الاندماج! أشارت كارمن إلى أنّها سعيدة جدّاً بتنشيط لغتها العربيّة، فالترجمة وحدها التي تقوم بها بين اللغتين لا تغني بأيّة حال عن ممارسة الكلام، وإن كنّا أنـــا وهـــي نتبادل عبارات كثيرة بالإنكليزيّة السائغة على لسان كلتينا:

التقطت غونتر ينظر إليّ أكثر من مرّة، ويبتسم. بصـــراحة كان وسيماً جدّاً، وتصعب مقاومة كآبة العارفين التي يمتلكهـــا، وكذلك قدرته على العبور بعـــذابات النـــاس، والـــدخول إلى تاريخهم، وتقييم تجاربهم، ولمس أرواحهـــم، وتغـــيير ترتيـــب الأحداث في أدمغتهم. اعتداده بنفسه ساحر أيضاً، يستمع جيّداً،

بعدها يقفل أيّ حديث برأيه. ليس من أولئك الأطبّاء النفسيين الذين لديهم بروتوكول شكليّ، أو يحبّون الإغراب، فيرتدون الأسود الدائم على أنّهم (هيبسترز)، أو يضعون البيبون طوال الوقت، أو لديهم مظهر شكليّ يشير إلى أنّهم خارقون. أبداً! كان غونتر أنيقاً في بليزر من الكتّان الزيتيّ وبنطلون جينز كحلي، وقميص أبيض يشع بنظافته، لكنّ عينيه جامدتان، وكأنهما نحتا مؤخّراً من الرمد، ولعلّه نوع من الحساسيّة. أخبرني نادر أنّ غونتر أنجح الأطبّاء النفسيين في هايدلبرج، وأنّه عالج أحد لاعبي (بايرن ميونخ) من عقابيل أزمة نفسيّة قاسية، تحوّلت إلى تعطيل جسديّ، بعد تخلّي حبيبته عنه.

قررنا الذهاب إلى المدينة القديمة. يجب أن تزوري هايدلبرج لولو! سنذهب في وقت قريب، أنا وأنت ونيكولاس. كانت تلك زيارتي الأولى لها أنا أيضاً، تخيّلي خلال الخمسين سنة من عمري، لم يتسنّ لي زيارتها، وهي ليست بعيدة عن كولونيا. ثلاث ساعات فقط!

- فاجأتِني يا كارمن، كيف! هايدلبرج أكثر مدينة دلّتني عليها المواقع الإلكترونيّة التي أتيح لي تصفّحها حين رتّبت للقدوم إلى ألمانيا. لكن يحدث طبعاً، فأنا أيضاً لم أزر المدن السوريّة كلّها خلال ما يزيد على خمس وثلاثين سنة من عمري قضيتها في الوطن!

- أرأيتِ!

قالت، ثمّ تابعت حكايتها:

عبرنا بوّابة البلدة القديمة، وهناك وضع لي رأسي في خـــوذة تمثال الحارس، حيث يتجمّع السيّاح لوضع رؤوســـهم فيهـــا، والتقاط الصور. التقط لي صورة أيضاً بكاميرا يحملها على كتفه، وقال إنه سيرسل لي الصور كلّها بالإيميـــل. كـــان محترفـــاً في التصوير. استلقى على الأرض محاولاً أن يأخذ لي الصورة كاملة من تحت إلى فوق، فانحسر قميصه عن بطنه، وظهر لون جلـــده البنّي المشقر، لون جميل! وبطنه مسطّحة تظهر فيهـــا الثنيـــات الصغيرة التي تجعلها طريّة مثل عجينة بيتزا صـــغيرة وشـــهيّة! ثمّ مشينا ومشينا وعلى جانبينا المقاهي والحوانيت، وصعدنا بالقطار المعلّق إلى القلعة، وأشرفنا على الجسر. لفّ رأسي جهـــة النـــهر وقال: إنّه أجمل مكان في العالم! كانت المدينة بسقوفها الآجريّة الحمراء تحتنا، وفي الأفق البعيد خلف غشاء رقيق من الضباب تقع القمم البيضاء لجبال الألب السويسريّة، الــ (مون بلان). قال لي إنّ مجموعة من رجال الأعمال كانوا يجلسون هناك على شرفة، بعد أن صمّموا قلم مون بلان الشهير، محتارين في اختيار اسم له، وفجأة نظر أحدهم إلى قمّة الجبل أمامه بالنتوءات البيضاء مـــن حولها، وصاح: مون بلان! فكان الشعار. هكذا هـــي لحظـــة الكشف، اللحظة العبقريّة التي نتنبّه فيها إلى الاستثناء الذي تحتفظ به الأشياء التي اعتدناها. قلت لــ غونتر: لعلّك تقصد أن نغيّـــر زاوية الرؤية، فالاستثناء فينا، وليس في الأشياء الموضوعيّة.

وافق غونتر من غير نقاش، وأنا يعجبني الرجال الذي ينتصرون للحقيقة! أمسك بكفّي قليلاً، ثمّ تركها، ولفّ بذراعه كتفي، وكان يقرّبني إلى صدره كلّما مشينا عدّة خطوات، كأنّه يحميني من تاريخي. ومن غير أن يجلسني على أريكة التحليل النفسيّ أو ينوّمني مغناطيسيّاً، حكيت له كلّ شيء، ببساطة، وبلا وجل، وبمنتهى الثقة، وكأنّني أمام شبح أو مرآة، بل أمام كاهن الاعتراف في كنيسة بعيدة، لا يعرفنا ولا نعرفه. تصدّقين يا لولو أنا لم أعترف ولا مرّة! لكن يخيّل إليّ أنّ الاعتراف شيء مريح، لا من أجل أن يسامحنا الرب فحسب، بل من أجل أن نشعر ببشريّتنا، لتقول لنا سلطة ما إنّ ما اقترفناه من إثم هو أمر طبيعيّ، وإنّ من حقّنا أن نضعف وأن ننكسر، وسنقوم أجمل وأثمن. قال غونتر إنّني امرأة قويّة، فأمسكت بسور الجسر، وانفجرت... قلت له إنّني مهزومة، ولا أمتلك من الأخلاق سوى الإدانة للحروب وغياب العدل والظلم، وإنّني وصلت إلى ما أنا فيه من خلال بعض التجاهل، وكثير من القسوة والتخلّي، وإنّني استخدمت وسيطاً روحيّاً لأتحدّث مع أمي الميّتة، وأجهضت خمس مرّات لأنّ قارئ طالع أخبرني أنّني سأفقد ابناً شابّاً حين أبلغ الأربعين، وأنّني اهتممت بكوكو شانيل، وكلوديا شيفر، ويواكيم لوف، وإنّني اخترت الرقم سبعة، حين طلب منّي ولد متعجرف أن أختار رقماً بين الواحد والعشرة، ثمّ قال لي ذلك الولد إنّني تقليديّة، وإنّ العاديين سيختارون خمسة أو سبعة

بالتأكيد، وإنّه حين خضع للاختبار ذاته اختار الرقم 2.4، وقد جعلني كلام الولد مكتئبة لشهر!

قال غونتر وهو يشدّ ذيل الحصان في شعري إلى الخلف بلؤم: لا شكّ أيضاً في أنّك رقصتِ مع رجل، قد رقص مع فتاة، قد رقصت مع أمير ويلز؟!

كان يسخر منّيييي! ثمّ أردف بحنوّ: هذا كلّه جميل، جميل جدّاً، وقرّب رأسي إلى عنقه! وحين حدثته عن انجذاباتي الجنسيّة قال إنّي أنتمي إلى الـ Sapiosexual وإنّي حتماً سأنجذب إليه قياساً على ذلك، وإنّ ذلك يعود إما إلى أنني كنت كسولة في المدرسة ولدي عقدة من المتفوّقين، وإمّا أنني أنانيّة لدرجة قتل الأشباه أو إيذائهم على أقلّ تقدير، وأضاف ببرود: لا بدّ من سفك بعض الدماء للوصول إلى القمّة، ولا بدّ أيضاً من شيء من العقد الجميلة كي نستطيع مواصلة الحياة ببعض الشغف، وتابع غونتر:

- لا أخشى عليك من أزمة نفسيّة ما دمت على وعي بما حدث، وتعرفين ماذا ستفعلين، لاسيّما أنّك ترغبين في العودة إلى الكتابة. اكتبي، فالعلاج هو مواصلة العمل...

مضينا يداً بيد داخل ساحات القلعة وحدائقها، وحضرنا عرضاً لروميو وجولييت، أدّته فرقة محليّة تجمع التبرّعات للاجئين أيضاً، ثمّ تناولنا كأساً من نبيذ (الترولينغر) في حانة القلعة التي

كانت مستودعاً ضخماً للخمور منذ القرن الثالث عشر، لَأَمْنا بها بقيّة المسافة. لم يحدّثني غونتر عن نفسه، ولم أسأله. اعتبرته حتّى اللحظة طبيباً، والطبيب يسأل ولا يُسأل عن حاله، وقلت في نفسي يبدو أنّ أمامنا وقت، لذا لن أستبق الأشياء بأسئلة يمكن أن تعطّل حركتها.

نزل وقتها مطر رشيق تجولنا تحته في شارع الشوكولاه. دخلنا مقهى وتناولنا مشروباً اسمه (إكسير المتعة). وضع اللولب الذي يحرّكون به الشوكولاه كي تذوب في كأسه، وبدأ يفتله: انظري، هكذا... أعادني باهتمامه المرح عشرين سنة إلى الوراء! أنا لا أشرب الشوكولاه ونادراً ما آكلها، إذ أخاف على وزني، لكنّني مضيت معه حيث أخذني، ففي اللحظة المناسبة علينا أن نتخلى عن عاداتنا، لنكتشف في أنفسنا الغرف التي ما تزال مغلقة. من يومها اكتشفت غرفة الشوكولاه التي في داخلي، وليتني لم أفعل، إنّها لذيذة، وبالكاد أمنع نفسي عنها. انحدرنا من القلعة إلى شارع الجامعة، حيث كان علينا العودة للأمسية الثقافيّة، جلسنا متلاصقين في الباص، وأشرق قوس قزح...

لم يفوّت غونتر وداعي صباح اليوم التالي، يوم عودتي إلى كولونيا. كان يوم أحد، ويفترض أن يبقى المرء في فراشه حتّى ساعة متأخّرة نسبيّاً. لكنني وجدته في مطعم الفندق. قال إنّه سيُفطر معي وسيبقى حتّى آخر لحظة، وذلك كلّه يعني أنّ جولة أمس لم تكن حدثاً عابراً أملته الظروف السياحيّة. دردشنا ونحن

نتناول الشاي، وأكّد على أنّني لا أعاني من شيء، وأنّني داويت نفسي تلقائيّاً بالتصعيد، وأنّني بحاجة إلى رفقة جيّدة، إلى الضحك، وعلى أنّ أفضل الناس قد يكونون أصدقاء أيّة مرحلة سعيدة، ربّما الطفولة أو الجامعة، أيّ أشخاص لدينا معهم ذكريات محبّبة، ثمّ قال إنّ هناك اقتراحاً آخر: يمكنني أن أنزل في مصحّ، هنا في هايدلبرج، وإنّه سيكون معي يوميّاً. أجفلتني الفكرة، خفت فعلاً! فقال: لعلّني أسأت التعبير، هو بمنزلة منتجع، علاجات طبيعيّة، وبرامج نقاهة، وجلسات مواجهة مع الذات لسحب الآلام النفسيّة، التي يحوّلها الوهم بفعل الزمن إلى آلام جسديّة. قال قد تكون آلام المفاصل التي أعاني منها نتاجاً لذلك! انكمشت على نفسي، فأنا أعرف مغبّة الدخول في مثل هذه المتاهات. لن يستطيع المرء بعدها إقناع ذاته بأنّه صحيح وليس من عالم المجانين!

حمل غونتر عنّي حقيبتي الصغيرة، ووضعها في المقعد الخلفيّ لسيّارتي. صعدتُ، وأغلق الباب عليّ. كان ندى الصبح قد تكاثف على الزجاج، فوقف عند النافذة المقابلة لنافذة السائق ومرّر إصبعه على الزجاج، وكتب لي بطريقة المرآة، التي كان دافنشي يكتب بها وصفات اختراعاته السريّة: (Bleibe bei mir)، ابقي معي، وتحتها (bitte) أرجوكِ! شغّلت السيّارة، وفتحت النوافذ، وبقيت مكاني كأني أريد أن أذهب ولا أذهب. شعرت بحرارة تجتاح جسدي، وبأنّ اللون الأحمر قد صبغ حتّى بياض

عيني، وبتلك الخفقة التي تعتري القلب، حينما يفاجأ بسعادة غير منتظرة أبداً، تصير ابتسامة عريضة لا يمكن إخفاؤها. التــفّ إلى نافذتي. نظرت إلى هندامه، حلق ذقنه اليوم، قلب كمّي قميصــه الأبيض المنشّى قلبتين عريضتين، وبنطلون الكتّــان الكحلــي، والحذاء الرياضيّ الرماديّ الذي يجعله أكثر شباباً من الخامســة والخمسين... بدا أصبى منّي، وكان يشبه يواكيم لوف، ومثلــه ربط كنزته الصوفيّة الزرقاء حول رقبته، وغبطت ذاتي على ما أنا فيه، وهو يمسك بيدي ويقبّلها، ثمّ سحب الثانية، ومرّغ وجهه في قلب كفيهما، مثل جرو صغير يحكّ رأسه ببطن أمّه... هل هذه بداية رحلة حبّ، أم طعم سيحوّلني به الدكتور غونتر إلى حالة طبيّة؟ لا يمكن أن أثق بالأطبّاء النفسيّين! إنّهم يفعلون أيّ شيء ليثبتوا سطوهم وصحّة نظريّاهم التي درسوها، كأنّ نفس الإنسان قطع (ليغو) يعيدون ترتيب أحجارها. يبنون ويهدمون، ويغيّرون الألوان والأحجام حسب رغباهم، ويقنعونك بأنّ هذا هو مجسّم بنيانك النفسيّ. بصراحة لقد تعلّقت بـــ غونتر، بعد أن حكيت له كلّ شيء، فصارت مفاتيحي معه، وصار قادراً على التحكّم بكياني النفسيّ. أحببت أن يحبّ صدقي وضعفي، وأن يعجــب ببطولاتي ويربّت على جراحي. كلّمني بعد أسبوع تقريباً، وقال إنّه بدأ يقرأ كتابـــي Bahia باهيا، كتاب صغير عن تجــربتي في البرازيل، حيث عشت هناك سنةً. أنا كنت قد تناسيت لقاءنــا، ومرّرته مثلما نمرّر ملاطفة أنيقة، تمنحنا رشّة من الثقة، لا نـــبني

عليها شيئاً. لكنّ الخطوة الجادّة للاقتراب من كاتبة هو البحث عن أعماقها المحجوبة داخل أعمالها، عن لغتها، وأفكارها، وأبطالها. ما زلت أجهل ذلك السبب الذي جعل غونتر يذهب إلى كتابي بمثل هذه السرعة. لا، ليست الرغبة في القراءة، وقته أقلّ من أن يفعل ذلك، إنّه مشغول كليّاً بعالم مرضاه المخيف.

* * *

تأخّرت كارمن في نومها. ذهبت لأتفقّدها، مررت بحذر أمام الباب مرّتين، و لم تكن قد استيقظت. وقفت عند العارضة أتأمّلها، ففتحت عينيها. بدت بعرْيِ كتفيها الصفراوين والشراشف البيضاء الملفوفة حولها مثل وردة محاطة ببتلاتها اللولبيّة، وتحت رأسها وسائد ربّما ثلاث، وبين يديها أخرى تحتضنها. وسائدها طريّة، وأنا لم أتمكّن من النوم جيّداً بسبب تلك الطراوة. كأنّنا كلّما قست همومنا، نصير بحاجة إلى وسائد أقسى يمكنها حمل أعبائنا، وأفكارنا، وذكرياتنا، وسائد عالية محشوّة حشواً بالصوف، لا بالبوليستر أو الريش، تلبيستها زهريّة أو فستقيّة أو زرقاء، كالتي كان يحضرها فرحان من السعوديّة، مطرّزة بعبارتي (صباح الخير)، و(تصبحون على خير)!

بعد أن شربنا قهوتنا فتحت كارمن خزانة في المطبخ، وتناولت ألواحاً ثلاثة من الشوكولاه التي لابدّ من أنّها فاخرة. أنا ليس لي موقف من الشوكولاه، لكنّني عموماً أفضّل البيضاء،

فتناولت لوحاً منها. شوكولا بيضاء بالبرتقال، وتمنّيت لو كانت ماما معي، لقد كانت تحبّ الشوكولاه البيضاء أيضاً!

تابعت قصّتها عن غونتر، وأنا أستمع إليها بشغف، وأعاود ملْءَ كوب قهوتي كلّما فرغ:

بعد أقلّ من شهر زارني غونتر هنا في كولونيا. لم نخرج من البيت، جلست أنا على هذا الكرسيّ، وتمدّد هو على الأريكة التي تجلسين عليها الآن، ومضينا في حديث ليس له ضفاف. منذ أكثر من سنة لم أكن مع رجل وحيدين في غرفة، وقبلها بعشرين سنة لم أكن سوى مع بسّام، لذلك حين اقترب منّي خفت من ألاّ أعرف كيف يتلامس رجل وامرأة، وخفت من شكل جسدينا أيضاً! كان مندفعاً وكأنّه قد خطّط لذلك، أنفاسه صارت حارّة متقطّعة وهو يمسك بأردافي، لم أكن مستعدّة، وشعرت بأنّ جسدي ثقيل ويفتقر إلى الجاذبيّة، وقد وطِئهُ العمر! صرت أدفعه عنّي وأبكي، لكنّه أسقط أوهامي أنْ هدأ، وراح يهمس في أذني بكلمات دافئة ورجاني ألاّ أخاف منه. حين نظرت في عينيه، وجدت عشرات القتلى، والخونة، والفاشلين، والمغرورين، والمحبطين، والمضروبين، والمدمنين... وسمعت في زئيره المكبوت صراخاً لمعذّبين وأصداء نحيب. في الحقيقة كنت خائفة على نفسي وحزينة على الحال التي وصلت إليها في عدم ثقتي بجسدي. ساعدني غونتر بلمسات أصابعه الرقيقة وهو يمرّرها على ظهري العاري، إلى أن غمست أصابعي ثمّ شفتيّ في عجينته الأسطوريّة!

قبل هذا الحدث اعتقدت أنّنا في سباق حول من سيستغل الآخر أوّلاً! سأحوله إلى مادّة للكتابة في حين سيظنّ أنّه حوّلني إلى حالة دراسيّة، ولن أسمح لنفسي أن أكون قريبة ومكشوفة أمام أحد لهذا الحدّ. أنا أصلاً أخاف من أن أدخل إلى ذاتي، وإذا ما تجرّأت على الدخول إلى منطقتي المعتمة والنبش فيها، يخيّل لي أنّني وقتها سأتمكّن من فعل أيّ شيء، قد أسرق، وقد أقتل، وقد أسطو على رجال الأخريات، سأكون حتماً بلا أخلاق. لكنّ فكرة السباق تلك سقطت على هذه الأريكة، وبين ذراعيه الآمنتين حكيت له عن أبي وأمّي...

كان ذلك في الأوّل من أيلول من العام 1939، حيث كانت مجموعة من الحسناوات يستلقين على شاطئ نادي (سوبوت) في خليج مدينة دانزيغ البولنديّة، وكانت بينهنّ (ماريون) الصبيّة التي ستصير فيما بعد أمّي. كانت في السادسة عشرة تقريباً، وهي ابنة لبائع مطرّزات يدويّة، يمتلك حانوتاً صغيراً في السوق الطويل، المركز التجاريّ الأهمّ في البلدة القديمة، وكان يوظّف مجموعة من النساء يعملن من البيوت، في تطريز المفارش والوسائد، والبلوزات الفولكلوريّة بورود الخشخاش الحمراء والصفراء، وزهر الليليوم الأزرق. كانت أمّي وجدّتي يقمن بأعمال التطريز أيضاً، ويباع ذلك للسيّاح الذين يأتي معظمهم من غرب أوربة.

أواخر الصيف في دانزيغ لا مثيل لسحرها! يودّعون فيها الشمس والكرز ونوارس بحر البلطيق، ويستقبلون النسائم الباردة

القادمة من الشمال بشرب الكثير من بيرة (تايسكي) مع جبنة الماعز. لن تعرف أمّي وصويحباتها أنّها المرّة الأخيرة التي سيجتمعن فيها في بلدهنّ الأمّ بولندة، والتي كانت دائماً محلاًّ لنزاع! بين بروسيا وفرنسة، أو بين روسيا وألمانيا. مرّة تكون محتلّة وأخرى مستقلّة، وثالثة تُعلَن منطقة دوليّة، وقد مرّ عليها كبار قادة أوربة العسكريين: نابليون، وهتلر، وروميل! توقّف الأطفال عن اللعب ورفعوا رؤوسهم نحو السماء، وقد أجفلهم أزيز الطائرات! لقد بدأت الحرب، التي ستسمّى بعد حين بالحرب العالميّة الثانية، وستفني ما يزيد على ستين مليون من البشر، وسترسم قادمات أيّامنا.

تسارعت الأحداث في دانزيغ، وبدأت إعدامات المدافعين عن بيوتهم وأعمالهم. ومع سرب طائرات الـ (استوكا) الألمانيّة المقاتلة، حطّت غيوم رماديّة في السماء واختفت الشمس لتساهم الطبيعة في صناعة المشهد الكئيب. لم يغادر الناس الشاطئ محاولين بممارسة نشاطهم الاعتياديّ إيقاف تقدّم الحرب، والحفاظ على سيرورة حياتهم اليوميّة، لكنّ الحرب إذا ما انطلقت، لا شيء يوقفها.

وضعت ماريون عليها ثوب الكتّان الأخضر القصير فوق ثياب السباحة الرطبة، وحملت حقيبتها القماشيّة، وبدأت تهرول وخصلات شعرها الحمراء الطويلة تلحق بها. قفلت عائدة نحو البيت، وكان أمامها حوالي خمس عشرة دقيقة لتصل إلى (غون

مياستو) حيث منزلهم في الشوارع الخلفيّة للحيّ التجاريّ الذي يضمّ حانوت أبيها، وحين مرّت أمام كنيسة (سانت ماري) العظيمة، دفعها القلق إلى الدخول، فقرّرت أن تتوقّف قليلاً للصلاة. هي تفعل ذلك من حين لآخر، متردّدة على الكنيسة القوطيّة ببوّاباتها السبع، والتي تقف برسوخ غير آهة بسلسلة الحروب والهجمات التي حاصرتها منذ القرن الرابع عشر، مثلها مثل الأوابد المحفوفة بالمجد، والتي كلّما وقعت تجد من يقيمها، ويكسبها عمراً جديداً نسمّيه حقبة!

ظلّت هذه الكنيسة حائرة في هويّتها بين الكثلكة والبروتستانتيّة. مرّة لرعايا هذه وأخرى لرعايا تلك، وثالثة لهما معاً، لكنّها كانت تصنع هويّتها بحجارتها الحمراء، وأقواسها المجنّحة، وأدعية المضطرّين، متجاهلة نوايا أولئك الذين إن لم يجدوا ذرائع للحرب، فسيمكّنهم خيالهم الخصب من اختراعها. ركعت ماريون أمام أيقونة العذراء الذهبيّة. كان هناك ناس كثر من أهل دانزيغ، ولم يكن هناك سيّاح أو غرباء. حشدت سلطة المدينة المحليّة الشباب للتطوّع، وبدأت أقبية الكنيسة وأفنيتها الخلفيّة تمتلئ بالمعونات، ولم يعد ثمّة شموع لإيقاد النذر. دعت ماريون الله ليزيح هذه الغمّة، وأن يحمي بلادها وعائلتها وبيتها! خرجت وقلبها ثقيل، فلم تفعل الصلاة فعلها. أعادت ذلك إلى أنّها لم تذهب منذ وقت طويل لتصلّي، وشعرت بالخزي لنفعيّتها، مع أنّها كانت تتبرّع باستمرار، كما أنّها من عائلة

ذات صلة قويّة بالدين، توثّقت بعد المدّ الشيوعيّ الذي اجتاح أوربة الشرقيّة، والذي جعل التعلّق بالكنيسة طريقة لمقاومة الروس. الجميع كان يعرف أنّ حفاظ هتلر على هيبته سيكون بالسيطرة على دانزيغ، لذا ستقوم حرب أهليّة، فالحلفاء لن يسمحوا له بأن يأخذ هذا الممرّ الحسّاس على البلطيق. كانوا مؤمنين أيضاً بأنّ بولندة للبولنديين أيّاً كانت أصولهم روساً أم ألماناً، ولا يمكن لأيّة قوّة أن تلغي كياناً قد تخلّق، وتمتّع بحقّه في الوجود، وذاق حلاوة الوطن المستقلّ!

عبرت ماريون أمام الواجهات الملوّنة للعمارات ألمانيّة الطابع، والتي تشعرها بالسطوة، لم تكن الحركة عاديّة في الشارع الرئيس للبلدة القديمة. بدأ الناس يلتجئون إلى بيوهم مع مشهد الطائرات التي تحلّق على ارتفاعات منخفضة، والتي دفعت الأطفال ليلوّحوا للطيّار مؤكّدين على أنّهم يرونه خلف المقود!

مرّت بحانوت أبيها. كانت أمّها (جاكلين) تكوّم بقيّة البضائع في الداخل بعيداً عن الباب. رفعتها على طاولة كبيرة، وغطّتها بشراشف بيضاء معدّة للتخزين. لم تكن كثيرة، إذ لم يكن هناك طلبيّات، فحركة السياحة ضعيفة جدّاً، ونقل الأشياء إلى البيت فكرة عبثيّة. كانت جذورهم الألمانيّة تمنحهم الطمأنينة تجاه هجوم هتلر، لكنّ القنابل والطائرات ليس لديها مجسّات لكشف الأصول أو الانتماءات أو مشاعر الولاء.

سألت ماريون عن والدها، فقالت لها جاكلين إنّه مع إخوتها في البيت يرتّبون أمر المؤن، ويغلقون السطح بالحجارة، ويعدّون القبو للسكن... قد تطول الحرب، وهو سيمنع إخوتها من الانضمام إلى المدافعين عن مكتب البريد. أحد ما سيفعل ذلك، وليس بالضرورة أن يكون نحن. قبل إغلاقهما الحانوت سُمع دويّ في الأحياء الخلفيّة القريبة. انبطح الجميع على أرض الشارع. كان معظم شباب دانزيغ قد أخذوا دورة في التأهّب للكوارث والإسعافات الأوّليّة. الانفجار القريب نسبيّاً هزّ المكان، وبدأ البشر يركضون في الاتجاهات كلّها. انقبض قلب ماريون، قامت مع أمّها وركضتا وقدماهما تسبقان جسديهما. كلما اقتربا من المنزل كان الدخان يتكاثف، ورائحة الاحتراق تصير أكثر نفاذاً، فتزداد ضربات قلبها، وكأنّ شيئاً يخبرها أنّ الكارثة حلّت عليها شخصيّاً، وهذا ما كان. دمّر الحيّ بالقذائف المتفجّرة، وقتل أبوها وأختها وأخواها. تعطّلت حواسها وتوقّفت ذاكرتها، في حين كانت أمّها تأمل أنّ أحداً من أولئك الأربعة لم يكن في المنزل! كان الدمار كبيراً بحيث أنّ عمليّة البحث تحت الردم مستحيلة.

حين حلّ المساء ولم يعد أحد، أدركتا أنّهما بقيتا وحيدتين في العالم. جاء المتطوّعون المحليّون، ونقلوا المنكوبين إلى الأماكن التي يريدون الذهاب إليها، فذهبتا إلى بيت العمّة (ليز) في الريف الغربيّ، عبر طريق يغصّ بالأحصنة والسيّارت المحمّلة باللاجئين،

وقضتا هناك فترة الحزن. كانت الحرب قد اشتدّ أوارها، وحصل الصراع بين أنصار السوفيت والألمان، وتمزّقت روح دانزيغ، والتي كانت متأهّبة لذلك، بين روسيا وألمانيا. القوات البحريّة البولنديّة اتجهت نحو إنكلترة، ودُمّر سلاح الجوّ، ومع ذلك قاتل البولنديّون بشجاعة حتّى أنّ الطيّار (سكالسكي) أسقط وحده ثماني عشرة طائرة ألمانيّة، وتعرّض (راسينسكي) للتعذيب من قبل الألمان لرفضه الكشف عن رموز الاتصالات البولنديّة وقتل، ونقل أفراد من المعارضة السياسيّة ومثقّفيها إلى مواقع تعذيب جماعيّة، ونقل اليهود إلى فلسطين ولم يبق في المدينة سوى المسنّين منهم.

في أوائل تشرين الأوّل كانت (وارسو) قد استسلمت بعد سقوط قوّات يوليوس رومل، فغادرت ماريون وأمّها جاكلين إلى ألمانيا، مشفوعتين بإعلان الولاء للجذور التي تحملانها. كانتا في الحقيقة مواليتين للحياة، تبحثان عن أيّ ملجأ، وتمقتان الأطراف جميعها! تحرّكتا إلى الشمال مع قافلة من اللاجئين والكهنة الذين حملوا أجراس كنيسة سانت ماري ليزرعوها في (لوبيك)، في كنيسة ستحمل الاسم ذاته، لتذكّرهم دائماً بالمكان الذي جاؤوا منه. عملتا في ورشة صغيرة لصناعة حلوى (المارسبان)، المسكوبة من اللوز والسكّر، لكنّ عائداتهما لم تكن كافية لمصاريف الطعام والسكن، فانتقلتا إلى فرانكفورت بعد أن سمحت حركة القطارات بذلك. في حين التحقت جاكلين بعمل مأجور في

ورشة خياطة، عملت ماريون متطوّعة في مستشفى لتضمن المؤن التي صارت متوافرة بقدر كاف في البيت. كانت ماريون شغوفة بالقراءة، وصار لها ميول سياسيّة في التصدّي للـــروح الألمانيّـــة، حاولت التعبير عنها بأشعار رمزيّة تنشرها في صـــحيفة محليّـــة، وصار لها مجموعة من الرفاق تقضي معهم أماسي السبت في حانة قريبة من المستشفى، يتداولون آراءهم السياسيّة وتطلّعاهم مـــن وراء المرح والنكات القذرة، وكلّ منهم يبحث في الآخر عـــن شخصيّة المخبر. مضت سنوات في ظلّ الحـــرب، واكتســـبت ماريون طبقة إضافيّة من الحسن، صـــاغها الأســـى والكفـــاح المسؤول.

* * *

قلّت الأقمشة، فضاقت الثياب، وارتفعت الأثواب إلى فوق، وصبغت الروح العسكريّة ملابس المدنيين في الشارع، فوضعت ماريون على رأسها التوربان الأزرق المغوي بعقدته المخمليّـــة، ولبست تنورها الرماديّة القصيرة مع قميص أبـــيض، وذهبـــت لنوبتها المسائيّة حيث كان (هانز شاخت) طيّار الـــ (مســـر شميدت) المخذول قد صحا على آلامه بعد يومين من الغياب عن الوعي. لقد قُصفت طائرات سربه وهي على الأرض، وأصـــيب جرّاء القصف بشظايا حارقة. كان حزنه على طائرته غير قابـــل للمواساة، وبقاؤه على قيد الحياة كان أمراً مؤسفاً في ظلّ تضاؤل

الأسطول الجويّ الذي كان قاهراً، فساءت إمكانيّته وسمعته، وصار ذليلاً.

كان أكثر روّاد تلك الغرفة في المستشفى نائمين، والآخرون يتبادلون الأنين. معظمهم فقدوا أعضاء، وكانت الضمادات تلفّ الأجساد محوّلة إيّاها إلى مومياءات مقبرة فرعونيّة. وحدها ماريون تنبعث منها الحياة، تجلس على كرسيّ جانبيّ وتمدّ ساقيها على حافّة سرير شاخت في نصف استلقاءة، وتتلو عليه قصيدها:

الرفاق حولي مكبودون بالعشق،

وأنت تركت رحمي بلا نجمة أو تذكار!

مثل دبّابة بانزر محروقة،

في غرفة معطّرة بالفورمول...

سأبادلك اللوز، في سرير رماديّ،

بين الموسيقى، وقهقهات جنيّات القصر،

في صحن حسائك سأقفز مثل بذرة خشخاش

مثل سمكة رنجة ضائعة،

وستفتح عينيك الآن لتراني،

ستفتح عينيك لترسم وردة!

لم يكن من سبيل سوى أن تنعقد حبال الحبّ، والتي تكون في الحرب في أمتن حالاتها، تتحدّى الموت، وتصنع أقداراً مباغتة، إذ يختبئ الخوف وما يلحق به من هزائم وخيبات في الأجساد التي سخّنتها مراحل الشهوة والعبثيّة. حين تأكّد كلّ من ماريون

وهانز من أنّ أعضاءه مؤهّلة، وأنّه نجا من التعقيم، وأنّ الحرب ولّت حقّاً بلا رجعة، تزوّجا، وأنجبانا نحن السبعة! عشنا في بيت كبير في كولونيا التي كانت مدمّرة بقذارة، وبقيت معنا جدّتي جاكلين التي ظلّت تعمل خيّاطة في دار أزياء حتّى ماتت. حين دبّ فيها الخرف أواخر أيامها، كانت كلما سمعت صوتاً أو قرقعة تهرول بجسدها الذي بقي قويّاً بالنسبة لامراة ثمانينيّة، وتختبئ تحت طاولة المطبخ، وتدمدم: جاء هتلر، جاء هتلر! وكانت قبل، تحكي لنا وهي تصنع الكعكة البولنديّة المحشوّة بمربّى الورد والجبن وبذور الخشخاش، عن الساعة الفلكيّة التي تركوها وحيدة في كنيسة سانت ماري، ترسم الوقت، والتاريخ، وأطوار القمر، والمواعيد المقدّسة، والمستقبل. كانت الساعة الفلكيّة محور حكايات الحبّ الغامضة عند أهل دانزيغ، والتي بسببها تعلّق نيكولاس بالمجرّات، فسعى جادّاً منذ صغره للبحث عن يوهانس هيفيليوس، فلكيّ المدينة في القرن السابع عشر، وفي أثناء تعرّفه إلى تفاصيل حياته عثر على البتّاني!

استمرّت أمّي بكتابة الشعر بروح معادية للحرب، بينما بقي أبي نازيّاً ولم يتخلّ عن عقيدته، وكان بينهما ذلك الصراع الخفي الذي يصير كرها أحياناً تخفيه الرغبة في استمرار العائلة. أمّي لم تنس جذورها أبداً، وفي حين صرنا نحن جيشاً، بقيت هي وأمّها قوّة مضادّة، تختلفان عنّا في ذكرياتهما ولغتهما ونشيجهما.

حين مات أبـي بسبب الشيخوخة، وضـعنا إعلانـاً في الصحف، واجتمع لوداعه من تبقّى من عسكريي (الفيرماخت). تحوّل البيت إلى دار للمسنّين. لبسوا ثيابهم، ووضعوا أوسمتـهم، وصنعنا طعاماً كثيراً، وأنشدوا أناشيد الرايخ، وامـتلأ الفضـاء بروائح قديمة، حملتها الأنفاس المصفّرة، والأفواه المجعّدة، وأطقـم الأسنان اللامعة، وفتحوا ملفّاقم العتيقة. أمّي كانت تبحـث في عيونهم عن تاريخها، وبدت صبيّة! عادت مـاريون بفسـاتينها المنقوشة بالأزهار، وقبعات القشّ الواسعة، والقوام المسـكوب مثل قوام (مارلين ديتريش). ألقوا خطبة تكريميّة ذكـروا فيهـا بطولات الفقيد هانز شـاخت، وشـجاعته، وولاءه لعقيدتـه، وتحليقه في سماء دانزيغ، في اليوم الافتتاحيّ للحرب، وكيف أنّـه نجا من مناورات الطيّارين البولنديين، وألقى قنابله على وسـط المدينة...

قالت أمّي إنّ شيئاً انبجس في مخّها حـين سمعـت العبـارة الأخيرة! لقد اكتشفت في لحظة شيطانيّة أنّ الرجل الذي عاشـت معه أكثر من نصف قرن، هو الذي دمّر بيتـها، وقتـل عائلتـها، ويتّمها، وشرّدها مع أمّها في بلاد اللجوء، والأقسى من ذلك أنّـه مضى ولا يمكن لها أن تنتقم منه، أو تسأله فيريحها بالإنكار، أو أن تبكي وهي تضربه بقبضتيها على صدره الممتلئ بالجبروت المجرم!

بعد لحظة الحقيقة، صبّت أمّي انتقامها علينا. قاطعتنـا، ولم تعد تتكلّم مع أحد. شعرت أننا دليل يوميّ قائم على استباحتها:

استباحة صباها، وجسدها، ودمائها. كنت أتوسّل إليها أن تتكلّم! أصرخ في وجهها لتقول شيئاً، أدفع سارة إلى الحديث معها... كان بسّام يطعمها ويراعي احتياجاتها، وكانت تتقبّل منه ذلك بمحبّة. قال الطبيب إنها مصابة بـ ألزهايمر، لكنني لم أصدّق ذلك! أسمعها تعيد قصائدها القديمة بصوت طفوليّ. كانت تحفظ أشعارها الكثيرة، وكانت تجلس إلى جانبي وتحمل صورتي في إطارها من فوق الموقد، وتقول لي: انظري، ابنتي روائية مشهورة، انظري إلى صورها! لم تكن ماما مصابة بـ ألزهايمر أو غيره. هي كرهتنا جميعاً فحسب، وانسحبت نحو الموت.

* * *

هدهدني غونتر مثلما يفعل طفل عديم الخبرة مع عصفور وقع في مصيدة، كان مضطرباً وأنا في حضنه غارقةً في نحيبي الطويل، وكان يسألني أسئلة ليست في وقتها، مزعجة، مثل ما هو لوني المفضّل، وكيف يمكن أن أكتب ما يحدث الآن! لم أكن أجيب، بل أنتحب فحسب، ولم أشف في حضنه. كان رأسي يصطدم بحاجز قائم بيننا. أسأله، فيقول ليس هناك أيّ حاجز، مطلقاً! السؤال ذاته طالما سألته لـ بسّام، وكذلك سألته لـ (داني) فيما بعد. أنا يا لولو لا أحتاج طبيباً نفسيّاً ليقول لي إنّني أعاني من قسوة الأب، وإنّ البنت التي لا تشبع من حضن أبيها، لن يكفيها حضن أيّ رجل في العالم.

أقبل وجه أبـــي، بشرته السمراء، وشعره الأسود المجعّــد، وعيناه البنيّتان الواسعتان، وأنفه العريض، وتحته شاربان كثيفـــان يخفيان شفته الرقيقة، وذقنه البيضويّة الحليقة دائمـــاً، وعنـــدما غادرت كارمن بدأت أبكي أنا الأخرى، وتذكّرت ما كنـــت أقوله له من أنني لا أريد أن أكبر، كي لا يكبر هو أيضاً، وأنّه لو مات، فسأدفنه في حديقة البيت، وسأكلّمه كأنّه حيّ معي. بـــل لن أدفنه، سأجلسه على الأريكة، وأحدّثه، وأطعمه، وأمسح له حذاءه المتّسخ. في الحرب، عاش معظم الناس مـــع موتـــاهم في الغرف والأقبية، وحين كان يتبدد القصف يدفنونهم في حـــدائق البيوت. حدائق البيوت أولى، سيكلّمونهم هناك كـــلّ حـــين، ويطلعونهم على المستجدّات كلّها، وستنبت أشجار بأسمـــائهم، وقد يخرجون في الليل، ويتابعون برامجهم التلفزيزنيّـــة المفضّـــلة، ويندسّون مجدّداً في أسرّتهم. ليتني استطعت أن أدفنك، مامـــا، في حديقة البيت! امتلكنا ثلاث حدائق، وما استطعت أن أحـــتفظ حتّى بساق أمّي في إحداها!

لم أعرف إذا ما كان نيكولاس قد حكى لنجوى شيئاً عن حكاية عائلته المرّة. لعلّه لم يفعل، فهو متحفّظ فيما يخصّ آلامه الشخصيّة، أو لأنّه كان يعدّها أبسط من أن تذهب معه نحو هذا العمق الذي لن يعنيها، أو لعلّه أراد الاحتفاظ بها كبهجة أنثويّـــة من عالم بعيد لا يمتّ لهذه الفانتازيا بصلة!

تابعت كارمن:

لم يعد غونتر مرتاحاً باتّصالنا بعد أن أدخلته إلى أعمـــاقي. كان يتألّم لأنّه جعلني أستسلم له بلا مقاومة، ليس نتيجة الحب، بل نتيجة لقدرته على التحكّم بكياني النفسيّ. صار شحيحاً في تعبيره عن العاطفة تجاهي، شحيحاً لدرجــة أنّــه لا يحكــي لي حكايات، وأنا أحبّ أن يحكي لي الحكايات التي أعرف أنّ لديه الكثير منها، فيحمل لي صوت أمّي. أمّي كانت رغــم أعبائهـــا المنزليّة، تجمعنا كلّ مساء وتحكي لنا حكايات الأخوين (غريم). حرمني من صوت أمّي، وهذه القسوة المريضـــة ضـــدّ الحـــبّ. احترت في تصنيف هذا الذي بيننا إذا ما كان حبّاً أو جزءاً مـــن علاج، لكن هناك شيء في الداخل يقول لي إنّه خطر، والمؤشّـــر الذي في ذواتنا لا يكذبنا أبداً. حرمني أيضاً من عفويّتي، إذ راح يقرّعني حين أتصل به، ثمّ يعاود هو الاتصال ويقول إنه يشـــتاق كثيراً، وإنّ ما يمنعه عنّي هو ساعات عمله التي تطول إلى الليل، وأنا في الليل أغلق هاتفي، وأجلس للكتابة. بدأت أنـــا أيضـــاً أتراجع حينما أخذت أحلل تعلّقي به. إنّه تعلّق بالحبـــل الـــذي يشدّنا إلى نقاط قوّتنا، ويحمينا من الســـقوط في بئـــر اليـــأس والاكتئاب. نفّرتني طريقته في حساب كلّ كلمة وكلّ حركـــة وتعريضها لـــ (فلتر) النظريّات النفسيّة. علّمني الصـــبر الممـــلّ، ودرّبني على الانتظار الطويل، وعلـــى إحصـــاء الاحتمـــالات، واستنفاد التوقّعات والأخيلة. لا أجده حينما أكون بحاجة ماسّة لأن أتكلّم معه، ثمّ يعود فجأة ويبثني الحـــبّ ويتعلّـــل دائمـــاً

بانشغاله، وأنا أعرف أصدقاء لأخي نيكــولاس، يعملــون في (ناسا)، المكان الأكثر إشغالاً في العالم، لكــن لهــم حبيبــات يبادلونهنّ الاهتمام ويطارحونهنّ الغرام! عموماً ظلّ غونتر هكذا في انشغالاته حتّى بدأت أتجاهل اتصالاته بين الحــين والآخــر، استعداداً لنهاية وشيكة قادمة برفقة تخريب كبير هنا، وأشــارت إلى قلبها، لكن فجأة غيّبه الموت!

قلت ببراءة:

- انتحر؟!

نظرت إليّ في دهشة:

- بل قُتل.

- كيف؟

- لا أعرف. كلّ ما فكّرت فيه هو أن يكون رقم هــاتفي في سجل مكالماته! أردت أن أتصل بأولغا ونادر لكــنّني لزمت الصمت. بقيت أشهراً في قبضة القلــق المجنــون، حتّى تأكّدت من أنّ المغامرة مرّت بسلام. لقد نجّاني الله من شرّ كبير، فماذا لو استمررنا معاً! لكانت ابتلعــتني دوّامة الشرطة والتحقيقات، ولربّما كنــت في عــداد الموتى. لم يتصل بــي أحد، ولم أكن مسجّلة في عيادته، ولا أصدّق أنّني عرفت يوماً رجلاً كان مصيره القتل!

بقيت أنا مسمّرة تحت وطأة كلمتها الأخيرة، فمــاذا لــو عرفت كارمن أنّها تتحدّث الآن إلى قاتلة جدّتها، بل لو عرفت

أنّها استقبلت القاتل الأكبر عبّود واهتمّت به وسهّلت حياته في كولونيا! مع ذلك أعتقد أنّ كارمن تحتاج بالفعل مصحّاً نفسياً، وأنّ عليّ أن أتماسك في هذه البلاد الغريبة التي من أسهل الإجراءات فيها تسليم اللاجئ إلى طبيب نفسيّ.

قالت كارمن إنّها الآن بحاجة فقط إلى مكان بإضاءة جيّدة للكتابة، وإنّه بعد أن أعود من جولتي في المدينة ستنتظرني مفاجأة، وعليّ ألاّ أتأخّر عن السادسة، حيث سنتناول عشاءنا في المنزل.

* * *

كانت شوارع كولونيا قد أخذتني طواعية. لم أمتلك فرصة من قبل لأكون وحدي، حرّة مثل عصفور فقد سربه، ونجا من وحوش الأرض وجوارح السماء، ولم يعد يمتلك سوى ذاكرة الطيران. تنقّلت بين المحلاّت، وجلست على أرصفة المقاهي، وتأمّلت وجوه العابرين. سكبت القهوة على بلوزتي البيضاء، ولم أكترث لشيء أبداً، حتّى إنّني لم أتذكّر أن أقول لنفسي إنّ سكب القهوة ينبئ بخير أو شرّ! اخترت لنفسي من الـ (برايماك)، الذي دلّتني عليه كارمن باعتبار أسعاره المنخفضة بالنسبة لجودة بضاعته، ثوباً من الدانتيل الأزرق وحذاء ذهبيّاً، وآخر شبه رياضيّ، وبنطلونات (كاجوال)، وثلاث بلوزات إحداها حريريّة وحقيبتين مسائيّة ويوميّة، وبيجامات وملابس

داخليّة... لم يكن لديّ ملابس لائقة، إلاّ أشياء بسيطة اشتريتها من دمشق في ظلّ القصف. كان سفري من سورية سريعاً، وفضّلت أن أحمل نقودي التي خرجت بها مع ماما من الرقّة، ونقود الذهب الذي بعته قبل السفر. كان معي مبلغ وافٍ أودعت جزءاً منه في البنك تأميناً لدراستي، وبعد قليل ستجري المنحة الشهريّة التي رتّبها لي نيكولاس مع الجامعة، وستكون أموري الماليّة بخير. كم تمنّيت لو كانت ماما معي! كانت ستحبّ التسوّق في كولونيا، وكنّا سنستمتع بالتجوال في الرواق المرصوف ذي القباب العالية، وسنجلس فيه إلى مقهى له رصيف، ونشرب قهوة لذيذة، وكانت لا شكّ ستدعوني إلى غداء فاخر وتقول لي: تكرم عينك ماما، لنذهب إلى أفضل مطعم في هذا البلد! لو أدركتُ يوماً فرصتها للعيش في هذا المكان الساحر مع نيكولاس، أو خمّنت بأنّها ستنتهي بذلك البؤس الجارف غير المتوقّع، لكنت تركتها تفعل ما تشاء، بل لتوسّلت إليها أن تفعل، من غير أن أكون تلك العصا التي توضع في العجلات.

منحت نفسي لجمال شوارع كولونيا وأبنيتها العتيقة وبكيت. علّمنا الدكتور أبو المعالي، الذي درّسني في السنة الرابعة مادّة تاريخ الفنّ أنّ الجمال يُبكينا، وأنّ للآبدة التاريخيّة شعريّة تهزّ الأعماق. قد لا نبكي عند فقد عزيز، لكن حين نتأمّل أثراً بكلّ جوارحنا سنبكي، ونعوّض عن انحباس دموعنا عند فقد

الأعزّاء، وسنستعيد ذكراهم، وإذا اشتبك الجمال بالجلال، فسنكون بين يدي الله، ألن نبكي من هول أن نكون بين يدي الله!

عدت مثقلة، وبكيت لأنّ قلبي وذاكرتي لن يستوعبا ذلك الجمال كلّه، وأغرقتني الوحدة، فلا أمّ لي لأكتب لها الرسائل، ولا حبيب لأخبّره عن هذا المكان الآسر! الجمال يغلبنا ويصير ثقيلاً بلا مساعد، أو شريك محبّب. فكّرت في أنّه جمال التحرّر من التاريخ، والعائلة، والممنوع، والتقاليد، والخوف... الخوف عاطفة مشوّهة، وقد كان الخوف على أمّي يكبّلني. لم أتوقّع أن أجد حرّية أوسع وأرشق في موتها، حتّى إثم موت جدّتي، ذلك الذي يقبع في أقصى نقطة من منطقتي المعتمة، بدوت وكأنني تحرّرت منه!

على درج المنزل الخشبيّ الضيّق، وأمام باب شقّة كارمن كان هناك خزانة بيضاء، فتحتها، فوجدت فيها أحذية، نظرت في المرآة فوقها، فوجدت وجهي نقيّاً. دورتي الدمويّة أفضل، وجسدي أرشق، وكأنّني تخلّصت من بضعة كيلو غرامات في هذا المشوار. رششت رذاذاً من ماء الكولونيا الذي اشتريته بالأمس، ووضعت نظّارتي الشمسيّة في بيتها، وأودعتها حقيبتي. كانت رائحة طعام لذيذ تملأ الجوّ: خضار مقلاّة بالثوم والزنجبيل!

دفعت الباب المفتوح ودخلت، فلم أجد كارمن. رأيت خلف الكونتوار رجلاً يرتدي مريول الطبخ، ويعطيني ظهره.

ليس نيكولاس بالتأكيد، إنّه شاب، بشعر محمرّ، وبجسد يبدو رياضيّاً:

- (هاي)، قلت بحذر...

التفت بكليّته، ووقف يحدّق فيّ هنيهة، ثمّ خطا نحو الغرفة، وهو يفكّ المريول، ويلقيه على الكونتوار، وقال: هاي هههههه، هاي.. هههه، لولووووووو، كان صوته ضخماً، ولكنته عربيّة، (رقّاويّة) عتيقة، لم يعد أحد من هذا الجيل يتكلّم بها! وأقبل نحوي وأخذني بين ذراعيه، وهو يقهقه أعلى فأعلى، وحين وصل رأسي إلى مستوى صدره، عصرني وخفتت قهقهته، وبدأ يشهق وآلمني وهو يعصرني أكثر فأكثر كأنّه يقطّر منّي الذكريات، والمكان، والطفولة التي فرّت من كلينا قسراً، وتركتنا كفّاً بلا إصبع خامس. راح يميل بي يمنة ويسرة، ودخلت ساقاي بين ساقيه، وصارتا تلوحان كأنّ شللاً ضرب عضلاتهما. لقد سلمته قوّتي... الدقائق التي ألصقني فيها بقلبه جعلتني أتصالح مع قطيع الذئاب التي نهشتني خلال ما يُقارب الأربعين سنة: اليتم، والفقد، والحرب، والخوف، والضياع، والخيانة، والهجر، والحزن، والألم، والنسيان، والازدراء، واللجوء... دقائق أخرجني فيها من المجرّة، ثمّ أعادني أخفّ وأجمل بكثيير. ظلّ يستنشق ثيابي، وأنا أهمس في رقبته: عبّود، عبّود، عبّود، عبّود، عبّود........

كانت كارمن سعيدة ذلك المساء. لمحت في عينيها دموعاً كلّ فينة، وهي تعدّ المائدة، التي صفّ عليها عبّود أطباقه: دجاج

بالزنجبيل، وستيك العجل مع أصابع الهليون، وسلطة (الغريفون) بالخسّ والجوز، وحلوى الكيزيه كوخن.

غيّرت ملابسي بسرعة، ارتديت بنطلوناً وبلوزة ممّا اشتريت، وحاولت أن أسرّح شعري المنكوش، واستعملت شيئاً من أدوات التجميل الخاصّة بكارمن، وانضممت إلى المائدة، وكان عبّود يشعل شموعاً بيضاء ثلاث في شمعدان كريستاليّ على طرف المائدة.

قالت كارمن: لقد طبخ من أجلك... الرجل الذي يطبخ لك رجل يحبك!

ضحكت، وارتفعت حرارة وجهي، فجاء عبّود إليّ وضمّني حتّى طقطق كتفيّ وقال: طبعاً أحبها، وكلّم كارمن بالألمانيّة. لم أفهم، ابتسمت وأنا أبتعد عنه قليلاً.

أعرف أنه يحبّني، يحبّ أيّامنا الماضية حيث لولو الجارة ورفيقة الطفولة. أنا الآن أقلّ من أن أكون حبيبة لأحد. أنا تقريباً لاجئة، وضعيفة، والحبّ يحتاج إلى طاقة وقوّة. بيني وبين هؤلاء ما يسمّيه علم التاريخ بالفروقات الحضاريّة. سيساعدني عبّود، ويتعاطف معي، ليس أكثر، وأنا أيضاً لن أتقبّل فكرة الانسحاق أمام الآخرين، وإذا أردت النجاة منها فعليّ أن أصنع حياة موازية من غير أن أكون عبئاً على أحد. لن أفكّر الآن سوى بالأمان وهذه الصحبة الجميلة، حتّى لم يعد لديّ فضول لأعرف عن حياته العاطفيّة، هل له زوجة وأولاد! لا بدّ من أنّ رجلاً بمثل

هذه الوسامة سيكون زير نساء، وأنا متهافتة، وأقلّ من شـــروط المنافسة!

فكرت بكارمن بمدى كرمها ووفائها. لقد قرضـــنا لحـــم مؤخّرتها وأطعمناها حنّة مقزّزة، وهي تطعمني أطيب الطعـــام، وتمنحني الأمان، وتجمعني بعبّود الذي سبق أن ســـاعدته هـــي ونيكولاس، حينما جاء من بـــراغ إلى كولونيـــا. ســـاعدته في الحصول على سكن وأعطته طقم خزائن مطبخها القديم، وأثاثـــاً صالحاً فائضاً عندها.

صار عبّود طاهياً مشهوراً بعد أن درس الفندقة في المدرسة العليا ببراغ، ثمّ عمل تحت إدارة رئيس الطهاة الألمـــاني الشـــهير فيسلر في مطعم بقلعة بينسبرغ قرب كولونيا، وفيســـلر أحـــد الطهاة الحاصلين على ثلاث نجوم من دليل ميشـــلان للجـــودة! سافر إلى دبـــي لسنة مديراً لمطابخ راديسون بلو. عاد بعدها إلى كولونيا ليعمل في سلسلة راديسون ذاتها، وأطلق قناة خاصّة على يوتيوب يقدّم فيها أطباقه، ويبلغ عدد متابعيها أكثر من مليـــون! أصدر مؤخّراً كتابه عن دار كارمن بالألمانيّة: (أطبـــاق عائلـــة ملوّنة)، والذي بات شهيراً جدّاً، وترجم إلى الإنكليزية والتشيكيّة والفرنسيّة. يتحدّث كتابه عن التاريخ الثقافيّ للطعام، وعن علاقة المطبخ بالهويّة. أراني مقاطع مسجّلة من فقرات برنامجـــه علـــى يوتيوب: ثمّة صبيّة جميلة تلبسه مريوله، وله سكاكين مصـــمّمة خصيصاً من أجله، كما أشارت كارمن، مقابضها مرصّعة بحبّات

كريستال من شوارفسكي، وفي نهاية الفيديو ظهرت إلى جانبيه صبيّتان في ملابس مثيرة تتراشقان بالكريما التي تطلقانها من قمعين في أيديهما. يعمل عبّود الآن على إطلاق علامته التجاريّة الخاصّة بأدوات الطهي (إيكو غورميه) الصديقة للبيئة، وعلى الرغم من ذلك كلّه وجد وقتاً ليطبخ لي وهو يقول إنّه سيفعل أيّ شيء من أجلي! سألته عن آنا أمّه، فقال هي متطوّعة الآن في فرقة موسيقيّة تعزف على جسر تشارلز من أجل اللاجئين السوريّين، وسنزورها معاً في براغ في أقرب فرصة.

انتقلنا إلى غرفة الجلوس، كانت سعادتي عاصفة لدرجة أنّ صوتي كان يتهدّج كلّما استعملته، ومع أنّني مهدودة من التعب ومن مفاجآت هذا اليوم الجميل فقد بقيت سهرانة مع عبّود إلى الصباح. طويت رجليّ على الأريكة، وجلسنا نتحدّث ونشرب الشاي ونضحك، وأنا أختلس النظر إلى وسامته المخيفة، غير مصدّقة أنّه إلى جانبي بشعره الأحمر الذي كان الأولاد في الحارة يصفونه بالحديد الصدئ، وذقنه المشذّبة، ونمش بشرته البيضاء، وعينيه البنيّتين المدوّرتين كحبّتي بندق. حاولت أن أجد شبيهاً له في ذاكرتي، فوجدته نسخة مطابقة للأمير هاري، ابن الأمير تشارلز والليدي ديانا!

أحضر شرشفاً وفرده عليّ، وكانت نسمات ليل كولونيا الباردة تتسلّل من نافذة المطبخ المواربة، وتأتي برائحة شجر مخضرّ ومطر وشيك. انسل عبّود تحت الغطاء، والتصق بي وهو يمدّه

جيّداً ليغطّي كلينا. حكيت لكارمن كيف كان يطبخ بحرفيّة منذ الطفولة، وكيف حضّر لي مرّة شوربة اليقطين العبقريّة حين أصبت بفيروس في معدتي، حتّى إنّ ماما سألته عن طريقة إعدادها، وكيف كان يحضر لي العسل من منحلتهم كلّما أصبت بالزكام. وجعلني أدمن السردين المخلّل! أطعمني منه مرّة حين عاد من براغ، فصرت أطلبه كلّ يوم، حتّى نفدت العلب التي أحضرها آنّا جميعاً، وكلّما سافر كان يأتي لي بالسردين المخلّل، فنلفّ السمكة الصغيرة بخبزة، ونضع معها كبيس الفلفل، ونجلس على رصيف من الأرصفة لنستمتع بمذاقها الحارق الذي يخرج من الأنف.

ضحكت كارمن وقالت: عموماً قد تنسى المرأة رجلاً أطعمها العسل، لكنّها ستتذكّر دائماً ذلك الذي علّمها أكل السردين المخلّل!

قامت لتنام، وعدنا أنا وعبّود بحكاياتنا إلى الرقّة، ورحت بين ضحك وبكاء، فكان يأخذني بين ذراعيه ويهدهدني. يمسح دمعاتي ويشبك كفّيّ بكفّيه الصافيتين، ويقبّل مراراً أصابعي واحداً واحداً، ويمسّد شعري بحنوّ كأنّني رضيعة. منحني العزاء بأمّي، وأنساني ما ارتكبناه بحقّ جدّتي. كان عبّود الكائن البشريّ الوحيد الذي أسكن روحي الجنّة.

* * *

قالت كارمن إنّها ستستيقظ في الثامنة صباحاً، لتعدّ الفطور ثمّ سننطلق إلى البلد لاستكمال شراء بقيّة مستلزماتي قبل اللقـــاء المرتقب مع نيكولاس، والذي تمنّيت بكثير من المحبّة والندم، لوأنّه كان أبـــي، أو لو رحلت أمّي يوماً معه. إنّك بمجرّد أن تقطـــع خطّ العرض 35 شمال خطّ الاستواء ينكسر قيد ما، وتصـــطبغ المفاهيم الأخلاقيّة بصبغة الحياة التي تسفر عن وجهها البســـيط والمرن. كان الوقت ما يزال مبكّراً للخروج، ففتحنـــا الســـقف المتحرّك لغرفة الجلوس على سماء مشمسة فرحت كارمن لمرآها، وجلسنا على أريكتها متجاورتين نشرب قهوتها المنتقاة بعنايـــة، كما تؤكّد لي، ونتحدّث:

علاقتي بدانييل عاصفة. جاءت في غير موعدها، وتفتقر إلى الاستعدادات والترقّب، مثل أكل بطّيخة باردة في عزّ الشـــتاء، لذيذة، لكنّها فائضة عن الحاجة. عرف كلّ منّا الآخـــر لـــيس لأكثر من شهرين، لكنّ دانييل أقنعني أنّنا تعارفنا منـــذ عـــامين، حيث صادف أن حضر ندوة لي في معرض فرانكفورت، حـــول كتابـــي (ملعقة فضيّة) والذي أهديته لروح جـــدّتي جـــاكلين، فاشترى الكتاب، وحصل على توقيعي كما قال. لم أتذكّر لكنّني أوهمت نفسي بأنّني تذكّرت. كنت وقتها أشـــعر بالتجـــدّد، إذ شفيت من آثار علاقتي البائسة مع بسّام، وانتصرت على تعلّقي المرضيّ بـــ غونتر، والجراحة التي أجريتها لرقبتي أيضاً كانـــت ناجحة ومبشّرة، وشعرت أنني قويّة، وحديثة الولادة، لكن مـــع

ذاكرة خبيرة في التعامل مع منعطفات الحياة. هكذا يمكنني أن أعيش متجاوزة الأخطاء السابقة والانكسارات. لن أثير المشاكل، ولن تستوقفني التفاصيل التافهة، ولن أسأل كثيراً، وسأكون على مسافة من العالم.

قال داني إنّه وقتما رآني أتكلّم على المنصّة شعر بأنّني خرجت من قلبه وجلست أمامه! هل هناك أجمل من أن يلدك رجل من قلبه! كان ذلك كفيلاً بإلغاء أيّة مسافة قديمة بيني وبينه. بعدها بأشهر أرسل متابع لصفحتي على تويتر صوراً له في الأماكن ذاتها التي حكيت عنها في كتبي في وارسو، وساو باولو، وباهيا، فكتبت له: جميلة! فلتستمتع. فكتب لي: معاً! لأكتشف فيما بعد أنّ هذا المتابع هو دانييل نفسه، ولتفعل هذه الـ (معاً) فعلها الساحر. أنا التي آخذ آلاف القرّاء معي إلى أماكن لا يعرفونها، وأمتّعهم بالخيال، فيقتاتون على كلماتي، وسهر لياليّ ومشاعري ودموعي، أجد الآن من يأخذني معه، ويقوم بدور المعلّم، والمانح، والمساعد! شعرت به يسحبني من يدي، وأنا أمتثل، فأمشي معه في عوالم مجهولة، في مدن قديمة، ومرافئ مهجورة. نجلس معاً على أرصفة لمقاهي صغيرة في زواريب لا يعرفها إلاّ سيّاح يحبّون التمتّع بالحياة ورؤية العالم رغم مواردهم المحدودة، حتّى ما رأيته وعاينته منها بدا جديداً عندما قال: (معاً)! أنا دائماً وحدي، و(معاً) هذه فتحت لي أبواب الحياة، وأسعدتني لأيام كثيرة، وما زالت حلاوتها في قلبي.

اقتحم داني حياتي باندفاع فطريّ أربكني، فلم أعرف كيف أستقبل حبّه الجارف! الحبّ الذي لجمني، وأعجزني حتّى الآن عن أن أكتب عنه، لكنّ أجهزة الاستقبال عندي معطّلة، ولا يمكنها تحويل إشاراته القويّة إلى ردود! لنقل لم أتمكّن من احتواء ذلك الدفق بقلبي المنهك. كنت أقرب ما أكون إلى المسّاحات القديمة لزجاج السيّارة، وقد يبست جلدها، وذابت، ثمّ فاجأها وابل المطر، وهي لن تقوى بالطبع على إزاحته، ودفعه، فماذا سنفعل سوى أن نوقف السيّارة وننتظر أن تهدأ السماء!

طريقته في الحبّ قهرتني إذ واجهتني بمدى الإصابة التي لحقتني. كنت قبله مشوّهة بالحبّ. الحبّ يشوّه، إنّه يفعل ذلك أحياناً. بسّام شوّهني بخيانته، وغونتر شوّهني ببخله. كنت أردّد عبارة واحدة: أنا متعبة، أنا متعبة! وكان يستقبل تعبي بمشاعر نشطة للغاية، وهذا ما كان يزيد في إرهاقي. لم نكن متوازنين بالقوى العاطفيّة. حقّاً لم يخطر في بالي يوماً أن يصل الإنسان إلى مرحلة من التعب والكسل لا يحرّكه فيها مثل هذا الحب العظيم! هو يقول: لو أن شخصاً في هذا العالم أحبّه كما يحبني، لكان الأسعد على وجه الأرض! يستغرب لماذا أنا كئيبة، مثلما أستغرب أنا كونه بهذا الفرح، وبهذا الحبّ! أنا كئيبة من الخيبة والخيانة والانتظار. استنفدت مشاعري مع الأشخاص الخطأ، ويوم أقبل الشخص الصحيح وجدني جثّة، امرأةً لا تتذكّر من الخمسين عاماً سوى كآبتها.

أقابل حبّه برفض هيستيريّ أحياناً، وحين يكلّمني بالتلفون أقرعه، وأقول إنه اقتحم وقتي وانتهك خصوصيتي، فيقول إنّه مشتاق، وعلينا أن نلتقي! كنّا حتّى ذلك الوقت نلتقي على (سكايب) لوجوده خارج ألمانيا. تعاملت معه كما تعامل معي غونتر، وفنّدتُ أسباب حبّه لي: نزوة، عدم امتلاك، تعلّق بشخصيّات أعمالي... يردّ: اسمعي اسمعي كارمن، أنا نسيت كتبك كلها بمجرّد أن تكلّمنا. صرتِ أقرب وأجمل حين خرجتِ من وراء الكلمات المطبوعة! يقول: سيطيّرني كفراشة، وأنا مع أدوية المفاصل التي أعاقرها أشعر بأنّي فيلة! صرت أحبّ الفراشات، وأبحث عنها في الحدائق، وأفتح (يوتيوب) لأراها كيف تطير. قرأ كتباً عن التكوين النفسيّ للكتّاب، وعن مزاجهم، وما يحبّون وما يكرهون، وعن واقع الكتابة... كلّ ذلك من أجل أن يتعامل معي بالطريقة المثلى! كان مستعجلاً، وجائعاً للحبّ. لقد فقد أخويه الشابّين على التوالي بأمراض مفاجئة، وبقي وحيداً. كيف سأحلّ، أنا الضعيفة المنهكة، محلّ شابّين بمنتهى القوّة والجمال والبهجة، فأعوّضه فقده الكبير! أنا أقلّ بكثير من أن أفعل ذلك. أخاف من خذلان جديد، وأريد أن أحمي نفسي. من حقّي أن أحمي نفسي في الخمسين عندما يتحوّل العمر من حليف إلى عدو! قلت له إنني خضعت لعمليّة في رقبتي، وأعاني عرق النسا، وقد توقّفت دورتي الشهريّة، قال: حتّى لو كنت عظاماً في قفّة، فأنت روحي وأنا أحبّك! أردّ عليه بعبارة

واحدة أختصر بها حالتي: أنا متعبة. يقول: حسناً حين يتعرّض معدن لضغط قوّة معروفة المصدر يمكننا معالجته، لكن حينما تكون القوى فوضويّة ولا نستطيع تحديد مصدرها، يتعذّر علينا علاجه.. أنا حزين على هذا المعدن النادر! أرجوك يا كارمن حدّدي لي هذه القوى لأتمكّن من مساعدتك، أريد أن تكوني سعيدة فحسب!

دانييل مهندس إنشائيّ، ولديه مشروعات كبيرة على ساحل بحر قزوين والبحر الأسود، في أذربيجان وجورجيا. أمّه جورجيّة، وورث عن تلك السلالات القوقازيّة عينيه السوداوين وشعره الكثيف الذي ما يزال يبين عن سواد واضح رغم أنّه في أواخر الخمسينيّات. له هيبة قيصريّة، لحية مبيضّة، وشاربان معقوفان إلى أعلى قويّان مثل شوارب الانكشاريين، بانتظار الصقر الذي سيحطّ على طرفهما، وحين سألته عن مظهرهما الغريب، قال لي هذا هو الـ (ستايل) السائد اليوم في شرق أوربة وقد انتقل إلى هوليوود!

رتّب لي داني رحلة إلى حيث مشروع مدينة الفوسفات الخاص بشركته في (باتومي) الجورجيّة. قال ستخلّصني الغابات العذراء والشمس الحادّة هناك من الإرهاق، وستمكّنني من استعادة نفسي، وإنّه لن يكون معي في الرحلة، ويمكننا حتّى ألاّ نلتقي إن شئتُ. وقال أيضاً هي هديّة من قارئ شغوف إلى كاتبته المفضّلة، وستكون ضمن رحلة لفريق من الإعلاميين

للتعرّف إلى مشروعاته هناك. وافقت، وذهبت. هناك اكتشفت أكثر ممّا هو مكتوب عنه في صفحات الإنترنت. هو من رجال الأعمال الكبار الذين لديهم حصص في شركات عابرة للجنسيّات، ونرى أمثالهم في الأفلام والمجلاّت بمرافقين، وكلاب حراسة. صباحهم في قارّة ومساؤهم في قارّة أخرى، ومع ذلك لديه الوقت للحبّ، ولقراءة كتب امرأة فقيرة مثلي!

فقيرة! ضحكتُ مع كارمن وأنا أنظر حولي. لا يمكن أن أحلم بحياة أجمل من حياتها. ببيت وسيّارة وعمل وكتب مؤثّرة، وابنة صبيّة في منتهى الجمال. انتابتني غصّة، فبيتي كان أجمل، كان واسعاً ومطلاًّ على الفرات، وأثاثه فاخر، حتّى إنّ كارمن حين زارتنا في الرقّة وجدته تحفة! صحيح أنّه ليس بفخامة بيت جدّتي كرمة، وأنّه من طابق واحد، لكنّ حديقته واسعة، ومزروعة بأشجار الخوخ والليمون والإجاص، وورد الجوري والياسمين والعسليّة، وفيها أريكة متأرجحة كبيرة مقلّمة بالأزرق والأبيض. البلاط من المرمر، والأثاث كلّه اختارته ماما من محلاّت طوروس الشهيرة في حلب. لم يتدخّل بابا بشيء، تركها تنتقي ما تريد وهو كان يسدّد الفواتير فحسب، حتّى إنّ سرير غرفة النوم كان مدوّراً، وكان حينها عجبة زمانه إذ لم يكن ثمّة سرير مدوّر في البلد كلّها. مشكلة بيتنا الوحيدة هي أنّه كان مقرّاً لحرب أهليّة. بعد ذلك أصابته قذائف داعش، فخرّبت منه جزءاً. تصدّعت جدرانه أيضاً نتيجة القصف المتكرّر حوله من

قبل طيران التحالف والجيش النظاميّ، وتحطّم زجـــاج نوافـــذه، وغادرناه قبل أن نتمكّن من إصلاحها.

كنّا أنا وكارمن قد أفرغنا إبريقاً كاملاً من القهـــوة علـــى رجع الأحاديث التي يلد بعضها بعضاً. فأشارت إلى أنّها تخفي في الثلاجة علبة آيس كريم، وعليّ أن آتي بها.

- متأكّدة من أنّك تريدينني أن أدخل مطبخك!

- أعتقد.

ورمتني بمخدّة الأريكة الصغيرة التي كانـــت إلى جانبـــها. أحضرت كأسين وملعقتين، وفتحت علبة المثلّجـــات بالحليـــب والتوت والتي تزن نصف كيلو، لكنّ كارمن بدأت تحفر بملعقتها في العلبة وتأكل بتلذّذ، وقالت إنّ أيّة صحون زائدة سأضطرّ أنا لغسلها. قلت: لا بأس، ووضعتُ بعض الآيس كريم في كوبـــي، وما هي إلاّ لحظات حتّى كانت قد أجهزت على العلبة وراحت تلعق بلسانها الملعقة، وأنا مغتبطة بنهمها الطفوليّ وشهيّتها الطيّبة! قالت إنّ علينا أن ننهي الحكاية فأمامنا اليوم عمل طويل:

وصلنا إلى المدينة الساحليّة، وتجوّلنا في مواقـــع مشـــاريع مجموعة الشركات الصناعيّة التي كانت هدف الزيارة. وتناولنـــا الغداء في مطعم على البحر الأسود، حيث اختار كلّ من أعضاء الوفد السمكة التي يرغب بها من سوق السمك تحت المطعم، فتمّ تجهيزها سريعاً وتقديمها مع السلطات الطازجة والشراب المعدّ في مصنع شهير في قلب الكروم المجاورة. حين عدت إلى الأوتيـــل

وجدت من داني سلّة أنيقة فيها علبة من عسل جبال القوقاز وقطع حلوى الملبن الذي يصنع من دبس العنب، إحداها بالنعنع، وأخرى بالفريز، وثالثة بالنكهة التقليديّة. كلّمته لأشكره وأطمئنه على وصولي، فقال إنّنا سنخرج معاً إلى العشاء في كازينو الأوتيل الذي يقع مقابل مكان إقامتي، وسأكون ملاكه الحارس في لعبة (البلاك جاك)، أجبته: بل نتناول القهوة معاً في الأوتيل هذا المساء لأنّ كاحلي يؤلمني جدّاً ولا أستطيع المشي، فقد عاد مرض آخيل ليفاجئني، ربّما نتيجة السفر والتجوال الطويل.

* * *

حلّ المساء على غابات جورجيا المتكاتفة، وراح قرص الشمس الأحمر يتهاوى في البحر، فاستيقظت الدماء في عروقي نظيفة وحارّة، وانتبهت إلى أنّني سألتقي لقاء أوّل برجل رائع يحبّني، ورغبت بشدّة في أن أراه وجهاً لوجه، وأن أسهر معه وأبتهج، ودعوت الله أن يتحسّن كاحلي وأتمكّن من المشي. لقد قعد بي جسدي في الوقت غير المناسب، وهذا يعني أنّني بدأت أشيخ! مع ذلك ارتديت ثوباً (ماكسي) من الموسلين الأسود الذي ينسدل باتّساع إلى الأرض، بأكتاف عارية، ووضعت قرطاً من المرجان الأحمر، وبعض كريم الأساس اللامع على وجهي، وفوقه أحمر خدود داكن قليلاً، وماسكارا سوداء لرموشي، وأحمر شفاه بلون ورديّ، ولم أستطع انتعال أيّ حذاء فنزلت حافية

وجلست في اللوبـــي! حين وصل داني كنت أرفع ساقي علـــى طاولة صغيرة طلبتها من أحد الموظّفين. أقبل عليّ محـــتفلاً، ولا يخفي فرحاً حقيقيّاً. كان مهيباً حقّاً حتّى إنّ قلبـــي خفق لمـــرآه وغبطت نفسي. لم يصافحني، ولم يعانقني، بل ركـــع وأمســـك بكاحلي، وبدأ يدلّكه، وينظر في عينيّ ويهمـــس بجـــدّ بـــالغ: سيتحسّن سيتحسّن... رجل أمسك بقدّمي في أوّل لقاء بيننـــا، كيف لي أن أتوقّع خطوته التالية! الأغرب من ذلك أنّ كـــاحلي صار أفضل فعلاً!

مضينا في حديثنا واستمرّ هو بتدليك قدمي، يمرّر كفّه على أصابعي ويتحسّس طبقات الطلاء الأحمر على أظافري.

نظرتُ إلى قدميها كانت تضع الطلاء ذاته على مـــا أظـــن وكان مثيراً!

قالت: اقترح داني أن نتمشّى على شاطئ الأوتيل، قد يكون المشي على الرمل الذي ما زال دافئاً مفيداً! خلع هـــو الآخـــر حذاءه، واستندت إلى ذراعه ومضينا حافيين مسكونين بالشغف. يا إلهي ما أروع الأبّهة التي عيّشني فيها داني، مثـــل الأحـــلام. يتضرّع إليّ أن أحبّه، وأن أقبل أن يكون قريباً منّي. كان يحفـــظ عبارات كاملة من رواياتي، ويناقشني بأفكاري، فأقول له: انتبـــه لمشاريعك، ولعملك. يجيب: كله على أحسن وجه، أنا نـــاجح، والأمور تمام. المهندسون يفعلون كلّ شيء، وأنا أستلهم منـــك أفكاراً لمشاريعي. يضحكني داني! في اليوم الثاني أرسل لي سيّارة

بسائق أخذني إلى مرفأ اليخوت. كان ينتظرني هناك، بشـــورت فوسفوريّ، وتي شيرت أبيض ونظّارتين رياضيّتين شفّافتين. هذا الرجل بالغ الجاذبيّة ويمكن لأيّة امرأة أن تقع في غرامه! قادني إلى جسر خشبيّ صغير، وقال: هيّا، سلّميني نفسك سـنطير معـاً. نظرت حولي، كان هناك مجموعة مــن الطــائرات الشــراعيّة بموتورات صغيرة، وسائحون يلبسون السترات الطوّافة ويركبون خلف قوّاد الطائرات. تمضي الطائرة على زلاّجـتين في المـاء ثمّ تحلّق في السماء. قال داني إنّه يمتلك هذه المجموعة من الطائرات، وإنّه سيحلّق بـي. لم أتردّد. ألبسني شاب السترة فوق ثـوب البحر الذي كنت أرتديه، وركبت خلف داني متمسّكة بالمسند المعدنيّ أمامي، وقدماي مثبّتتان في ركابين على حافتي المقعد.

انطلقنا بقوّة في البحر وكان رذاذ الماء يتطاير على وجهـي وساقيّ العاريتين فأنتعش، ثمّ حلّقنا، علونا شيئاً فشـيئاً وصـار البحر والمدينة تحتنا. حين استقرّت الطائرة في المدى أطفـأ داني المحرّك وطرنا بدفع الهواء للشراع... أحدّق في العالم من حولي: الفضاء، والمباني القرميديّة الجميلة، والأوتيلات الفاخرة، والبحر الأزرق الساحر، والدلافين التي تتقافز فيه، ثمّ ألصق خدّي بظهر داني وأشعر به يرتعش. كانت الريح قويّة تهاجم وجهي وشعري وتمنعني من أن أسمع كلماته، فيحدّثني بإشـارات مـن كفّيـه المختفيتين في قفّاز رياضيّ. لم يخطر لي يوماً حتّى في رواياتي أنّني سأطير على بساط الريح خلف سلطان وسيم! تلـك الرحلـة

كانت أسعد أوقاتي، استعدت فيها شبابي، إذ أدركت أنّني مرغوبة أكثر من ذي قبل، وأنّني أحظى ببهجة فريدة. أشار لي أن أستعد لهبوط عنيف في الماء، شغّل الموتور، وحلّقنا قليلاً ثمّ صفع مزلاجا الطائرة صفحة الماء بقوّة حتى ابتلّ ثوبي وشعري، وغاب قلبي عن صدري... بعد ذلك وصلنا إلى الجسر الخشبيّ الذي انطلقنا منه!

لم ألاحظ أنّني كنت أضع كفّي على فمي منفعلة مع تحليق كارمن وهبوطها، وكأنّني أنا التي طرت في طائرة شراعيّة:

- أنت مجنونة كارمن! كيف وثقت به أصلاً؟ تحلّقين معه بطائرة شراعيّة في بلد غريب في أوّل لقاء بينكما! ألم تخافي؟
- في الحقيقة خفت من شيء واحد. حين أطفأ المحرّك وتهادت بنا الطائرة في الهواء، فكّرت: ماذا لو مات داني الآن ونحن فوق، لو أصيب بجلطة مثلاً، كيف سأُنزل الطائرة!؟ أقسم لك إنّني فكّرت بذلك فقط.
- مجنونة والله! طيّب لماذا أنت حزينة. يجب حقّاً أن تكوني أسعد امرأة في العالم. لو كنت مكانك لذهبت مع داني بلا تردّد، اذهبي معه يا كارمن أرجوك!

حدّقت في وجهي مع تنهيدة، وبسرعة تحول ألق عينيها الذي رافق الحكاية، إلى حزن من فقد بهجته الأخيرة:

- لا أستطيع أن أضلل نفسي، سأصل في رحلتي معه إلى انكسار جديد، وأنا لا أستطيع تحمّل أيّ انكسار، ولا أيّة تبعات. هذا ما لم يتفهّمه داني، ولم أنسجم مع طريقته في رفض التفهّم. حاصرني بالحبّ والأبّهة، وأنا لا أريد حبّاً جارفاً يكبّلني ثمّ يكسرني. الكسور في الخمسين لا تنجبر مثلما كنّا في العشرين، كوني حذرة يا لولو! ثمّ إنّ لديه عائلة، لديه زوجة. لا يعيشان معاً لكنّها تتردّد عليه بين جورجيا وفرانكفورت.

وضعت يدي على كتفها مواسية، فطلبت منّي ألاّ أقلق عليها، قالت إنّها ليست واقعة في الحبّ، بقدر ما هي مرهقة من هروبها من الجنّة!

لقد أحببتها كثيراً بعد هذا الحديث الطويل! أخذتني إلى بلاد وعرّفتني إلى عباد، وعلّمتني أنّ هناك بشراً يمكنهم، من أجل الحفاظ على ذواتهم، أن يهربوا من الجنّة، وكنت حتّى ذلك الوقت أعرف أنّ البشر يطردون من الجنان فحسب! مسّدتْ شعرها من منابته وعقصته إلى الخلف لتنهي جلستنا الصباحيّة الفريدة، وقالت: في هذا العالم رجال رائعون، لكنّنا لا يمكن أن نحظى بهم جميعاً في حياتنا، مثلما لا نستطيع أن نحصل على وجوه النرد كلّها في رمية واحدة!

بيغ بانغ

كلّمني عبّود في منتصف النهار، وقال إنّه سيمرّ بي لنذهب معاً فنتسوّق احتياجاتي، ثمّ نتناول عشاءنا عند السادسة. لقد استكملت مستلزماتي مع كارمن، ولست بحاجة سوى إلى البقاء بعض الوقت معه قبل أن أغادر مع نيكولاس إلى ميونخ، وربّما سيمرّ وقت قبل أن نجتمع ثانية. أخبرته بذلك، فاقترح أن نقضي اليوم في بيته. حين وصل لاصطحابي كنت قد لبست فستاناً أصرّت كارمن أمس على دفع ثمنه حين تجوّلنا معاً في ساحة (نويمارك)، كحليّاً قصيراً بأكمام، وفتحة إلى منتصف الظهر. حاولت أن أقف أمام المرآة بشكل جانبيّ كي أرى مداها، فتعبت رقبتي، و لم أحصل على أكثر من تصوّر، لكن كان المشهد جميلاً، وأنا منذ زمن طويل لم أرتد ملابس فائقة الأناقة. كنت قد رافقتها أيضاً إلى كوافيرها التركيّ، فقصّ لي شيئاً من شعري الذي أتعبه نقص المياه والغذاء الصحيّ والإهمال، خلال فترة الحصار الأخيرة في الرقّة. أخضعه لحمّام زيت، وصفّفه منسدلاً إلى الكتفين، فعاد مرتاحاً ولامعاً. قبل أن أضع قدميّ في حذائي البيج ذي الكعب العالي والنعل الأحمر على طريقة (لوبوتان)، قرّرت أن أطلي أظافري باللون (البرغندي) الذي تستعمله كارمن. بدأت بقدمي اليمنى، ورفعتها إلى طرف

السرير. كان عبّود يقف عند الباب يلفّ ذراعيه مسنداً جذعه ورأسه إلى العارضة، ويراقبني صامتاً. جفلت حين رأيته، وتوقّفت عمّا كان بيدي. قال: سأنتظرك. تريدين مساعدة؟ عدّلت جلستي وابتسمت. فأقبل نحوي، وأمسك بالريشة وبدأ يطلي أظافري، وأنا تغمرني الدهشة والإثارة!

- أحبّ أن أفعل معك الأشياء التي لم أفعلها، والتي كنت أحبّ أن أفعلها!

- عبّود، بلا مبالغات، ماذا عن البنت التي تلبسك المريول، والصبيّتين العاريتين اللتين تتراشقان بالكريما؟!

- هذا شغل! لا شيء يعادل متعة أن أراك وأنت تضعين المناكير على أظافر قدميك، أو ترتدين جوارب النايلون الشفّافة على مهل وتصعدين بها إلى الأعلى. لن تصدّقي أنّني كنت أفكّر بهذين المشهدين منذ أن كنّا صغاراً...

- لا أصدّق! لم يكن يبدو عليك ذلك...

تناول من على تواليت كارمن ريشة المساحيق، وبدأ يمرّرها على وجهي من جبيني باتجاه ذقني، ورقبتي، إلى صدري الذي كان مغطّى بقماش الثوب، فحرف مسار الريشة إلى كتفيّ، فرقبتي من الخلف، وأنا أشعر بدبيب نمل يرتجف جسدي له، فأغمض عينيّ وأنكمش قليلاً لمقاومة احتماليّة أن أذوب. التفّ خلفي وبدأ يمشي بالريشة على ظهري مليمتراً مليمتراً حتّى وصل نهاية الفتحة، والتي قدّرت أنّها كانت بعيدة وواسعة،

وبدأت أسمع صوت نفَسه يكسر الصمت، وصار أسفل بطني يرتخي ثمّ ينقبض ثمّ يرتخي، فالتففت على جسدي، وقمت عن السرير:

- عبّود لا تفعل ذلك معي... أنا لست مثلك. لم أعش في أوربة، و لم أقترب من رجل، وليس لديّ من يلبسني المريول!

قال بخبث:

- طيّب، ألم يقترب الرجل منك!

- لا ياااا!

- إذن لا تقولي هذا الكلام لأحد هنا. سيظنّون أنّ لديك مشكلة عقليّة.

رمى الريشة إلى السرير فسقطت على (الباركيه) وأصدرت صوتاً، ولحق بي، واحتضنني بيد واحدة، وقبّلني قبلة خاطفة في عنقي، وقال:

- هيّا لنذهب...

في الحقيقة احتجت بعدها أن أتمسّك بمقبض باب خزانة الثياب كي لا أقع من الإثارة! ورغم ذلك لم أسكت له على عبارته اللاذعة:

- أنا لست من هنا، وبناء على ذلك فإنّ تقييمي العقليّ يتمّ وفاقاً لمعايير أخرى. وستنتظر حتّى يجفّ المناكير، ثمّ نذهب!

عدنا أنا وعبّود طفلين، نتشاكس، ونتجوّل في الحـــارات، ونخرج من بيت لندخل آخر، ونشتري الكازوز وبطاطا ديربـــي من الدكاكين الفقيرة التي نفتح ثلاّجاها فتكون المشروبات حارّة والمواد تالفة بسبب انقطاع الكهرباء لفترات طويلة، و لم أتوقّع أنّه كان يمتلك تجاهي مثل هذه الخيالات الماجنة.

هكذا، صرت في قلب العمارة الآجريّة القديمة التي تأمّلتـــها خلال مروري من هنا في الأيّام الثلاثة الماضية، وفي الشقّة ذاهـــا بنافذها البيضاء وستائر الأورغانزا. كنت أتوقّع أن أشمّ في بيتـــه رائحة بهارات المطبخ، لكنّ لبيته رائحة ذكوريّة، رائحة نوم، مع رائحة عضويّة لجسد شاب، ورائحة غسيل متّسخ، وحمّام رطب، وبارفان من الصنوبر الجبليّ... أزاح الستائر وفتح الشـــبابيك، وهو يدفعني أمامه بيد يريحها كلّ قليل على ظهري مـــن فتحـــة الثوب، ثمّ يمرّر رؤوس أصابعه جيئة وذهاباً، ثم يضغط على لحمي ويثنيه، وبدا لي أنّه سيفعل ذلك وهو يجوب بـــي الشـــقّة إلى الأبد، وأنا كنت بحاجة لأجلس فوراً لأنّ ركبتيّ لم تعودا قادرتين على حمل جسدي، حتّى صوتي خرج بصعوبة: عبّود، خلص...

فهبط بـــي على الأريكة وعانقني، كأنّنا التقينا للتـــوّ و لم نكن طوال الليل معاً في شقّة كارمن!

- لم يخطر في بالي ولا مرّة أنّه يمكن أن تزوري بيتي في يوم يا لولو! الرقّة كلّها عندي اليوم، الحارة وأبـــي وجدّتي وعمّتي...

كان أبوه قد مات قبل الحرب، وقبله بزمن ماتت جدّته، وعمّته الفضوليّة تزوّجت برجل أرمل، ومع بدء دخول داعش رحلت صفاء زوجة أبيه مع ابنيها إلى الريف، وبقي بيتهم مغلقاً.

تمكّن عبّود بدأبه من شراء هذا المنزل الذي لا بدّ من أن يكون ثميناً! فهو على الراين وفي قلب كولونيا، وبناؤه، الذي بقي صامداً، يعود إلى ما قبل الحرب العالميّة الثانية، بروح العمارة (القوطيّة الجديدة) حيث شرفات صغيرة، ونوافذ محاطة بأقواس مجنّحة، وحجارة مبيضّة، مكحّلة بإطارات مزخرفة. علّق عبّود على جدران غرفة الاستقبال الواسعة شهادات كثيرة، وصوراً مع شخصيّات بدت أنّها من عالم الفنّ والأعمال، وثمّة صور له مع عديد من الحسناوات: ملكة جمال إكوادور، وملكة جمال غواتيمالا، وملكة جمال فرنسا... قدّم لهنّ سلسلة من المحاضرات أثناء مسابقة ملكة جمال العالم، حول الطهي الباذخ وانتقال الأطباق المحليّة إلى العالميّة، وحول احترام الموارد الخاصّة بكلّ بيئة... كان يروي لي قصّة نجاحه باعتزاز، فقاطعته بالسؤال الذي هربت منه في طفولتنا، والذي عذّبني طوال حياتي، ولم تسعفني الظروف لأسأله فيما بعد:

- عبّود، كيف قتلت جدّتي كرمة!؟

- ما فهمت!

- كيف قتلت جدّتي، احكِ لي.

- ماذا يعني قتلتها؟
- يعني في تلك الليلة التي ماتت فيها جدّتي كرمة، أنت قفزت عليها من النافذة، وأنت تضع رأسك في فردة جورب النايلون، وأخفتها فأصيبت بجلطة وماتت. نسيت؟!

ابتعد عنّي قليلاً ووضع كفّيه على فخذيه وحلّق بعيداً كأنّه يراجع الأحداث الماضية. يبدو أنّه قد نسي جريمته!

- ماذا تقولين لولو! أكيد تمزحين!
- لا، لا أمزح، لقد سكتُّ على ذلك طيلة حياتي ليس لأمزح الآن؟ عبّود أنا حتّى اليوم أحمل تبعات هذا الإثم، أتعايش مع الخوف، والندم، واللوم، والحزن. وافقتك على ما فعلته وشاركتك في سخافتك القاتلة. نحن مجرمان عبّود، أنت مجرم! كيف استطعت أن تعيش مرتاحاً، وتنسى، وتسافر، وتنجح هكذا، وأنا تعطّلت حياتي بسبب استهتارك وإجرامك...
- له له له يا لولو، أنت حقّاً مجنونة! عن أي إجرام تتكلّمين؟ أنا مجرم! لا، وقاتل! ولجدّتي كرمة كمان! يعني تركت كلّ الناس لأقتل نانا كرمة! الله يرحمها كانت الأحبّ إلى قلبي، بل كنت مسحوراً بها. أبحث في وجهها وبيتها وحكاياها عن تلك الراقصة الفاتنة التي يقولون عنها!

يا اللهǃ يا اللهǃ يكفي صدمات، يكفي! يعرف إذن أنّها كانت راقصة، كيف؟ كلّ الناس تعرف الحقيقة، وأنا التي كنت أعيش في بيت من الوهم!

وضعت يديّ على جانبي رأسي لأحميه من الانفجار:

- أعرف أنّك فعلت ذلك من غير قصد... لكنّك فعلت!
- لولو لا تجننيني... لولو أنا حين اعتليت نافذتها، لم أجدها، لم تكن موجودة في سريرها. ثمّ إنّ جدّتك وقعت في المطبخ وماتت. هذا ما أتذكره من كلام الجميع وقتها. أصيبت بجلطة وهي في مطبخها. ثمّ وقعت وكان دماغها مرتجّاً. ذلك كان التشخيص. نقلوها إلى المستشفى بسيّارة فرحان، وأبي ذهب معهم. أتذكر جيّداً حين هبّ مسرعاً، فوقفت في الشارع أبحث عنك، ولم أجدكِ. عرفت أنّك كنت نائمة. أنا لم أرها تلك الليلة لولو... أنت مجنونة.

كأنّ أحداً واجهني بحقيقة أنّني أنا لست أنا، ولست من هذا العالم، ولست ابنة لهؤلاء الناس، أو أنّني لست في الحياة، بل في الموت، وعليّ أن أصحو لأواجه القيامة:

- ياي.. عبّود ماذا تقول!
- أقول الحقيقة لولو...
- وكلّ خوفي، وأيامي السوداء، وعقاب الله لي بأن أفقد ماما وأحرم منها...

- أي عقاب لولو؟ أيّ عقاب! أمّك ماتـت لأنّ النـاس يموتون. وأبـي مات أيضاً، وملايين الناس يموتون كلّ يوم لأنّ الحياة تنتهي بالموت. هذا لـيس لـه علاقـة بالثواب والعقاب.

- لقد رتّبت حياتي على أساس أنّني شاركتك قتل جدّتي!

- والله هذه مشكلتك.

كأنّ عبّود كان مطهّراً من أيّ ذنب، وأنا عشت ربع قرن على وهم. أجلد نفسي بالوهم، وأخاف من كلّ خطوة، وأتعطّل عن أيّ قرار، حاملة يقيناً مهيناً بأنّ الله لن يوفّقني، ولن يكـون معي. ماذا عن انسحاقي أمام ماما، وإحساسي الـدائم بـأنّني صنعت مأساها، فلم أتمتّع معها؟! كنت كلّما نظرت إليها أشعر بالإثم بدلاً من الأمان! كلّ ذلك ذهب هكذا... في لحظة...

كان عبّود يسمعني بوجه مستغرب. يضع يده على جبينـه ويربّت عليه كأنّه يحرّك الأفكار، ثمّ يلقي رأسه إلى الخلف وقـد لفّ ساقاً على ساق فجاءت رجله في وجهي:

- نزّل رجلك من أمام وجهي...

بدأت أهاوى شيئاً فشيئاً، إذ بدأت حياتي تفرغ من قضيّتها الجوهريّة، مثل من أدمن على التعذيب ثمّ فقد الجلاّد!

- الآن ماذا سأفعل؟!

- ستغيّرين قناعاتك... كيف فكّرتِ بـذلك؟ لمـاذا لم تسأليني؟ كنت أمامك لولو.. تعـالي تعـالي... أنـت

مسكينة، كنت أرحتك من أوّل يوم... تعالي..

وأراد أن يحتويني بذراعيه، فصرخت في وجهه:

- بعّد عنّي، بعّد عنّي... يا مجرم!

بهت عبّود، وابتعد عنّي قليلاً...

- إذا أعدتِها مرّة ثانية، سأزعل منك فعلاً!

- تزعل! أنا قضيت حياتي بالزعل والعذاب، عشت كلّ أيّامي متجنّبة الثقب الأسود الذي في قلبـــي، أخـــاف من أن أقترب من نفسي، من داخلي. بنيت حواجز مع العالم كي لا يكتشف أحد هشاشتي في الداخل بسبب أنّني قاتلة. لم أقترب من أمّي، ولا بنيت صداقات، ولا تركت نفسي لأحبّ رجلاً، ولم أتزوّج لأنّ كلّ شيء سيؤول إلى عقاب عن إثمي، وأنت تقول ستزعل! ازعل يا أخي.. ازعل.

سكت عبّود وراح ينظر إلى الجدارن ويغمض عينيه، مثلما كان يفعل حين تحيّره حقيقة علميّة. ثمّ قام، وقال:

- سأصنع لك شاياً..

صرخت: ما بدّي ي ي، وانتفضت لأبحث عن الباب...

- وين رايحة!!

لحق بـــي وكبّل ذراعي...

- لن أدعك تذهبين لولو رغم جنونك، لن تذهبـــــي... نحن لسنا في الرقّة.

بدأت أحاول التحرر منه وأنا أقول: اتـــركني.. اتـــركني.. اتركني.. اتركني ، وأضرب صدره بساعديّ.

أردت أن أخرج من بيته، وأن أمشي وحدي في الشـــوارع حتّى تذوب قدماي فأسقط ولا أقوم أبداً، بل أن أهرب من أيّام عمري كلّها، التي كنت أستيقظ كلّ يوم فيها لأتناسى أنّني قتلت جدّتي. كلّ يوم أضيّع لحظاته في انتظار العقاب أو الصـــفح. لم أفعل شيئاً في حياتي غير ذلك. التصقت بأمّي كي لا أفقـــدها أو تفقدني عقاباً لي على فعلتي. لم ألتزم بدراســـتي علـــى الوجـــه الأكمل، كما كانت تريد لي أن أتابع الماجستير والدكتوراه، ولم أمنح نفسي لعملي في المتحف الذي كنت أحبّه جدّاً، بانتظـــار المصيبة التي ستكون العقاب. حين مات أبـــي في اليونان من غير أن أراه اعتقدت أنّه جزء من العقاب، وحين قامـــت الحـــرب اعتقدت أنّها جزء آخر، وحين جاءت داعش، وحـــين قصـــف بيتنا، وحين خرجنا من بلدنا، وحين انقطعت ساقا أمّي وماتت وتركتني وحيدة... ولم ينته العقاب. هل انتهى العقـــاب الآن، انتهى بهذه الحقيقة التي نسفت حياتي الماضية، وكيف عليّ وأنـــا على مشارف الأربعين أن أبحث عن حقيقة أخرى أبني عليهـــا حياتي القادمة!

كنت غائبة مع أفكاري، وأنا أقول له بطريقـــة هســـتيرية: اتركني.. اتركني، وأضربه في صـــدره، وكـــأنّني منقســـمة إلى اثنتين:

- لن أتركك.. لن أتركك.. لن أتركك... أنت مسؤوليّتي. تعالي. اضربيني، مرّة أخرى، مرّة أخرى...

وتمنّيت ألاّ يتركني عبّود، فليس لي أحد في العالم غيره:

- أنت لا تعرف...

قاطعني وهو يضع فمه على أذني...

- أعرف والله أعرف، وآسف من أجلك... أفهم ما عانيته، وما تعانينه الآن. لكن هذا ما وقع. بنيتِ حياتك على سوء تفاهم، هذا يحدث. هوّني عليك.، شوي شوي. نانا كرمة كانت تقول: يا واش يا واش!

جاء حرف الشين من بين شفتيه مثل المسكّن، فابتسمت، وصوته كان هادئاً وخشناً وعريضاً، وكان صوتي حادّاً ومرتجفاً وعالياً!

- لولو يجب أن تفرحي الآن، لا أن تستمرّي في تعذيب نفسك..

بدأت أهدأ حين شعرت أنّه فهم معاناتي، وأنّه يتّخذ دور الحكيم الواثق، الذي أحتاج ثباته ويقينه. أريد أن يساعدني في الانتقال الصعب من دنيا الآثام إلى دنيا البراءة!

وقفت عند الباب منتصبة على مسافة منه، وأخفيت وجهي بكفيّ وبدأت أبكي...

حملني عبّود بين ذراعيه، وأعادني إلى الأريكة، وكنت مستسلمة، خائرة القوى، ومصابة بالفراغ. يا الله! حتّى الأساس

الذي بنيت عليه حياتي انهار! كنت أرجو فقط أن يكون عبّود قد فهم ألم انتقالي من حقيقة إلى حقيقة أخرى مضادّة، والمعاناة التي تنتظرني لأتكيّف معها.

لم نفعل شيئاً أنا وعبّود. لم نأكل و لم نشرب و لم نتكلّم، متسمّرين على الأريكة فحسب. أسمع نفَسه، وضربات قلبه المنتظمة، وقرقرة معدته، وقد ربطني بين ذراعيه ليحميني من تبعات الحقيقة وآلام التغيير. أعتقد أنّه غفا، وأنا ما زلت أقاوم الاستسلام لواقع الأمر الذي يشبه خيالاً بشعاً، بل يشبه العبارة التي نقولها في الحكايات: "أنام فأصحو لأجد نفسي شخصاً آخر!".

صارت الأشياء التي عليّ أن أنساها كثيرة جدّاً وثقيلة. عليّ أن أنسى حياتي كلّها إذن، وأن أندمج مع نفسي قبل أن أندمج مع فقد أمّي، ومع البلاد الجديدة، والناس الغرباء، واللغة الجديدة، واستعادة وجود نيكولاس، وميونخ والعمل... قال عبّود إنّه يخشى عليّ كثيراً، فأعصابي لن تحتمل هذا الضغط وهذا التغيير، وهو يقترح أن أبقى معه، وفي رعايته بعض الوقت قبل الانتقال إلى ميونخ، وإنّه سيكلّم نيكولاس بهذا الأمر حين سيأتي غداً. قال أيضاً: يكفي ضغوطات، لا بدّ من أن ترتاحي لولو كي تبدأي حياتك الجديدة بنشاط...

ليس عليّ سوى أن أمتثل. كان محقّاً! بدأت أصحو على فكرة أنّني لا أُطاق، فلماذا أصرخ في وجه عبّود وأضربه وأتّهمه؟ ما علاقته هو بكلّ ما فعلت؟ لماذا أحمّله تبعة فكرة سوداء، أو

وهم غبيّ بنيت عليه حياتي، في حين أنّه يحتملني، ويناقشني، ويمدّ يديه الاثنتين لمساعدتي. عليّ أن أكون ممتنّة بأنّه يمنحني وقته ورعايته، ويقلق على أعصابي، ويفكّر معي بمستقبلي. هو الآن ليس ملزماً بشيء، وليس بيننا ذلك السرّ الخطير، وليس شريكاً في الجريمة، وليس هناك جريمة أصلاً! قلت له ذلك، واعتذرت، واستمرّ في كرمه، وهو يشدّني إلى صدره، ويعصر لحمي:

- خلص لولو... ماذا تقولين... أنت أنا. ما أحزنني من زمان أنك تركتني وحدي وابتعدت عنّي، وبقيت محتاراً. لا أريد أن أتركك كما فعلتِ معي. لا أريد أن تحتاري وتتألمي وتبقي وحدك كما حدث لي. كانت أيّاماً صعبة عليّ، لم أكن مع ماما ولا معك، وكنت كلّما سألت عمّة نجوى عنك، وعن سبب ابتعادك عنّي، تقول: لا أعرف، ممكن أنّها مشغولة بدراستها. كنت تهربين منّي، وأدركت أنّك لم تعودي تحبينني...
- لماذا لم تقل لي، لم تسألني؟
- لم تعطِني فرصة.

كلّ هذا العذاب يا لولو بسبب أنّنا لم نتكلّم! لو قلت لي عن شكوكك تجاه موت نانا كرمة، أو لو عرفت سبب عزلتك وابتعادك عنّي، ربّما لكانت الحياة سارت في اتجاه آخر. كان علينا أن نتكلّم، أن نفكّر معاً، ونتكلّم.

* * *

هدأت العاصفة، وحطّمت ما تبقّى من سفينتي، لكنّها سحبتني إلى الشاطئ. لا أريد أن أخمّن الأضرار، أو أفكّر بالترميم. أريد أن ألتقط أنفاسي، وأستسلم للفراغ فحسب. قال عبّود إنّنا جائعان، وليس لديه طعام، فهو لا يطبخ في البيت، ولا يحتفظ بمواد غذائيّة. اقترح أن نذهب لنأكل في الخارج. قلت له إنّني لست جائعة، بل إنّني سأستفرغ! أراح رأسي على مخدّة، ورفع قدميّ على مسند الأريكة، وطلب إليّ أن أتنفّس بعمق. بعد دقائق شعرت بأنّني أفضل. ذهب ليحضر طعاماً، وقبل ذلك سينجز عملاً سريعاً في مكان قريب. اعتذرت لأنّني أشغله وأعطّله، فوضع يده على فمي، وقال سيتوقّف كلّ شيء الآن من أجلي، وقال أيضاً: ثمّة في الحياة أولويّات!

غطّاني ببطانيّة خفيفة، وأعطاني ريموت التلفزيون، وطلب إليّ أنا أنام، ثمّ سمعته يقفل الباب. حاولت بكلّ جهدي أن أنام ففشلت، وبدأت أقلّب قنوات الستلايت، ولا قناة عربيّة، لكن على قناة فرنسيّة كان محمّد فارس رائد الفضاء السوريّ يتحدّث، فراحت الذكريات تجري بي مثل فرس هربت خارج المضمار:

لم ننم تلك الليلة، اجتمعنا جميعاً في صالون العمّة ماريـة. جدّتي ذهبت لتنام في الثانية عشرة، ثمّ قامت في الرابعة والنصف كأنّ منبّهاً أيقظها. أمّي جاءت من أجل نيكولاس، وعبّود وأنا كنّا نلعب مع أحفاد العمّة مارية، في حوشها الواسع، الذي في وسطه حوض كبير من الزرع النضر. كان لها مزاج في الورد.

شتلة المجنونة أطلقت زهورها النيليّة، وشتلة المرجان تدلّت ورودها على المساند الخشبيّة التي ثبّتتها العمّة ماريّة بين الشجيرات لتتسلّقها نباتاتها، ورائحة شجيرة الكولونيا تملأ الدنيا من حولها. عندها أيضاً دالية عنب، تتعربش على سلّم خشبيّ وسقف من قضبان. نقطف دائماً حصرمها، ونرشّ عليه الملح، ونأكل منه حتّى نضرس، وتقول لنا: اتركوه كي يصير عنباً، لكنّنا نفضّل ذلك التحدّي مع الطعم الحامض الذي يورّم ألسنتنا.

كانت فرصة سانحة أن أبقى مع عبّود حتّى وقت متأخّر، بل إلى الصباح، وبطريقة مشروعة، وذلك يوم ممّا نسمّيه بأيّام السماح، حيث عيد أو عرس أو عزاء... أيّ حدث جماعي مهمّ ، يتركنا فيه الأهالي لنسهر معاً دون قيود على العودة. كانت الليلة التي تسبق 22 تمّوز من العام 1987، العطلة الصيفيّة في أوجها، وقد اصطففنا على مصطبة في الحوش، أمام غرفة المؤونة لنلعب لعبة الألوان: بدّي لون يبدأ بحرف ق: قهويّ... باء: بندقيّ... ص: صنوبريّ... ونخترع ألواناً ما أنزل الله بها من سلطان! في الوقت ذاته، ويمكن تحديده بدقّة، وهو الثانية صباحاً بتوقيت دمشق، كان الرفيقان ألكسندر فيكتور نيكو، وألكسندر ألكسندروف رائدا الفضاء الروسيّان قد دخلا المركبة الفضائيّة سويوز م3/ soyuz- m3/ ومعهما المقدّم محمّد فارس، رائد الفضاء السوريّ، والذي تدرّب منذ عامين في مدينة النجوم على بعد خمسين كيلومتراً من موسكو. سيصعدون معاً إلى المحطّة الفضائيّة الروسيّة

(مير)، وسينجز فارس ثلاث عشرة تجربة تسهم في تطوير البحث العلميّ في الزراعة، والكيمياء، والفيزياء، والجغرافية.

كان نيكولاس يشرب البابونج في صالون العمّة مارية الواسع والمفروش بأريكتين خشبيّتين متجاورتين من المخمل الأزرق، ومجموعة متجانبة أيضاً من الفرشات المنجّدة باللون البنيّ والمنقوشة بورود بيج كبيرة، وهذا النوع من الفرش يسمّى بالمدّ العربيّ الذي لا تتخلّى عنه معظم بيوت الرقّة. يدخل نيكولاس ويخرج من غرف بيت العمّة ماريّة بحريّة تامّة، وربّما دخل إلى المطبخ وأعدّ عشاء، أو حضّر صندويشات أو مشروباً ما، وكان يساعدها أحياناً في ترتيب البيت وغسل السجّاد. كانت تحبّه جدّاً وتدلله كواحد من أولادها الذين سافر بعضهم ليعمل في الخليج، ولها بنتان متزوّجتان وتسكنان في الأحياء الغربيّة الجديدة، وبقيت معها زينة طالبة الصيدلة بعد وفاة زوجها العم هادي. سألت نيكولاس:

- هل سيذهب محمّد فارس إلى القمر؟
- لا.. الفضاء ليس القمر!
- هل سيعود؟
- نرجو ذلك.

لم تعجبني لهجته المحايدة، زادت من قلقي على مصير روّاد المركبة. لم يكن نيكولاس مهتمّاً بهذه الرحلة بالقدر الذي توقّعته. كان يتحدّث مع أمّي، وسمعته يقول لها: الروس شياطين! هي

أيضاً لم يكن اهتمامها أكثر من اهتمامه إلى الآن. كان التلفزيون يبثّ أناشيد وطنيّة في إرسال استثنائيّ بسبب الرحلة، وأكثر السوريين كانوا بانتظار الساعة الخامسة صباحاً. عبّود كان فخوراً جدّاً، وسعيداً، فالروس بمنزلة أخواله. كنا نشعر أنّ البلاد الاشتراكيّة كلّها عائلة واحدة.

جاءت جدّتي تبحث عن الأنس في السهرة، ووضعت العمة مارية طبقاً بلاستيكيّاً فيه فاكهة: خيار ودرّاق ومشمش وخوخ... كلّ منّا يخرج قليلاً إلى الحوش أو أمام باب البيت، ويدخل في ترقّب، في حين يجلس محمد فارس ورفاقه في المركبة، ويستعدّون نفسيّاً وجسديّاً للانطلاق في صاروخ يسافر بهم على ارتفاع خمسين متراً، ثمّ ينفصل عنهم. لا أحد يعرف ما الذي يجول بخاطر كلّ منهم، سيعود أم سيموت في الفضاء! كنت أكلّم نيكولاس محاولة مناورة حائط الجليد الذي كلّما أذبته بيننا انبنى من جديد. لماذا يتعامل معي بهذا الجفاء، وهذه العنجهيّة؟ من الذي اعتدى فينا على الآخر! من الذي سرق الآخر؟ يعرف أنّني أكرهه، وأعرف أنا أنّ هذا أسلوبه ليتجنّبني. حاصرته بالأسئلة وكأنّه الوكيل الحصريّ لهذه الرحلة. كنت أثق بمعارفه بشكل مطلق، وكان يُخيّل إليّ أنّه يعرف حتّى أسرار الثقوب السوداء، ولديه إجابة عن كلّ الأسئلة الكونيّة المحيّرة كلّها:

- هل سيخرجون ويسبحون في الكون؟ هل سيقفون على أرض كوكب ما؟ فكّرت ثمّ كيف نقول أرض كوكب

وهو ليس أرضاً! غيّرت سؤالي: هل سـيقفون علـى سطح كوكب ما؟

- لا لن يخرجوا إلى الفضاء أو يسبحوا فيه، سينتقلون من مركبتهم التي يتوقّع أن تلتحم بعد حوالي يومين بالمحطة الفضائيّة مير والتي ترتفع 400 كم عن سـطح الأرض. حيث زملاء لهم يقيمون فيها منذ سنة.
- لماذا نذهب إلى الفضاء، إلى الكواكب، للبحث عـن سكن بعد أن تمتلئ الأرض؟
- بل لمعرفة التاريخ! تاريخ الانفجار العظيم (بيغ بـانغ)، وبداية الخليقة. نذهب إلى الفضاء لنعرف الأرض.
- التاريخ!
- التاريخ.
- ماذا لو مات أحدهم فوق في المركبة؟ سيرميه زملاؤه في الفضاء؟ سيدفنونه على سطح أقرب كوكب؟
- ممكن، لكن لن تطاوعهم قلوبهم لفعل ذلك. لا قبور في الفضاء، ربّما بعد قليل من الزمن ستجد ناسا حلـولاً لذلك، وسيكون ثمّة شركات لدفن مـوتى الفضـاء بطريقة صديقة للبيئة. قد يتمّ وضع الجثمان في حقيبـة وربطه بإحكام، وتجميده في الفضاء البارد، ثم تجفيفـه بالنتروجين مع استمرار تحريكـه بحركـة اهتزازيّـة حتّى يتفتّـت إلى أجـزاء صـغيرة، ثمّ يتحـوّل إلى

مسحوق، يوضع في جرّة ويعلّق على الحافّة الخارجيّة للمركبة!

لم ترقني الصورة، مزعجة وليس فيها المهابة التي يستحقّها رائد الفضاء! ظهر المذيع في بثّ مباشر لينقل لنا المراحل الابتدائيّة من الرحلة، صوته الحماسيّ حفّز الجميع، فاتخذنا أماكننا على وقع مديحه للوطن، وللفتح السوريّ لعالم بعيد خارج حدود الأرض. الغبطة، والفخر، والخوف كانت المشاعر التي تتحكّم بقلبي، خوف شديد على الروّاد الثلاثة، ليس فقط على مواطني السوريّ. جدّتي تدمدم: هه.. بدأ مسلسل النفاق، من أين يأتون بهذا الكلام؟ ألا يتعبون!

العمّة مارية تمدّ ساقيها، ينحسر ثوبها، ويضيء البياض، ثمّ تظهر أصابعها الأنيقة، وفوقها أظافر مرتّبة ونظيفة، فتتناول سجّادة صلاة من خزانة في الحائط خلفها، وتغطي بها ما انكشف.

التصقت بعبّود على الأريكة الصغيرة، فانزلق غطاؤها ذو الشراشيب الذهبية وصورة روميو وجولييت في أحضان بعضهما البعض. عدّلته وعاودت الجلوس مجدداً لأصير ألصق بعبّود، من غير أن يلاحظ أحد هذا القرب المفتعل، فالغرفة مكتظّة بالمتفرّجين مصفوفين كأنهم في صالة سينما... العمّة مارية تقول: يارب يروحون ويرجعون بالسلامة.. الله يعين نساءهم وأطفالهم، ربّما لن يعودوا!

جدّتي صامتة، بقميص النوم وفوقه (روب دي شامبر) قطني خفيف كحليّ، وقد لفّت شعرها بإيشارب بيج، ينسدل على رقبتها ويغطّي صدر ثوبها المفتوح، صارت تفعل ذلك منذ وفاة خالي. أنا لم أغيّر ثيابي هذا المساء، وكذلك عبّود، ما زلنا ببنطلونات الشورت والـ (تي شيرتات) التي خرجنا بها للعب منذ العصر. بدأ صوت المذيع يعلو، والقاعدة تحت الصاروخ ملتهبة بنار تخرج مثل عين البابور الكبير تحت دست الغسيل النحاسيّ الذي عند جيراننا عائلة البستاني، والذين ما زالوا لا يؤمنون بأداء غسّالات الأوتوماتيك... في الخامسة إلاّ دقيقة سمعنا صرخة محمد فارس من قلب المركبة: يا الله! اقشعرّ لها بدني، وانفصل الصاروخ عن القاعدة واندفع عالياً عالياً، وعلا تصفيقنا... وكلّ من في الغرفة يردّد يا الله يا الله... حتّى جدّتي التي بدت مذهولة عن ذلك كلّه. وبدأ المذيع يسابق الصاروخ بعباراته: الله معكم/بالسلامة، السماء فتحت أبوابها، السماء تحتض سوريّة... الكاميرا توجّه في اللحظة ذاتها إلى اجتماع الجنرالات الروس في محطّتهم الأرضيّة، وكانوا يصفّقون مثلنا، ويضحكون، ويهللون! علا الصاروخ وعلا، وتهافتت النار التي حملها معه، وهدأ الصوت، وتنفّسنا الصعداء، وفجأة ظهر على الشاشة ركّاب المركبة، فسمعت شهقة العمّة مارية، وراحت تبسمل، وتدعو الله بسلسلة أدعيتها الخاصّة. كنت خائفة، أسمع طرقات قلبي، وكان خوفاً مصحوباً بنشوة، وحلّ الصمت،

وبدأ الخوف يهدأ حين بدا محمد فارس ببدلته الزرقاء التي فيها أشرطة فضية لامعة، بشعره الأسود وشاربيه العريضين، وعلى رأسه خوذة. أشرق خلفه علم سورية، فامتلأتُ بالمجد، وضغطت بذراعي على ذراع عبّود، فقال: أي.. وابتعد قليلاً!

انفتحت نافذة على مكتب باذخ أمام مكتبة، يجلس وراءه رئيس الجمهوريّة، وبدأ حوار تغلب عليه عاطفة الفخر، والفرح المتزن من قبل الرئيس المشوب بأبوّة صارمة، وفرح لم يتحرّر بعد من قوانين الأرض يبديه رائد الفضاء:

- ماذا ترى يا مقدّم محمد الآن؟

- أرى بلدي الحبيب سورية، أراه رائعاً جميلاً كما هو في الحقيقة...

لاحظت رغم انفعالي بالمشهد، خروج جدّتي وهي تتمتم. كانت تشتم لاشكّ، هي تجد أنّ كلّ ما له علاقة بالوطن متّهم بقتل ابنها، لا أعرف إن كانت ستستطيع يوماً ما أن تصفح، لكنّها لم تكن بحاجة إلى أن تلتقي بمن يذكّرها بوجعها، ولم تكن تريد أن تنظر في عيون أصغر موظّف على صلة بدائرة أمنيّة. لقد قتلوا ابنها، وقبل ذلك أخذت زوجة ضابط كبير ذهبها ومالها لترتّب لها موعداً لزيارته في المعتقل، ولم تفعل، بل تلقّت تهديدات بأنّها لو عاودت فتح هذا الموضوع، فإنّ الأمور ستصير أسوأ! لكن ما هو الأسوأ من فقد نجيب! كانت تقول. أشعلت سيجارتها، وفعلت ما كانت تعيبه سابقاً: جلست بثياب النوم

على عتبة مرتفعة لإحدى الغرف، وراحت تسحب النفس، وتتابع خيط الدخان نحو الأعلى. ربّما كانت تفكّر بلقاء بين المركبة الفضائيّة وروح خالي نجيب الصاعدة إلى السماء!

كنت قد حزنت على رائد الفضاء السوريّ الآخر، الاحتياطيّ، منير حبيب! لقد تلقّى التدريبات ذاتها، لكنّ الاختيار وقع على محمّد فارس، وقدّرت أنّ اسم فارس أكثر مناسبة لرائد فضاء! وتساءلت عمّا يفعله منير حبيب الآن، وهل شعر بالخيبة لأنّه لم يحظَ بالاختيار؟ ربّما يشعر براحة، إذ نجا من هذه المغامرة القاتلة، إذ تبدو لي أحياناً فكرة الصعود إلى الفضاء فكرة حمقاء! وربّما ينتابه الشعوران معاً، لكنني حزينة من أجله حقّاً! شعرت بشيء من الإنصاف حين سمّوا باسمه مدرسة إعداديّة في المدينة، وطلبت، تعاطفاً معه، أن تنقلني أمّي إليها، لكنّها قالت إنّها بعيدة كثيراً عن بيتنا!

لم يعلم الفرات الذي يجاورنا على بعد خمسة كيلو مترات أنّ تجربة ستجرى في الفضاء، وستحمل اسمه، وسيكون لنا دار في المدار حتّى لو بادت ديارنا على الأرض. بقي ركّاب المركبة سويوز في الفضاء سبعة أيّام وثلاثاً وعشرين ساعة وخمس دقائق، وأجرى محمّد فارس خلالها ثلاث عشرة تجربة، وتضمّنت تجربة الفرات اختبارات حول الاستشعار عن بعد، حيث تمّ التقاط صور فضائيّة لسورية، لدراسة التلوّثين المائي والجويّ، والأحواض الجوفيّة، وفحص نسبة الملوحة في التربة.

حين انقطع البثّ انتبهت إلى غياب أمّي، نيكولاس أيضاً لم يكن في الغرفة، وهبط قلبـــي، سمعت صوت ارتطامه بقفصـــي الصدريّ، وحدث داخله ذلك الانفجار العظيم!

استلقيت نصف استلقاءة على أريكة الشاموا البيج، والتفتّ إلى النافذة جنب رأسي، فكان الراين، وكانت أغصان أشـــجار البتولا تتعانق بحيث تضيع نهاياتها. رتل واحد يصير لكثافته غابة. تخلّت الأوراق عن الأصفر، والأحمر، والأخضـــر، والبرتقـــاليّ، وتماهت في لون داكن مزرقّ. سحبت الغطاء الصوفيّ الخفيـــف، الذي كان عبّود قد ألقاه عليّ، لأغطّي بطني، لاحظت أنّه وضع إلى جانبـــي كأساً من عصير حضّره بنفسه: خيار بـــالليمون، تغوص فيه ثلاث كرزات حمراوات... الجوّ أخّاااذ، إنّـــه الجـــوّ الذي أحبّه، بعض البرد وكثير من الحنان! حنان غـــير مســـبوق منحني إيّاه بكرم بالغ. يعرف كلانا أنّنا لن نبقى معاً، وربّما يقوم هو بواجب الضيافة على أكمل وجه فحسب، لكنّه يمنح مثـــل الفصول آن وداعها، تعطي بإغداق، ثمّ تنسحب مخلّفة الكثير من أمراض الحساسيّة وعدم التوازن، والكآبة!

لم تتغيّر جلسة محمّد فارس أمام المذيعة الفرنسيّة عنـــها في المركبة. الجسد انتابه اضمحلال العمر، وشعره صـــار أبـــيض، لكنّها لهجته الحلبيّة العتيقة التي حيّى بها الجماهير العربيّـــة قبـــل ثلاثين عاماً، وعنها تظهر على الشاشة الترجمـــة إلى الفرنســـية، ويبدو أنّ محاورته سألته عن رحلته، فقال: إنّ المركبـــة ســـارت

بسرعة ثمانية وعشرين ألف كيلو متر في الساعة، وهي السرعة الكونيّة الأولى للتحرّر من الجاذبيّة، ولمنح ثبات حول الكرة الأرضيّة، ثمّ على المركبة أن تسير بسرعة ثمانية وثمانين ألف كيلو متر في الساعة للتخلّص من جاذبيّة الشمس والوصول إلى النجوم.

كان يحكي، وكنت أبحث عن أمّي، في فضاء غرفة عبّود، وصوتُ بُوْقِ عبّارة مائيّة يوقظ هدأة هذا المساء المطمئنّ، وأسبلت عيناي ببكاء مالح لأنّي لم أجدها للمرّة الثانية، لكنّني سأجد نيكولاس، غداً بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة!

في حلب مسقط رأسه امتلك محمّد فارس محلاً للألبسة النسائيّة المستوردة وبدلات العرائس، وقد عرف المحلّ بأسعاره المرتفعة. كنت أتساءل كلّما مررت من أمامه للتسوّق في حيّ العزيزيّة إذا ما كان رائد الفضاء جالساً عند صندوق المحاسبة، أو أنّه سيقوم بالبيع، أو سينزل ليجلس في المحلّ على الأقلّ، لكنني لم أره ولا مرّة في ذلك البوتيك المسمّى بفارس الفضاء، ولم أكن أجد بين البضاعة بدلة فضاء أو مستلزمات للروّاد، كما كان يخطر في عقلي الطفلِ آنذاك.

قال محمد فارس للمذيعة:

- في الفضاء ظلام دامس، النور شحيح جدّاً ويشكّل 2.5 % فقط من الكون على الرغم من وجود مليارات المجرّات، وإن 97% من المادّة الكونيّة مظلمة، وإنّ

الأرض أجمل من القمر ومن بقيّة الكواكب، هكذا هي كرة صغيرة معلّقة في كون كبير، آية من آيات الله، لا يصدّق من يراها من هناك أنّها تضجّ بالحروب والدماء!

كان محمّد فارس وقتها قد نال وسام لينين من الاتحاد السوفيتيّ، ووصل إلى رتبة لواء في الجيش، وصار مدرّساً في الأكاديميّة العسكريّة. سألته المذيعة الفرنسيّة عن انشقاقه عن النظام السوريّ، وانضمامه لصفوف الثورة، فحكى عن رحلة هربه مع عائلته إلى إسطنبول!

- ماذا تفعل الآن؟
- ليس الكثير، أدخّن الأرجيلة، وأجلس في المقاهي والمضافات!

كان محبطاً جدّاً! حزنت من أجل جسده القويّ، الذي ساعده ليقع عليه الاختيار من بين خمسين ضابطاً طيّاراً، فمكّنه من أن يعرف ما عرفه الندرة من البشر، وأسعفه ليخترق الغلاف الجويّ، ويتجاوز المنطقة الخطرة، منطقة البلازما، حيث تذوب الطبقة الخارجيّة للمركبة وتتناثر عند درجة حرارتها البالغة 3500 درجة مئويّة، كيف يجرؤ على أن يؤذيه بالتدخين والكآبة! لقد بقيت لياقته عالية طوال الرحلة، وقال رفيقاه السوفيتيّان إنّه ارتجف حين حلّق فوق سوريّة، ولمّا حطّ على الأرض كان الأكثر اتزاناً بين أقرانه. نام سبع ساعات، ثمّ استيقظ ليلعب التنس، وقال أيضاً إنّ أجمل ما في الأرض هو سورية!

نظرت من النافذة، فلم أر القمر! السماء مظلمة والنور يأتي من فوانيس الشارع. لم أر القمر ولا مرّة منذ وصلت، حتّى كأنّه لا يبزغ في سماء كولونيا الغائمة! اتصلتُ بكارمن، قالت: إنّها ستخلد للكتابة، وبعدها نخرج لنتعشّى في مكان ما قرب بيتها. اعتذرت، وقلت لها ألاّ تنتظرني، فقد تأخّر الوقت، وعبّود سيحضر طعاماً، وأنا أرغب في أن أبقى معه الليلة.

* * *

حين كان يحطّ اليأس علينا أنا وأمّي، بسبب حصار داعش، والقصف الذي يشتدّ كلّ حين من طيران التحالف، كنّا نفكّر في احتمالات الخروج. كان كثير من الذين عرفناهم قد غادروا الرقّة إلى تركيّا ومنها إلى بلاد اللجوء: اليونان وإيطاليا وهولندا وفرنسا... والأكثر استضافة كانت ألمانيا، والتي تعني بالنسبة لكلينا نيكولاس. كلّما تجدّد القصف ندمنا على البقاء، وكنت أرجو أمّي بكثير من الدموع والعويل أن نخرج. لا أريد أن أموت تحت القصف. أريد أن نذهب كما ذهب الناس، إلى حلب على الأقلّ. كان وجودنا بلا محرم يعطّل خروجنا، وحين نتحايل عليه نجد المنافذ قد أغلقت وحوصرت المدينة من جديد، فنستسلم. قالت ماما يجب أن نتّصل بنيكولاس، أن نبحث عن أيّة طريقة فنجد له عنواناً. أدركتُ وقتها أنّهما لم يتراسلا منذ حقبة، لكنّها على يقين من أنّه سيساعدنا. أرادت أن أذهب بطريقة تجنّبني

وصمة اللجوء، لتضمن لي عودة شرعيّة، وارتـــأت أن أحقّـــق حلمها القديم بإكمال دراستي، كما كانت تخطّط أيّام وجـــود البعثة الأثريّة في تلّ البيعة برئاسة شتيفاني. ذلك الحلـــم الـــذي خذلتها فيه فقط لأنّني لا أريد الابتعاد عنها. قالـــت: علـــيّ أن أذهب فأستقرّ في ألمانيا، وستكون هي آمنة نسبيّاً في حلب، ومن ثمّ ستلحق بـــي، أو أن نسافر معاً إذا تمكّنا من الحصول علـــى فيزا. حين أتت على سيرة نيكولاس لم تحرّك فيّ سوى الندم على أنّني لم أعرفها كامرأة. لم أقدّر معاناتها ومشاعرها واحتياجاتهـــا، وكان وجودي في حياتها مدعاة للأسف، إذ منعتُ عنها كـــلّ سعادة! اعتقدت أنّي حرمتها من أمّها، لكنّني متأكّدة من أنّـــي حرمتها من الرجل الذي أحبّته بصلفي وأنانيّتي وعقلي الطفـــل، وجعلت من نفسي خياراً وحيداً لا مناص لها منه.

كان سهلاً عليّ إيجاد نيكولاس إذا توافر لي اتصال جيّـــد بالإنترنت. لم أتوان في ذلك، إذ كنت أبحث عن خلاص سريع. ذهبت مرّات عدّة إلى مقهى النت في الحـــارة. المقهـــى علـــى الرصيف المقابل للبيت لكن عليّ أن أحسب ألف حساب قبل أن أصله، فقد أتعثّر بأفراد الحسبة الداعشيين الذين يلاحقون النساء، والرجال أيضاً لمعاقبتهم على أيّ مظهر مـــن مظـــاهر الحيـــاة. احتجت زيارتين لأحصل على عنوان نيكولاس، وعلـــى إيميلـــه المدوّن على موقع جامعة ميونخ. كتبت له رسالة بالعربيّة. ذكّرته بنفسي، وحكيت له عن الوضع المستحيل، وعن حياتنا أنا وماما،

وعن رغبتي في السفر. في اليوم التالي جاءني ردّه برسالة ترحيبيّة، وبتأكيد على أنّه سيعمل كلّ ما في استطاعته لنتمكّن من الحصول على فيزا، وغالباً سيكون ذلك بطلب يدعوني فيه للعمل معه مُساعِدةً في الأبحاث التي تخصّ تاريخ المنطقة المهدّدة بالزوال، والتي عمل فيها من قبل، مستثمراً تخصّصي في التاريخ وعملي في المتحف، ثمّ ستنضمّ إليّ أمّي في وقت يرجو ألاّ يطول. وقال إنّ عليّ أن أدرس الألمانيّة في مركز معتمد في حلب أو دمشق كي أحصل على شهادة في استعمال المهارات اللغويّة، فأعزّز بها الدعوة التي سأتلقّاها منه. أشعرتنا رسالته بالاطمئنان. أعرف أنّ ماما امتطت ليلتها حصان الذكريات، فنسيتْ لهنيهة داعش، والتحالف، والنظام، والقذائف، والصواريخ، والجَلْد، والمحكمة الشرعيّة، وأمبيرات الكهرباء، وصهاريج المياه... وأغمضت عينيها على صور من أيّام المقطورة.

في المرّة التالية التي راسلت فيها نيكولاس كنت بلا أمّي. دفنتها وغادرت إلى دمشق، حيث ساعدني أصدقاء لنا في الإقامة هناك لستّة أشهر التقطّت فيها أنفاسي، وبدأت أسعى من أجل السفر. شرعت في دراسة الألمانيّة من غير أن أتمكّن من الحصول على وثيقة رسميّة، لأنّ موعد المقابلة مع السفارة في بيروت كان قد حُدّد وعليّ أن ألتحق به، وكان ذلك قبل نهاية الدورة. أرسل لي نيكولاس رسالة تعزية صادقة، وأبدى استعداده التام لاستضافتي في بيته، وتأمين مصاريفي، ودراستي، وعملي من غير

أن أحتاج أيّة جهة أخرى. طلبت منه أن يتدخّل ليحصل لي على منحة من إحدى المؤسّسات لنكمل اقتراحنا الأوّل في الدراسة، الذي كان قبل رحيل أمّي. وفعلاً رتّب لي ذلك حتّى استطعت الوصول إلى هذه اللحظة التي أنا فيها الآن في كولونيا.

أخبرتني كارمن بأنّه سيصل من ميونخ ظهراً، لكنّه سيذهب إلى موعد عمل، ثمّ سنلتقي به على العشاء عند السادسة. كنت مرهقة من أحداث أمس ومن صفعة الحقيقة التي أفقت عليها، ومن عبّود وقربه، وحنوّه، ولمساته، وحرارته، ورائحته، وذكرياتنا، ومتعبة أيضاً من جسدي الذي استيقظ جائعاً ومحتجّاً على الحرمان، بعد أن كان في سبات قهريّ. توجّهنا إلى الجهة الغربيّة من كولونيا، إلى مساحة خضراء شاسعة تطوّق المدينة. بدأ مطر أنيق يرشق زجاج السيّارة. سألتني كارمن إن كنت متحمّسة للقاء نيكولاس، قلت لها إنّ مشاعري حياديّة تماماً، لست فرحة ولا منزعجة ولا متحمّسة.

كان انشغالي بما حدث أمس قد خفّف من توتري تجاه لقائنا، وبعد كلّ ما مضى، من الصعب أن أقول إنّ شيئاً سيوتّرني أو يشعرني بالرهبة، كما أنّني أمرّر الأحداث غالباً لأنّها يجب أن تمرّ! ما أريده هو أن ينتهي كلّ شيء لأخلد إلى نفسي، وأجد الروتين الذي سأركن إليه. أخبرتها بأنّ عبّود قد سخر منّي لأنّه ليس لديّ علاقات مع الرجال، فقالت: ليكن هو الرجل الأوّل إذن! قلت لها بحدّة: لا، لن أسمح له بأن يستمتع بي! هدّأت

من سرعة السيّارة، ورمتني بنظرة حائرة وقالت: استمتعي أنت به أيضاً! سكتُّ، واشحت بوجهي نحو المروج الخضراء.

وددت لو تجهّزت أكثر للقاء نيكولاس، لو لم أكن مرهقة من أحداث الأمس، ومع ذلك حاولت أن أبدو متماسكة ونابضة بدوافع الحياة، والدراسة، والبحث، كي أكون مستحقّة للجهد الذي يقدّمه. كلّ ما فعلته هو أنني لبست الفستان الدانتيل الأزرق الذي اشتريته من الـ (بريمارك) والحذاء الذهبيّ، واستعملت عدّة الماكياج الخاصّة بكارمن، لأنّه لم يتسنّ لي شراء ماكياج. لم تكن ألوانها تناسبني ومع ذلك اخترت ما هو حيادي. فتّشت عن قلم كحل (كاجال)، فقالت إنها لا تستعمله، لكن وجدت في النهاية قلماً قديماً عمره عشر سنوات ربّما، فأحرقت طرفه لأسيّله، ورسمت خطّين مجنّحين فوق جفنيّ. أوّل مرّة أجد أنّ الكحل لا يضيّق عينيّ الصغيرتين، بل يحوّلهما من الأسود إلى الرماديّ. شعري ما زال محافظاً على سواده، وبشرتي صارت صافية ومورّدة لكثرة ما أكلت من التوت البريّ الأحمر والأزرق، والذي يعدّ مضاداً ناجعاً للأكسدة. مشيت في كلّ مكان وأنا أحمل معي طبق التوت وألتهم ما فيه، كان من الأشياء التي حلمت بها طوال حياتي، ولم يكن متوافراً لدينا لا قبل الحرب ولا بعدها. الرحلة لم تغيّر أبعادي، ما زال طولي مئة وستين، ووزني لا أعرف كم، لكن ترهّلت قليلاً، لم أعد مرصوصة الجسد كما كنت، وكما كانت العمّة صافية تصفني بـ: سمك بلا حسك!

وضعت عقد اللؤلؤ الذي كان لجدّتي، ومن ثمّ لبسته أمّي، وحوّلته إلى القطعة الأكثر استخداماً من كلّ ما امتلكت من ذهب وألماس. قلت لعلّه يشكّل نقطة ضغط عاطفيّة على نيكولاس تذكّره بنجوى، وكرمة، والبتّاني، والمقطورة، وتردعه عن التفكير بالتخلّي عنّي. حين رأتني كارمن في كامل استعدادي صاحت: سوبرا وأكّدت على أنّني أشبه أمّي كثيراً، وكان هذا كافياً لأعرف بأنّني في منتهى الجمال.

طلب عبّود إليّ أمس أن أبقى معه، وقال إنّه سيهتمّ بي ويرعاني أكثر من أيّ شخص في العالم، وسيساعدني لأنجز دراسة اللغة بسرعة، ثمّ أختار ماذا سأفعل بعدها، أي أن ألتحق بنيكولاس أو أدرس في مكان آخر. وأصرّ على أنّني ينبغي ألاّ أجبر نفسي على أشياء لا أحبّها من أجل المنحة، فهو سيتكفّل بالأمور الماليّة كلّها. كان صعباً عليّ أن أسمع منه ذلك، فأشعر بيد الإحسان تمتدّ إليّ، لكن في الوقت ذاته أصابتني الطمأنينة لأنّني ما زلت أمتلك سنداً في الدنيا، ولديّ أكثر من خيار. حسمت الأمر بأن أذهب مع نيكولاس، وألتحق بالمنحة.

وصلنا إلى نادي أستوريا، وكان المطر قد تحوّل إلى فيضان شتائيّ مع أننا في تمّوز. امتشقنا مظلّتينا ومشينا بسرعة نحو النادي. لاقتنا الأضواء النيّرة للمدخل المقبّب، وعلى الجدارين المتقابلين صور مصفوفة بالأبيض والأسود لجنرالات. قالت كارمن: إنّ النادي كان متنزّهاً لضبّاط الجيش أيّام الحرب العالميّة

الثانية، وهذه صور روّاده. قابلَنا بار ضخم، وعلى الجدران صور كثيرة بالأبيض والأسود مأخوذة من أفلام الحــرب في مواقــع تصويرها، وفي أثناء أداء ممثّليها: (الصليب الحديــديّ)، و(ليلــة الجنرالات) و(القارب). الجدار الأوسع مخصّص لصوفيا لــورين، حيث صور فوتوغرافيّة كبيرة من جلسات تصوير خاصّة بهــا، أيضاً بالأبيض والأسود الذي يمحو ذاكرة الألــوان، ومــؤطّرة بإطارات سوداء رفيعة. بدا لي أنّ مخلّفات الحرب في كلّ مكان لا نهاية لها، وليس ثمّة لون يمكنه أن يمحو ذاكرتها سوى أن نحوّل الناس إلى جمال خالد كجمال هذه الأيقونة: صورة لهــا وهــي تلتفّ في السرير بشرشف أبيض كأنّها مستيقظة مــن نومهــا، ويظهر عريّ كتفيها وأعلى نهديها، وصورة تجري فيها خارجــة من البحر نحو الشاطئ والأمواج تــتلاطم خلفهــا، وصــورة بــ (شورت) من الجينز تمسك فيها بقدمها وتتفحّصها كأنّهــا تخرج منها شوكة. صورها كلّها ساحرة!

ورثت ماما شغفها بنجمة (امرأتان) و(أمس واليوم وغــداً) عن جدّتي كرمة، والتي كانت تجد أنّ بينها وبين صوفيّا لــورين نسباً وثيقاً من حيث صدورهما عن فلسطين. كانت تحكي عــن شجاعتها وتشير إلى أنّ الشظايا التي أصيبت بها في ذقنها في أثناء توجّهها إلى الملجأ لم تعطّل جمالها الخــرافيّ، وذلــك في بلــدتها بوتزيولي، قرب نابولي، والتي كانت هدفاً لقصف متكرّر من قبل الحلفاء. كما أنّ عملها في غسيل الأطباق في حانة جــدّتها، ثمّ

نجاحها الساحق بعد ذلك، يجعل منها عبرة لذيذة لأبناء الحرب جميعاً.

جلسنا إلى طاولة في الرواق الداخليّ مطلّة على بحيرة أديناور (Adenauer Weiher)، والمسمّاة تكريماً للرجل الذي أخرج بلاده من الردم، وقادها إلى المعجزة الاقتصاديّة، وصار أوّل مستشار لألمانيا بعد الحرب، وكان سبب هذا الأمان الذي ينعم به سرب من البجع الأبيض في البحيرة، وقد خرج يتهادى بعد انسحاب الغيوم الماطرة، ولمعان شعاع الشمس.

أضاءت غابات الدردار والبتولا على شاطئ البحيرة المقابل، والتي كلّما أمعنا النظر في عمقها أحاطت ذاتها بالغموض وحجبت أسرارها. حاولت أن أشتّت قلقي بالنظر إلى عيني كارمن وهي تتفحّص قائمة الطعام. طلت رموشها بماسكارا، واعتنت بمكياج لامع، ولبست ثوباً من الجورسيه الرمادي، وألقت على كتفيها شالاً كحليّاً، ووضعت عقد المرجان الأحمر الذي قدّمته لها. كان من مجموعة أمّي، ولن أجد أعزّ منها لأهديها إيّاه، لقد انتشلتني، حقّاً انتشلتني! فكّرت: كيف خرجت كارمن من مضيق الآلام، من تراجيديا أبويها الأبديّة، ومن خذلانها العاطفيّ، ومن هروبها من الجنّة كما سمّته! وهل سيمرّ الوقت فعلاً فأصير مثلها، أجلس على تلّة الخراب وأتناول فنجان قهوة، وأحدّث الناس عن جدّتي التي اكتشفتُ بأنّني لم أقتلها، وعن أمّي التي حملتُ جثّتها ناقصة على حصان كأنّني في

زمن الهكسوس، ثمّ ألبس ثوباً موقّعاً بعلامة إسكادا، وأجلس بانتظار أن أرتمي في أحضان عدوّي القديم!

لقد قهرني نيكولاس، وأطفأ ضوءاً في قلبي الصغير لم أتمكّن من إيقاده أبداً. أشقى طفولتي بمجرّاته، ونجومه، وبتّانيه، وقصائد أمّه. قضيت ليالي طويلة بعد ذلك الصيف أرمّم الحروق التي أشعلتها دموعي في غرفة السروج، والتي شوّهتنا أنا وأمّي!

نقرت كارمن على الزجاج، وهي تنبّهني.. هيه هيه... تشير بإصبعها إلى الجسر الخشبيّ الذي يربط البحيرة بمدخل جانبيّ لـ (أستوريا). يتقدّم رجل مسنّ بخطوات هادئة، طويل وفي ظهره انحناءة. يرتدي معطفاً مطريّاً بلون بيج. يمشي كأنّه يحسب خطواته، ويقرع أرض الجسر بعقب مظلّة سوداء في يده. بدأت تتّضح لحيته البيضاء وشعره الأشيب الملقى إلى الخلف والذي يصل كتفيه، مثل بوسايدون يخرج من قلب البحيرة.

تركتُ كارمن، واتجهت نحو الباب، تأكّدت من أنّني لن أرتطم بالزجاج النظيف. لا أعرف من فتح الباب، هل هو النادل أم أنّه باب كهربائيّ! المهم أنّه انفتح، وهاجمتني رائحة الشجر المغسول، وصياح الإوزّ، وبرودة لاسعة. ارتددت لأحضر شالاً، وقفت أمام الباب فلم ينفتح! عدت لأقطع الـ (تيرّاس) الذي يفصل الصالة المغلقة عن البحيرة. مضيت كمن يسير في نومه، وعيناي معلّقتان على الهامة التي تتقدّم نحوي بإقدام حاملة صندوق حياتي الأسود بكلّ ما فيه من شيفرات، وحقائق،

وأوهام، وصور، وقهقهات، ونحيب. انتبهت إلى أنّني منكمشة! حين كانت ماما تعلّمني المشي على الجسر العتيق، كانت تقول إذا رفعت رأسك، وشددت ظهرك، وفردت كتفيك، فستحصلين على نصف متر إضافيّة من الطول، وهذا ما كنت بحاجة إليه لأقاوم برد الصيف، وأواجه ثقة نيكولاس. تقدّمت إلى خشبة الجسر وصار نيكولاس قريباً، مازالت عيناه العسليّتان مربكتين مثل نقطة التفرّد، التي تسقط عندها قوانين الفيزياء كلّها، لكن عليّ أن أعترف لنفسي في هذه اللحظة الحاسمة بأنّني لم أشكّ يوماً في العطف الذي ينطوي عليه قلبه. ذلك العطف الذي كنت أراه في ضحكة أمّي، ثمّ في دموعها بعد رحيله، وأنا على يقين من أنّ قلبه مثل قلب المدن القديمة لا يتغيّر أبداً. أمسكت بعقد اللؤلؤ الذي في رقبتي أتوكّأ عليه، ومضيت نحو عدوّي القديم بساقي أمّي المقطوعتين.

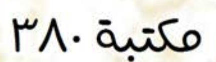
تمّت

عمّان

2018/6/2

"كلّما سافر يأتي لي بالسردين المخلّل، فنلفّ السمكة الصغيرة بخبزة، ونضع معها كيس الفلفل، ونجلس على رصيف من الأرصفة لنستمتع بمذاقها الحارق الذي يخرج من الأنف. ضحكت كارمن وقالت: قد تنسى المرأة رجلاً أطعمها العسل، لكنّها ستتذكّر دائماً ذلك الذي علّمها أكل السردين المخلّل!

قامت لتنام، وعدنا أنا وعبّود بحكاياتنا إلى الرقّة، ورحت بين ضحك وبكاء، فكان يأخذني بين ذراعيه ويهدهدني. يمسح دمعاتي ويشبك كفّيّ بكفّيه الصافيتين، ويقبّل مراراً أصابعي واحداً واحداً، ويمسّد شعري بحنوّ كأنّني رضيعة. منحني العزاء بأمّي، وأنساني ما ارتكبناه بحقّ جدّتي. لقد كان عبّود الكائن البشريّ الوحيد الذي أسكن روحي الجنّة.".



شهلا العجيلي

حاصلة على درجة الدكتوراه في الدراسات الثقافيّة من جامعة حلب، وهي أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأميركيّة في الأردن. وصلت روايتها (سماء قريبة من بيتنا) إلى القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة (البوكر) ٢٠١٥، وترجمت إلى الإنكليزيّة والألمانيّة. حصلت روايتها (عين الهرّ) على جائزة الدولة الأردنيّة في الآداب ٢٠١٠. كما صدر لها في الرواية (سجّاد عجميّ) ٢٠١٢. لها في القصّة القصيرة مجموعة (المشربيّة) ٢٠٠٥، وحصلت مجموعتها (سرير بنت الملك) على جائزة (الملتقى- الجامعة الأميركيّة في الكويت) ٢٠١٧، وهي أرفع جائزة عربيّة للقصّة القصيرة.

لها في النقد والدراسات الأكاديميّة (مرآة الغريبة: مقالات في نقد الثقافة)، و(الرواية السوريّة: التجربة والمقولات النظريّة)، و(الخصوصيّة الثقافيّة في الرواية العربيّة)، ولها كتب مشتركة في الهويّة والسرد، ومجموعة من الأبحاث المحكّمة في المجلاّت والدوريّات العربيّة والعالميّة.





منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com